هُـم وأُمَّهَاتُهم

عنوان الكتـاب: هُـم وأُمَّهَاتُهم
المـــوضـــوع: دراسات
التأليـــــف: معتز عبدالرحمن
مراجعة لغوية : دعاء فرج
الإخـراج الفنى: محمود عنتر
تصميم الغـلاف: عبد الرحمن محمد
رقـــم الإيـداع: 2663 / 2021
الترقيم الدولى: 7-200-844-977-978
الناشـــــر: منشورات الفنار

www.facebook.com/elfnaar
elfnaar@gmail.com

فيلا الأشراف- أمام بوابة هليوبوليس- مدينة بدر- القاهرة الكبرى
المدير العام / أ. مصطفى أمين

01013483506
01550102499

منشورات الفنار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

هُـم وأُمَّهَاتُهُم

روايــة

معتز عبدالرحمن

إلـى أُمـي الغالـية الـتي غمـرت أسرتنا بفيض حبها وحنانها وإلى جميع الأمهات الطيبات على هذه الأرض

معتز عبدالرحمن

هذا الكتاب

بـدأت حيـاة الإنسان علـى هذا الكوكب في إطـار علاقته بوالدتـه، كانت هي التي جاءت به إلى هذا العالم وأرضعته، وأطعمته، وسهرت على سلامته،

الأب خارج الصدد، ربما غير موجود، وربما التحق بامرأة أخرى أو ذهب ليصيد أو يقاتل.

هكـذا نشـأ ما يعرف بمجتمـع الأمومة، الأم هـي الحاكم، لكـن باستقرار الحياة وتوفـر الغذاء أخـذ الرجل بالبقاء والدفـاع وجلب الغذاء، فانتزع السيـادة من المرأة، ولكـن علاقـة الأمومة ظلت تلعب دورهـا، فحتى الآن يعرف الرجـل باسم أمه في كثير من الملابسات.

وعندمـا تتفجر عوامل الإبـداع في أي مبدع من المبدعين تأخـذ الأم الحيز الأكبر فيهـا، سـواء كان ذلك المبدع رسامًـا أو فنانًـا أو كاتبًا أو شاعرًا، وهـذا ما يبحث فيه هـذا الكتاب الذي يضم بين دفتيـه مجموعة من الأسماء النسائية الفاعلة ممن قدمن لأبنائهـن الكثير مـن التضحيات والعطـاءات، وتركن بصماتهـن في مجتمعاتهن، ولم يدَّخرن جهدًا في تربية الأبناء وخدمة القضايا الاجتماعية والإنسانية.

فمازالـت الأم عطرًا يفوح شعرًا ونـثرًا، ووميض يرف في ليلِ مظلم، عندها الكثير من مفاتيح خزائن المبدعين، وهذا ما يبحث فيه هذا الكتاب.

لكـن ما يلفـت النظر أن هناك العديد من الأسماء الأخـرى، التي تستحق الإشادة علـى الرغم من عدم وجودها بين الأسماء الثمانين، التـي تناولها هذا الكتاب، ولكننا قريبًـا سوف نتمكن من إضافة أسماء أخرى في مختلف المجالات، مع شكري وتقديري لكل من ساهم في أن يرى هذا الإصدار النور.

والله ولي التوفيق

معتز عبدالرحمن شرف الدين — **القاهرة يناير ٢٠٢١م**

قالوا عن الأم

قال تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه)

– «الأمهات هن فقط القادرات على التفكير في المستقبل لأنهن ينجبنه من خلال أطفالهن»

(مكسيم غوركي)

– " أعظمُ كتاب قَرَأْتُهُ: أمِّي" **(أبراهام لنكولن)**

– "الأُمُّ التي تَهُزُّ المهد بيَمينها تَهُزَ العَالمَ بيسارِها" **(نابليون بونابرت)**

– "تمتمات الأمهات على سجادة الصلاة نجنتّا من أشياء لم يعلمها إلا الله"

(أدهم شرقاوي)

– "كتب دومًا لأجل أن أستحقّ أُميِّ" **(مالك حداد)**

– "أُميِّ هي التي صنعتني" **(توماس أديسون)**

– "شيئـان لا يمكن نسيانهما إلا مع المـوت: وجه الأم التي أرضعتنا، ووجه مدينتنا التي عشنا فيها" **(ناظم حكمت)**

– "أُمي هي النبع الذي أستمد منه أسمَّى مبادئي حياتي" **(جون ويسلي)**

– " أن مستقبل الطفل رهينٌ بأمه" **(نابليون بونابرت)**

– "لو كان العالم في كفّة وأُمِّي في الكفّة الأخرى لأخترت أُمِّي" **(جان جاك روسو)**

– "إنِّي مدين بكل ما وصلت إليه وما أرجو أن أصل إليه إلى أُمِّي الملاك"

(أبراهام لنكولن)

– "وَجْه أُمِّي وَجْه أُمَّتي" **(جبران خليل جبران)**

– "ليس في العالم وسادة أنعم من حضن الأم" **(شكسبير)**

– "الأُمُّ شمعةٌ مقدسَّةً تضيء لك الحياةِ" **(لي شيببي)**

ـ "الأمومة أعظمُ هِبَةٍ خَصَّ الله بها النساء" **(ماري هوبكنز)**

ـ "أمـاه: عنـدكِ وحـدك أجـدُ الأمـان والحُـبَّ عندما ينبـذني الناس خاطئًا، وينفضّـونَ من حولي مهزومًا، ويبتعدون عني مريضًا، بك يا أمي أستطيع أن أعرف الله وأرى الجنَّة" **(بلزاك)**

– "أعظمُ ما يستطيع أبٌ فِعلَه لأولادِهِ هو أن يحُبَّ أمَّهم" **(ثيودور هسيبرغ)**

– "لو أننا طلبنا من رجلٍ أن يربِّي في بطنه مخلوقًا غريبًا لمدة تسعة أشهر يسبب لـه احتقان شرايـين في رجله وغـازات في أمعائه وغثيان نفس، واستفراغ من معدته، وفقدان ذاكرته وتنتهي بمدة ست وثلاثين ساعة من آلام شنيعة وعملية جراحية، فهل سيقبل بذلك؟ حتى رامبو سيرفض العرض!"

الروائية (كاثي لت) عن الحمل والولادة

– "إن كل الأمهات من أفضل نساء العالم، وأمي لأنها أمي، كانت أفضل امرأة في العالم"

الكاتب التركي (عزيز نيسين)

– "أمي هي أكثر قضية آمنت بها في الوجود" **(البير كامو)**

– "عندما كنت صغيرًا جدًا تسلقت تلك الشجرة، وأكلت تلك التفاحات الخضراء الحامضة، انتفخت معدتي وأصبحت قاسية كالطبل وآلمتني كثيرًا"، قالت أمي: "إني لـو انتظـرت إلى أن نضج التفاح لما مرضت، هكذا الحال الآن، كلما رغبت شيئًا بشدة أحاول تذكر ما قالت أمي عن تلك التفاحات".

(خالد حسين) الكاتب والطبيب الأفغاني.

– " عندما بدأت بالكتابة لم أتوقع أنني سأنجز رواية، ولكن والدتي كانت تقول لي: "أتعلمين ياليزا أن هذا الذي تكتبين من الممكن أن يصبح رواية؟ "

(ايزابيل الليندي) روائية من تشيلي

الأم في اللغة العربية

ليست الأُمُّ هـي الوالدة وحسب، بل هي أكثر من ذلك، ولهذا تأنت المعاجمُ اللغوية العربية المختلفة عند الحديث عنها.

فمن الأم اشتقت الأمومة، التي هـي عاطفةٌ أَوَدَعها الله تعالىَ في الأنثى الوالدة السوية؛ لتدفعها إلى كثير من الشفقة والحنان.

ومن هنا كانت الأُمّ أصل الأشياء: «أم الشيء: أصلُه، والأمّ والأَمَومَة: الوالدة، وأَمّت تَـؤمُّ أمُومَة: صارت أُمًّـا، وقال ابن الإعرابي في امرأة ذكرها: كانت لها عمةٌ تؤمها، أي تكون لها كالأمّ، وتأمتها واستأمَّها وتأمها: أتخذها أمًا.

كرامة الأمومة عند العرب:

لا أكاد أعرف أمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغته عند العرب، فقد روي عن حاتم الطائي بأنه ورث الجود عن أُمِّهُ، وكانت لا تُبقي عندها على شيء إلا جادت به على العُفَاةِ السائلين! وهذا عمرو بن كلثوم سيِّد بني تغلب وشاعرهم وفَارسُهم، ينهضُ إلى عمرو بن هند ملك الحيرة، وكان مع أُمّه في ضيافته، فيقتله إذا أحس أن الملك وأُمَّه هندًا يُريدان إذلالَ أُمِّه ليلى، ابنة المُلهلهل بن ربيعة سيد قومه، وزوجة كلثوم بن مالك أفرس العرب في زمانه!

وروى المبرد الكامل أبيات للسليك بن السلكة تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود إماء قد أذلهن الرِق، وأزرى بهن التبخل مع قصور يده عن افتدائهن جميعًا كرامة لأمه، وكانت جارية حبشية فلذلك يقول:

أشاب الرأس أني كل يوم — أرى لي خالة بين الرجال

يشق عليَّ أن يلقين ضيمًا — ويعجز عن تخلصهن مالي

وروى الغالي أن أم الفضل –بنت الحارث الهلالية– كانت ترقص ولدها عبدالله بن عباس قائلة: ثكلت نفسي وثكلت بكر

إن لم يسد فهرًا وغير فهر   بالحسب العدِ وبذل الوفر

حتى يُوارى في ضريح القبر

ويُـروى أن صفية بنت عبد المطلب كانت تضـرب ولدها الزبير بن العوام بن خويلد وهـو صغير وتغلظ عليـه؛ فعاتبها عمه نوفل بن خويلد في ذلك وقـال لها: أنت تبغضيه – فقالت:

من قال إني أبغضه فقد كذب وإنما أضربه، لكي يلب

ويهزم الجيش ويأتي بالسلب ولا يكن لماله خبأ مخب

يأكل ما في البيت من تمر و حب.

كذلـك الذين كتبـوا عن حياة العرب في الجزيرة العربيـة، فنّوهوا بذكر المنجبات من عقائل العرب، فذكروا أن فاطمة بنت الخرشب أنجبت لزياد العبسي أبناءه، الذين اشتهروا بلقب الكمَّلة وهم: ربيع الكامل وقيس الحفاظ ومارة الوهاب وأنس الفوارس.

روى أنهـا سُالـت يومًا: أي بنيك أفضل؟! فظهـر عليها التردد وهي تقول في حيرة: الربيع، لا بل قيس، ثم هتفت: «ثكلتهم أن كنت أدري أيهم أفضل؟» هم كالحلقة المفرغة لا يُدري أين طرفها.

هؤلاء نسبوا إلى أمهاتهم

كان عــدد كبير من قبائل العرب وبطونها ينتسبــون إلى أُمَّهاتهم، وهو انتساب فيه تكــريمٌ وإعْزازٌ للمرأة أيضًــا، كالمنذر بن أمرئ القيس، غلبت عليه تسميته إلى أمه ماء السمــاء، فكان يعرف بابن ماء السماء، واسمها ماويَّة بنتُ عوف بن جُشم الخزرجية، وعمرو بن المنذر غلبت عليه نسبتُه إلى أُمِّه هند بنت الملك عمرو بن حجر الكندي، فكان يعرف بعمرو بن هند، وأيمن بن عبيد الحبشي، ويقال له أيمن بن أم أيمن مولاة النبي ــــعليــه الصــلاة والسلامــــ نسب إلى أمه وكان أخًا لأسامــة بن زيد لأمه، وكذلك ابن أم مكتوم وهو عبدالله بن قيس بن زائدة نسب إلى أمه، وكان ضرير البصر، أسلم بمكــة وهاجر إلى المدينــة بعد غزوة بدر، وكان يؤذن للرسول –عليه الصلاة والسلام- في المدينــة مع بلال، وكان النبــي –عليه السلام- يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس في عامــة غزواته، وحضر حــرب القادسية، ومعه راية سوداء وعليــه درع سابغة فقاتل –وهــو أعمــى- ثم رجع إلى المدينة فمات بها، وهو الــذي عاتب الله تعالى فيه الرسول –عليه السلام- في سورة (عبس) وقصته المشهورة.

وكذلــك محمــد بن الحنيفة وهو محمــد بن علي بن أبي طالــب –كرم الله وجهه- وأخــو الحســن والحسين ينسب إلى أمِّــه خولة بنت جعفر الحنفيــة، وسميت بالحنفية لأنها كانت من سبي بني حنيفة، أعطاها أبوبكر لعلي –كرم الله وجهه- فاعتقها وتزوج بها، وكان واسع الحلم وخرج إلى الطائف هاربًا من ابن الزبير فمات هناك عام ٨١هـ.

◆ **أما في العصر الحديث فهناك الكثير من المشاهير:**

في مجــالات السياسة والأدب والفنــون اشتهروا وعرفوا بأسمــاء أمهاتم، ولاسيما عائلة الأم، عائلة الأب.

ونأخذ منهم على سبيل المثال:

الأسم الحقيقي	تشارلز باور	توماس إلفا إيليون	جورج بول	وليام اردن	البرت كوخ	أرنست هول	بابلو رويز	نابليون راموليتو	لودج كيفرتيش	ريان جوزيف ويلسون
أسم الشهرة	تشارلز ديكنز	توماس أديسون	جورج واشنطن	وليام شكسبير	ألبرت إينشتاين	أرنست همنجواي	بابلو بيكاسو	نابليون بونارت	لودنيج بتهوفن	راين جيجز

السيدة مريم العذراء
أفضل نساء العالمين

يقـول اللهُ تبـارك وتعالى: ((وأذكـر في الكتابِ مـريم إذ انتبذت مـن أهلها مكانًا شرقيًـا))، ويقـول عز مـن قائل: ((ما المسيح ابـن مريم إلا رسول قـد خلت من قبله الرسـل وأمه حديقــة كانا يأكلان الطعام))، والسيدة مريم هــي أفضل نساء العالمين، وهي امرأة جليلة عفيفة طاهرة صبرت على أذى قومها، وكانت تقية عارفة بالله تعالى فقد أكرمها الله -عز وجل- بكرامات ظاهرة، واصطفاها من بين جميع النساء؛ لتكون أمًا لنبيه عيسى المسيح -عليه السلام- دون أن يكون لها زوج أو يمسسها بشر، والسيدة الجليلة مريم، -عليها السلام- هي أفضل نساء العالمين بنص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فقد قال تعالى في محكم تنزيله: ((وإذ قالت الملائكة يا مريم أن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)).

وقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: ((وخير النساء مريم بنت عمران ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة بنت خويلد ثم آسيا بنت مزاحم)). رواه الحافظ بن عبدالبر.

ولادتها:

كانت أمها واسمها حنة، وهي امرأة عمران لا تلد فرأت ذات يوم طير يزق فرخة، فتحركت فيها عاطفة الإمومة وطلبت من الله -عز وجل- أن يرزقها ولدًا صالحًا، ونذرت أن تجعله خادمًا في بيت المقدس؛ لأنها كانت تظن أنه سيكون ذكرًا، ولأن الذكر عادة يصلح للاستمرار على خدمة بيت المقدس موضع العبادة، ولا يلحقه عيب بذلك ولكن الله -تبارك وتعالى- شاء لحنة أن تحمل بأنثى تكون سيدة نساء العالمين وأمًا لنبي من أُولي العزم من الرسل وهو عيسى المسيح -عليه السلام-

ولما ولدت امرأة عمران مولودتها الجديدة اسمتها (مريم) وتولاها الله -سبحانه وتعالى- برحمته وعنايته، وشاء الله لنبيه زكريا -عليه السلام- وكان زوج أخت مريم، أن يتكفلها دون غيره من الرجال، فكان زكريا -عليه السلام- يعلمها تعاليم دين الإسلام والأخلاق الحسنة، وينشئها على الأخلاق الفاضلة، فنشأت مريم -عليها السلام- صالحة عفيفة طاهرة من الذنوب والمعاصي، عارفة بالله -عز وجل- وتقية وليّة تداوم على طاعة ربها -عز وجل- آناء الليل وأطراف النهار، فأكرمها الله بالكرامات الظاهرة، التي كانت آيات عجيبة ودالة على عظيم قدرة الله تعالى، فقد كان نبي الله زكريا -عليه السلام- يرى عندها في المحراب وبعد أن يغلق عليها أبواب المسجد فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف كرامة لها من الله -عز وجل- يقول الله تعالى: ((فتقبلها ربها بقبول حسن وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أني لكِ هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)). ثم أن الله عز وجل قدّر في الأزل أن يوجد نبيه عيسى -عليه السلام- من غير أب وكان هذا أمرًا محكومًا بها سابقًا.

في علــم اللّه وكونه، فتنفذت مشيئته، وكان وتحقق ما شاء وقدّر في الأزل يقول اللّه تعالى: ((إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون)).

وفي ذات يــوم تنحت السيــدة الجليلة مريم -عليها السلام- عــن الناس واعتزلت مــن أهلهــا لتقضي أمــرًا ما، فخرجــت إلى شرق المحــراب الشريف، الــذي كان تعبد اللّه فيــه، حتــى صارت بمــكان يلي المشرق، وكانــت الشمس المشرقة قــد أرسلت عليها أشعَّتِها؛ فأظلتها حتى لم يعد يراها أحدًا من الخلق، وفي تلك اللحظات التي كانت فيها مريم -عليها الســلام- تقضي حاجتها متوكلة على اللّه، أرسل اللّه -سبحانه وتعالى- إليهــا أمــين الوحي جبريل -عليه السلام- وكان متشكلًا فظنتــه مريم إنسانًا، وخافت أن يتعرضــ لهــا بســوء وأذى فقالت لــه: ((إني أعوذُ بالرحمن منــك أن كنت تقيًا)) فطمأنها جبريــل -عليه السلام- أن اللّه تعالى أرسله إليها ليهبها ولدًا صالحًا طاهرًا من الذنوب، وهنا قالت له مريم -عليها السلام- على سبيل التعجب والاستعلام: (أني يكــون لي غــلام ولم يقربني زوج) ولم تكن فاجرة زانيــة؟ فأجابها ملك الوحي جبريل -عليه السلام-: (قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرًا مقضيًا).

وكان أمــين الوحي جبريل -عليــه السلام- لما جاء مريم -عليهــا السلام- حاملًا روح نبــي اللّه عيســى المسيح، نفح في جيــب درعها، وكان مشقوقًا مــن أمامها فدخلت النفخة في صدرها فحملت في وقتها بقدرة اللّه.

استمر حمل مريم -عليها السلام- بعيسى -عليه السلام- كحبل بقية النساء، ثم تنحــت مريم -عليها السلام- بحملها إلى مــكان بعيد عن الناس خوفًا من أن يعيروها النــاس بولادتها من غير زوج، وبعد أن صار بعض من النــاس من قومها يطعنون بعفتها وشرفهــا ويطعنون في نبــي اللّه زكريا - عليه السلام- الــذي كان يكفلها ويشرف على تربيتها وتعليمها أحكام الديــن، وتضايقت السيدة مريم -عليها السلام- من كلامهم

تضايقًا شديدًا، فصبرت على مصيبتها صبرًا جميلًا، ولما حان لمريم -عليها السلام- وقـت وضـع حملهـا جاءها المخاض، هو وجع الـولادة الـذي يأتي للنساء عـن الوضع فألجاهـا هـذا الألم إلى ساق نخلة يابسة، فأسندت ظهرهـا إلى جذع تلك النخلة وقد اشتـدَّ همها وكربها وقالت: ((ياليتني مُت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا)). وهنا جاءها الفـرج واليسر بعد العسر فقد جاءها الملك جبريل -عليه السلام- بأمر من الله تعالى فطمأنها وناداها من مكان منخفض من المكان الذي كانت فيه، يقول تعالى: ((فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريًا)).

بعـد أن ولـدت السيـدة مريم -عليهـا السـلام- مولودها الجميـل عيسى -عليه السـلام- انطلقت به إلى قومها، وكان قومها قد انطلقوا يطلبونها ويبحثون عنها، فلما رأتهم من بعيد حملت ولدها عيسى -عليه السلام- وضمته بين ذراعيها برأفة وحنان، ثم أتتهم به وهي تحمله وكان ذلك بأربعين يومًا من ولادتها له، فتلقتهم به وهي تحمله، وحيـث كلمها قومها في شأن مولودها أشارت السيدة مريم -عليها السلام- إلى ولدها عيسـى المسيح أن كلموه فتعجبوا من ذلـك، وقالوا لها مندهشين كيف نكلم من كان في المهـد جنينًا؟! فأنطقه الله -تبارك وتعالى- الذي أنطـق كل شيء، فقال: ((إني عبد الله أتـاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركًا أينما كنـت وأوصاني بالصلاة والزكاة مـا دمت حيًا وبرًا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًا والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا».

هـذه صـورة مشرقة عن قصـة السيدة الجليلة مـريم -عليها السـلام- مع ابنها عيسـى المسيـح -عليه السلام- تلـك المرأة الصالحـة التقية الصديقـة العارفة بالله -سبحانـه وتعـالى- التي انقطعـت لعبادة ربها، وكانـت خير مثال للمـرأة التقية التي تحملـت المصائب من قومها بنفسٍ راضيـة مرضية غير معترضة على ربها، حتى نالت هذه المنزلة عند خالقها، فكانت سيدة نساء العالمين.

أم موسى عليه السلام
«الأم الباسلة»

في قصــة موسى -عليه السلام- نجد حضورًا مكثفًا للمرأة بصورة متعددة: الأم، والأخــت، والحاضنة، والقابلة وغيرها، وغيرها، وكل واحدة منهن كان لها أثر كبير في نجاتــه من المخاطر التي كانت تحيط به، وسيكون التركيز هنا عن أمه، وكيف تحركت بوعي وفعالية وذكاء لتبعد عنه خطر الموت،

كانت سلطة (فرعون) الجائرة قد خططت تخطيطًا واسعًا لذبح الأطفال من بني إسرائيــل، حتى أن القوابــل الفرعونيات كن يراقبن النساء الحوامــل، ولكن في الوقت نفســه كانــت لإرادة السماء تخطيط آخر لحماية (موســى) أولها أن الله -تعالى- قد أخفــى حمــل أمه، وحيث أحست بأنهــا على أبواب الولادة أرسلــت خلف إحدى القوابل الفرعونيــات، وكانت تربطها بها مودة، أخــبرت أم موسى -عليه السلام- هذه القابلة بالواقع، وأنها تحمل جنينًا في بطنها وتوشك أن تضعه، فهي بحاجة في هذا اليوم إليها.

حــين ولد موســى -عليه السلام- سطع نــور بهي من عينيه فاهتــزت القابلة لهذا النور وطبع حبه في قلبها، وهذا الحب كان أحد أوجه التخطيط الإلهي لحفظ (موسى) قال تعالى: ((وألقيت عليك محبة مني)) سورة طه آية ٣٩.

التفتــت القابلــة إلى أم موســى وقالت لهــا: (كنت أنــوي أن أخبر جنــد الفرعون بهــذا الوليد وأنال بذلــك جائزتي، لكن حبه قد وقع في قلبــي فاحرصي عليه وأظن أن عــوني المتوقع سيكون هذا الطفل)، خرجت القابلة من بيــت (أم موسى) فراها بعض الجواسيــس مــن جلاوزة فرعــون وهموا علــى أن يدخلــوا البيت، وهنــا تدخل (أخت موسى) مسرح الأحــداث حيث أسرعت إلى أمها وأخبرتها لتتهيأ للأمر، فارتبكت ولم

تـدرِ ماذا تصنع! وفي هـذه الحالة من الارتبـاك والذهول لفّت وليدهـا بخرقة وألقته في التنـور المستعير، وعندما اقتحم الجنـد والجواسيس الدار لم يجدوا شيئًا إلا التنور المشتعل نـارًا، فسألوا أم (موسى) عن سبب دخول القابلة عليها فقالت: صديقتي وقد جاءت زائرة فحسب.

عـادت أم موسـى إلى رشدهـا وصوابها وسألـت ابنتها عن أخيهـا فأظهرت عدم معرفتهـا بمكانـه، وإذا البكاء يعلو مـن داخل التنور، ركضت الأم إليـه فرأت رضيعها سالمًـا، وقـد جعل الله النار عليه بـردًا وسلامًا، لكـن الأم لم تهـدأ إذا أن الجواسيس يمضـون هنـا وهناك ويفتشون البيوت، فإذا سلم الوليـد في هذه المرة فأنه لم يسلم في المرات الأخرى.

في هـذه الحالة اهتـدت أم موسى بإلهام جديد، إلهام ظاهـره أنه مدعاة للخطر، ولكـن مع ذلـك أحست بالاطمئنان والهدوء النفسي، قال تعـالى: ((فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)).

✍ أم موسى تلقي وليدها في النهر:

الأيـة السابقة على إيجازهـا تشتمل على أمرين ونهيـين وبشارتين، والإلهام الذي تلقتـه أم موسـى يدل علـى أن المرأة عندما تكـون أما ومرضعًا تحديـدًا تكون في ذروة القـرب مـن الله -تعالى- ومستعدة لتلقـي الرحمة والفيض الإلهيـين، ولذلك تحركت بفاعلية ونشاط مدفوعة بالأمل الذي أودعه الوحي الإلهي في قلبها.

توجهـت إلى نجـار مصـري وكان من الفراعنـة أيضًا، وطلبت منـه أن يصنع لها صندوقًـا صغيرًا وسألهـا قائلًا: (ماذا تصنعـين بهذا الصندوق مع هـذه الأوصاف؟ ولأنهـا كانـت غـير متعودة علـى الكذب لم تستطـع إلا أن تقـول الحق، وأنهـا من بني إسرائيل ولديها طفل تريد إخفاءه في الصندوق.

فما سمع النجار هذا الخبر على أن يخبر الجند نهض نحوهم، ولكن الرعب سيطر على قلبه ولسانه، وكلما حاول أن يفهمهم ولو كلمة واحدة لم يستطع، فأخذ يشير إليهم إشارات مبهمة، فظن أولئك أنه يستهزي بهم فضربوه وطردوه، ولما عاد إلى محله عاد إلى وضعه الطبيعي، فرجع ثانية إليهم ليخبرهم فعادت إليه حالته الأولى، وأخيرًا فهم أن وراء هــذا الأمــر سر خفي، فصنــع الصندوق وأعطاه لأم موســى، ولعل الوقت كان فجــرًا، والناس بعد نيام عندما خرجت أم موسى متجهة نحو الشاطئ، أرضعت كفلها حتــى ارتــوى ثم أودعته الصنــدوق في النيل، وفي لحظة أحسّــت أن قلبها انفصل عنها ومضــى مــع الأمواج، ولا أحد يستطيع أن يتصور حالهــا وهي تركض بمحازاة الشاطئ وتشاهــد الأمواج تأخذه بعيدًا، فأوشكت أن تصرخ من أعماقها وتذيع جميع أسرارها، لكــن لطــف الله أدركها وربط على قلبها قــال تعالى: ((وأصبح فــؤاد أم موسى فارغًا أن كادت لتبــدي لولا أن ربطنا على قلبها لتكونــن من المؤمنين)). القصص (آية ١٠) فعــادت بسرعــة إلى رشدها، لأن الله الــذي حملها هذا العبء الثقيــل ربط على قلبها لتؤمن بوعد الله، ولتعلم أن طفلها بعين الله، وأنه سيعود إليها وسيكون نبيًا)).

كلمــة (ربطنا) معناها في الأصل شد وثاق الحيــوان أو ما أشبهه بمكان ما، ليكون محفوظًــا والمقصــود به من (ربط القلب) هنا تقويته، أي تثبيــت قلب أم موسى لتؤمن بوعد الله وتتحمل هذا الحادث الكبير.

✍ موسى -عليه السلام- في بلاط فرعون:

تنتهــي رحلة الصندوق عنــد قصر (فرعون)، قال تعــالى: ((فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا))، سورة القصص (آية ٨).

ورد في الأخبار أن (فرعون) كانت له بنت لم يكن من الأبناء سواها، وكانت تعاني مــن آلام شديدة لم ينفعها عــلاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالــوا له: ستكون بخروج

إنسان من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه، حيث يدهن به جسدها، ولذا كان فرعون وزوجـه (آسيا) في انتظار هذا الحادث، لاح لعيونهما يومًـا صندوقًا تتقاذفه الأمواج، فأمـر فرعون عماله أن يأتوا بـه، ووضع الصندوق أمام فرعـون، وفتحه لينجو موسى على يد فرعون نفسه، وبديهي أن الفراعنة لم يجلبوا الطفل الرضيع من الماء ليربوه في أحضانهم، ليكون لهم في المستقبل

عـدوًا لـدودًا، بل أرادوه كما قالـت امرأة فرعون –قرة عين- لهـم، ولكن النتيجة والعاقبة كانت العداوة والحزن.

وكما يقول علما الأدب: أن الأم في الآية هنا) (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًـا)) وهي لأم العاقبة وليست (لأم العلـة) ولطافة التعبير كامنة في أن الله تعالى يريـد أن يبـين قدرته، وكيف أن الفراعنة عبأوا جميع قواتهـم لقتل بني إسرائيل: وإذا الذي أرادوا قتله يتربى في أحضانهم كأعز أبنائهم.

والتعبـير بآل (فرعون) يدل على أن الملتقـط لم يكن واحدًا بل اشترك في التقاط الصنـدوق جماعة من آل (فرعون)، وهذا بنفسـه شاهد على أنهم كان ينتظرون مثل هذا الحدث.

✍ موسى ينجو من القتل:

وقعـت عـين (آسيا) على الطفل سطـع منه نور أضاء قلبهـا، وحين حلت المعجزة وشفيـت بنـت فرعون من لعـاب فمـه زادت محبته أكثر فأكـثر، بل استحـوذ بجماله وطريقـة وصوله الغريبة علـى قلوب جميع الموجودين، ويلوح مـن تأمل الآية أن فرعون وجـد من بعض القرائـن المتعلقة بالطفل ومن جملتهـا إيداعه الصنـدوق، وإلقاؤه في النيل، أن هذا الطفل من بني إسرائيل، وأن زوال ملكه سيكون على يده، فأراد أن يجري سنته الإجرامية عليه، وأده أتباعه المتملقين ولكن زوجته التي لم ترزق ولدًا ذكرًا وقفت

بوجـه فرعون وأعوانه ومنعتهم من قتله، قال تعـالى: ((وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو تتخذوه ولدًا وهم لا يشعرون)). القصص (آية٩).

✍ **موسى يعود إلى أمه:**

هنا تعـود أخت (موسى) لمسرح الأحداث، فالأم الملهمـة لهم تتحرك لوحدها، بل استطاعـت أن تجنـد عنصرًا آخـرًا ليتحرك معهـا، وليتشكل بذلك فريـق عمل يعمل بدقـة وسريـة وحذر في وسط مليء بالأخطار، فمن الواضـح أن تتبع الصندوق لم يكن عمـلًا سهلًا فعليهـا التصرف بحيطة وذكاء حتى لا تثير حولهـا الشبهات، قال تعالى: ((وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون))، القصص (آية ١١).

وتتجلـى إرادة السمـاء التي لم تفارق موسى -عليـه السلام- مرة أخرى في صورة تحـريم المراضع عليه تحريمًا كونيًا، قال تعـالى: ((وحرمنا عليه المراضع من قبل))، القصـص (آية ١٢). فكان الطفل الجائع يملأ المكان ببكائه، وعمال القصر يركضون مـن بيت لآخر بحثًا عن مرضع، وهـو يرفض كل من تتقدم له، وبينما العمال بحيرتهم وذهولهـم تتقدم فتاة بهدوء وثقـة وتقول لهم: (هل أدلكم على أهـل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون)،

إني أعرف امرأة من بني إسرائيل لبنها غزير وقلبها طافح بالمحبة فقدت وليدها، وهـي مستعـدة أن تتعهد هذا الطفـل برعايتها، فسر بها هؤلاء وجـاءوا بأم موسى إلى قصـر فرعـون، فلما شم الطفل رائحـة أمه التقم ثديها بشغف كبـير، وأشرقت عيناه سرورًا، وسر عمال القصر كذلك، لأن البحث عن مربية أعياهم، وامرأة فرعون

هـي الأخـرى لم تكتـم سرورها للحصـول على هذه المرضعـة أيضًا، قـال تعالى: ((فرددنـاه إلى أمه كـي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعـد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون))، القصص (آية ١٣).

تقـول بعض الروايـات: "حيث استقبـل موسى ثـدي أمه، قـال هامان وزير فرعـون لأم موسـى: لعلـك أمه الحقيقيـة، إذ كيف يأبـى جميع المراضـع ورضى بك؟ فقالت: أيها الملك لأني امرأة ذات عطر طيب ولبني عذب، ولم يأتِ طفل رضيع إلا قبل بي، فصدقها الحاضرون وقدموا لها هدايا ثمينة.

وهكـذا تحقـق وعد الله الأول، وعاد الطفـل إلى أحضان أمـه، وفي مستقبل الأيام تحقـق الوعد الثاني، وطوى موسى -عليه السلام- بساط فرعون وأنهى ملكه وجبروته بمساعـدة ثلاث نساء: أمه، وأخته، والمرأة التي ربته، مما يدلل على أن للمرأة دورًا في حفـظ الأديـان، ورسل السماء، وعلـى قدرتها على التحرك والتأثـير مهما كان الوضع حرجًا وخطيرًا.

السيدة هاجر
أمّ إسماعيل

((وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليـم، ربنا وأجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)).

كانت تعمر البيت سكينة غير محببة، سكينة بغيضة ينفر منها القلب، وتضيق بها الـروح، وتشبع في النفس القلق والخوف من المجهـول، وتوحي بالموت، واليأس الخانق، ولهذا كرهته «سارة» بكل حواسها، ولم تعد قط ترتاح إليه.

لم تعد ترتاح نفس صاحبة خليل الرحمن «إبراهيم» إلى هذا الصمت المقيت الذي آحـال جنة بيتهما جحيمًا لا يطاق، وراحت سارة في قلق وخَوف تنظر حواليها، وكذلك كانـت تفعل كل يـوم، راحت زوج إبراهيـم وابنة عمه تنظر حواليهـا وكأنها تبحث عن شـيء، ولا شـيء أبدًا في ذلـك البيت! إلى من كانت تنظر سـارة؟! ومن كانت ترجو أن تجده هناك والبيت جديب، خاشع، لا حس فيه ولا حياة؟!

إذًا فلينطلق الخيال إلى الخارج حيث يعيش الناس حياة أخرى غير تلك، التي قدّر على سارة أن تحياها بين جدران ذلك البيت الكئيب.

وتبـدو لسارة المحطمة القلب عظـم الفارق بين حياتها وحياة سائـر الناس، أنهم ما دامـوا بعيدين عن محيط هذا البيت الصامت، فهم يعيشـون الحياة، ويستشعرون جمالهـا وروعتهـا، ولا يجدون في كل شيء يحوطهم إلا بهجـة وسعادة وإحساسًا بالمرح والصفـاء، وزفرت سارة زفـرة حارة تفطر لها القلب الكسير، وقـد فهمت السر الذي حارت في تقصيّه.

ليس بالمال وحده يسعد الناس، ولا بالبيت الهادي الوادع، ولا بالصفاء الذي يرفرف علـى ربوع الدار، بـل بشيء آخر، شيء كانت تتمناه وترجـوه ولكن أمانيها قصرت عن الوصول إليه، فبدأ كالسراب القاتل -قريبًا- بعيد المنال، وراحت سارة تزفر ثم تنكس رأسها في خشوع الراضية التي لا تملك غير الصبر والرضا والتسليم.

ومرّت «هاجر».

مـرت هاجر أمام سارة في سرعـة وخفة وشباب! مرت الشابـة المصرية الوضيئة الوجـه، الباسمـة الثغـر المشبوبة الحركة، مـرت أمام سـارة في سرعـة وكأنما نقلت خطواتهـا المرحة سارة من عالم إلى عالم، وجعلتها تدخل في هدوء جنبات عالم فسيح وضاء، هذه المصرية الشابقة، هي الأثر الحي الذي طالما حمل إلى خيال سارة وزوجها خليـل الرحمن صورة محببة عـن حياة رغدة عاشاها في مصـر الحبيبة، جنة الله في أرضه، حيث لجأ إليها فرارًا من جدب الصحراء وقسوة العيش، فلقيا فيها كل إعزاز وتكريم.

وشـاء الله أخـيرًا للمهاجريـن الكريمين إبراهيم وسـارة أن يعودا مـن حيث أتيا ويتركا مصر، فودعهما الملك الهكسوسي الغاصب بكل ترحيب وأغدق عليهما عطاياه، ولم يبخل بغالٍ أو نفيس، وكانت «هاجر» هذه هدية من جملة هداياه لسارة وإبراهيم.

وهكـذا قدِّر للمصرية الشابة أن تترك بلادها، وتصحب إبراهيم وسارة إلى حيث يشاءان راضية قريرة العين، وخلفت هاجر الوادي الأخضر وراءها، ثم سارت مع أهلها الجدد حيث أمرهم الله أن يستقروا وأن يطيب لهم المقام، ومرّ الزمن واستقر إبراهيم في هـذه البقعة المحـدودة من أرض فلسطين، وفي ظل إبيمالـك حاكم البلاد، وفي بيت وادع هـادي، جعله موئلًا للناس، ومستقرًا لدعوته الكبرى وأداء رسالة الوحدانية التي بعثه بها الله مبشرًا، وداعيًا، وهاديًا إلى الطريق المستقيم.

وآمنـت هاجر على يـد إبراهيم، آمنـت هاجر بالوحدانية المنوهـة عن الضلالات

والشـرك وشهـدت بأنه لا إلــه إلا الله وحده، خالق كل شيء، وهــو الذي يحيي ويميت، آمنــت هاجر بالحنفية السمحاء، وكفرت بمعبــودات أهلها، واتَّبعت خليل الله إبراهيم على دينه، وآمنت بالله وأتخذت الإسلام دينًا لتسلم وتنال الرضا وتفوز برضوان الله.

ووجـدت هاجر في دينها الجديد موئل نفعتها وراحــة قلبها، فأخلصت في عبادتها وأقبلـت على تعبدهــا، وقد بدأت الحجب تتكشف لها يومًا بعد يوم، وترى الآيات لحظة بلحظة، وأحسَّت كانما هي قد خلقت من جديد.

لقد دعا الإسلام إلى كل فضل وحثّ على كل فضيلة، وإن هذا ليصادف هوى عميقًا في فؤادهــا، حتى أنها لترى في الإسلام وإتباعه حياة جديدة، بعثت هاجر لتحياها من جديد، قانتة، وعابدة، ومسلمة مخلصة.

ووقفــت سارة أفكارها عنــد ذلك الحد، وكأنما لم تجد بعد هــذا ما تفكر فيه، بل في أي شــيء كانــت تفكر بعد ذلــك، والفكر جاهد مشلول، والأمــاني حائرة كليلة، وها هــي تدور حول الأمنية المكبوته، التي راودتها وتحاول الانطلاق من أسوارها إلى فضاء طلق، فتكبو لا تستطيع الفكاك منها،

وسكنت سارة وتبلد بها الفكر عند هاجر وصورة هاجر، وراحت في غمرة الدهشة والذهــول والحيرة تسائل نفسها، لماذا شغلــت نفسها بهاجر المصرية؟ في هذه اللحظة بالــذات وإذا توقفت أما صورتها المشبوبة طويلًا، وراحت تستعرض ماضيها الذي ولت وحاضرهــا الذي تعيشه اليــوم في رعايتها هي وزوجها إبراهيم! لقــد كانت سارة ترى هاجر كل يوم، ولكنها لم تشغلها غير اليوم فقط وهي في غمرة الأسى والحسرات والشرود!

إنهــا تفكــر في ذلك الصمــت اللعين الذي يطــوي بيت خليل الرحمــن تحت إبطه، وينشــر فوقه جلاليب غموضه، فمــن الذي أمنحهم صورة هاجــر على ذلك الصمت، وأي علاقة لها بتلك السكينة البشعة!

إن للصمــت حواس، رهبة، ومخاوف، وأحلام بشعة مؤرقة، وهاجر! هاجر المسلمة الخاشعة المؤمنة الطيبة، الفتاة الوضيئة الوفية! إنها شباب نضر متوثب، وحياة مرحة، وتطلــع مشبوب إلى غد مرجــو، فأي علاقة لها بذلك الصمــت الوخيم على بيت خليل الرحمن، وقلب سارة زوجته القلقة المتبرجة؟!

لقــد كانــت هاجر هي المظهر الوحيــد المرح للحياة في ذلك البيــت، ولكن هاجر لا تخصــ سارة، ولا تعتبها في شــيء، وإنما لترجو أن تملك ما يقضي على ذلك الصمت، ويبدد تلك السكينة الضاربة.

إن ســارة تحلم بسماع صوت جديد يحــوي المرح والصفاء في جوانب البيت، صوت يخصهــا هي، ويسعدها هي ويمــلأ بالفرحة قلبها الكسير! إنهــا ترجو وترجو ولكن ما أبعــد الشقة بينها وبين أن يتحقق الرجاء، أو أن يصبــح السراب الظاهر دومًا لعينيها حقيقة واقعة.

وأقسمــت سارة في مرارة وأسى، ثم وجدت نفسها تــترك مكانها لتتجول في أنحاء ذلــك البيت، وقد أخذت أرانين الفكرة التي راودتها تدوي في أذنيها بطنين رهيب! لقد عاشــت مع خليل الرحمن إبراهيم ما عاشت من سنــين طوال، أبى الله القادر خلالها أن يمنحهــا نعمة الولد ليملأ حياتها بالبهجة، وقلب زوجها الكريم بالسعادة والفرحة، ولئــن كانــت السنون التي تولت قــد ألهتها عن التفكــير في هذه الأمنيــة الغالية، فإنها اليــوم وهي تسير وزوجهــا العظيم إلى الكبر، وتخطو ويخطو معها إبراهيم إلى مراحل الشيخوخة؛ لتحس الحنين إلى الأمومة الحانية ونجدها سلواها ورجاءها العزيز.

وتوقفــت سارة عن أحلام يقظتها وقد دهمتها فكرة مروعة استشعرت معها مرارة الخيبــة وقسوة الخذلان مقدمًا؛ لأن أمانيها الغالية لــن يقدر لها أن تتحقق في يوم من الأيام، فهي عقيم. وا أسفاه عاقر لا تلد.

ولا يمكن أن تلد، ولن يدوي في جوانب بيتها صوت طفل وتعلو أصداء ضحكته المرحة.

وزفـرت سـارة متحسرة، ونكسـت رأسها مستلمة، فمـاذا كان بيدها أن تفعل غير الاستسـلام والرضا، وهي زوج إبراهيم إمـام الشعوب ومعلم الأمم وهادئ الناس إلى الحـق، إنهـا تعرف أن تلك هـي إرادة الله، وأن عليها أن تذعـن راضية خاضعة، ولقد خضعـت فعلاً، ورضيت بالواقع، ولكنها عادت في غمـرة الحيرة ترثي لزوجها العظيم وهي تسائل نفسها، وما ذنبه هو؟ ما ذنب إبراهيم أن يحرم الولد؟

وعـادت هاجر تتنقل في أرجاء البيت فتملؤه شبابًـا وحيوية وسعادة! وراحت سارة تراقـب المصرية الشابـة في دهشة وهي تسائل نفسها عن سـر اهتمامها اليوم بالذات بتتبع خطوات هاجر وإدمان النظر إليها، وأغمضت سارة عينيها لحظة، كمن أحبت أن تبعـد عنها فكرة قوية طارئة بدأت تشغل تفكيرها في قسوة وعنف، وما لبثت أن فتحت عينيها، وراحت تنظر إلى هاجر من جديد وبرغمها.

إنهـا تحس أنها مجبرة على الاستسلام لالتماعة الفكرة، وأخذت تلقي أضواء على ظلمـات الفكر الكليل، إنها عاقر لا تلد، وإن هـذا الصمت المخيم على البيت، يجب أن تتلاشـى أخيلته الداكنة، وتنحسر ظلاله السوداء، وأن تغمـر بين إمام الشعوب فرحة الإحساس بالأبوة والأمومة.

الأبـوة والأمومة! تلك كانـت المشكلة الكبرى والسر الرهيب الـذي بدأت طلاسمه تتجاذب أمام نورانية الفكرة، التي شعت على القلب الكسير.

لأ أمل لسارة في الأمومة، فلم تحرم إبراهيم نعمة الأبوة؟! ولمَ لا تشعر بحلاوتها؟! ولماذا لا توفر له هذه الأبوة البارة وتهبه الابن المرتقب؟!

وارتاحـت سارة إلى الفكرة، وخرجت لها إلى حيز العمل الجدِّي والسريع، واستقر رأيها على أن يتزوج إبراهيم «هاجر»، عسى أن يتفضل الله عليه بالخير، وتهب له منها نعمة البنوة التي تبدد الصمت الضارب على البيت ومن فيه!

وأسرعـت سارة إلى إبراهيـم تسر إليه بأمنيتها، وذعر الرجـل، ذاك أمر ما فكر فيـه، وهو العالم بـأن كل شيء إنما يجري بأمر الله، ولكن سـارة أخذت تلح ثم راحت تتوسل وترجو.

ورضى إبراهيم أخـيرًا، وتزوج خليل الرحمن هاجر المصرية، وبنى بها وهو يسأل الله في أعمـاق نفسه أن يحقق في هاجر الزوجة الثانية رجاء سارة الزوجة الأولى، وأن يهب له القادر الخلاق الابن المرجو.

ولـد إسماعيل فكان ميلاده حياة جديدة، ومشاعر جديدة في بيت إبراهيم، ومرت الحياة رتيبة هادئة وادعة في البيت السعيد، ومضت معها الأيام في يسر وراحة.

ثـم طرق ضيوف على إبراهيم الباب، فرحب بهم وبالغ في إكرامهم، وأسرع فجاء بعجل حنيذ، (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا: لا تخف إنـا أرسلنا إلى قوم لـوط)، سمعت سارة الجدل وعرفت حقيقـة ضيف زوجها، وإنهم ليسوا غير ملائكة الله، قد أرسلوا إلى قوم لوط العصاة للقضاء عليهم.

وكأنمـا أسعد سارة الطيبـة أن ترى ملائكة الرحمن ضيوفًـا في بيتها فاستبشرت بذلـك وضحكت، وإذا بالملائكة يبشرونها بإسحاق ويحولـون دونها والتساؤل، ويطلبوا إليها ألا تعجب فذلك أمر الله، وليس لها أن تسأل، وأن تقول أنها عاقر وأن زوجها شيخ!

وشهـد البيت الصامت مرة ثانية فرحة جديـدة وولد إسحاق! وكبر إبراهيم وهلل وشكر الله على نعمه العظمى ثم جاء إلى إبراهيم أمر ربه، وابتلاه الله بكلمات فأتمهن عليه، وبشره بإمامة الشعوب جمعاء.

وسجـد إبراهيـم شكرًا لله المنان القـادر، وارتقى إلى سدته بالنجـوى والضراعة والدعاء وسأله –سبحانه وتعالى– أن يجعل هذه الإمام في ذريته ومن بعده، فأستجاب الله له، وقال أن عهده سبحانه وتعالى لا يناله الظالمون،

إذًا فقـد عظـم شأن الرسالـة ذاتهـا، وامتدَّ رواق جلالهـا على العالمـين جميعًا، فأصبحت إمامة للناس كلهم، وستكون فيما بعد ميراثًا لبني إبراهيم، وبدت سارة وقد صـارت أمًا تخشى أن يكون حظ إسحـاق وحيدها من الإمامة قليلًا، وأن الحظ الذي أعطـى هاجرًا قبلها وجعلها زوجة لإبراهيم قد يسرف في عطاياه للمصرية المحظوظة فتكون هي أم وريث إمامة إبراهيم.

وأظلمت الدنيا في عيني سارة وتسألت نفسها عمّا يمكن أن يجث لو تفرّد إسماعيل بمـيراث أبيـه الروحي والديني؟ وكانت لـه وحده الإمامة على النـاس! وماذا يمكن أن يحـدث لابنها ولبنيه من بعـده، وأي مكان يكون لهم في هذه الدنيـا، هل يكونون خدمًا وعبيدًا ورعايا وأتباعًا لإسماعيل وبنيه؟!

وحـزَّ في نفسهـا، فلـو لم تتسـرع وتـزوّج هاجـر إبراهيـم لمـا داهمتها أبـدًا تلك التصـورات! وعضت سارة بنان الندم ولكن بعد فـوات الوقت، وبعد أن أفلتت الفرصة من يدها وكانت هي من أسلمت المقود إلى يدي هاجر.

وراحـت سـارة تتمثل هاجر شريكتهـا في إبراهيم، ثم أم وريـث الشريعة والكتاب والإمامة للعامة وسيد الغد، وإمام النـاس أجمعين، وكادت سارة تجن، وأفلتت عواطفها ولم تستطع أن تكبح جماح نفسها، فأطلقت لأوهامها العنان، فكبحت وشردت، وذهبت هنـا وهناك كل مذهـب، وأفسحت للغيمة الرعنـاء مكانًا، أصبحت فيـه الغيرة مالكة القلـب بلا شريك، وارتفـع صوت سارة تقـول لإبراهيم إنها لن تسمـح لابن هاجر أن يشـارك إسحاق ابنها في مـيراث أبيه، وإنه لن يبقى وأمه في بيتهـا، وأن على إبراهيم أن يبحـث لهما عن بيت آخر ومكان آخر بعيد يعيشـان فيه، وحار إبراهيم ماذا يفعل، وزفـرت زفـرات التـبرم وهو لا يـدري إلى أيـن يستقر به الفكـر الحائـر، أيبقي على إسماعيـل وأمه ويضحـي بسعادته البيتية؟ أم يبحث لأم إسماعيل عن بيت جديد تكون فيها وابنها بعيدين عن سارة وغيرتها وقسوتها؟!

ووجد خليل الرحمن أن الهدوء المنشود هو في إبعاد كل من الزوجتين عن الأخرى. وفي بيت خاص، وعادت سارة تشترك وتلح أن يكون بيت هاجر بعيدًا عن بيتها، بل عن نطاق المحل التي نزلت فيها حيث تستقر إبراهيم من قبل.

وسكت إبراهيم على مضض ولم يدر إلى أين يذهب برزوجته هاجر الوادعة، وبابنها الرضيع البريء، ووجد نفسه في النهاية يخرج بهما وهو لا يدري إلى أين يذهب؟ وسار إبراهيم وهاجر معه من محلة إلى محلة ومن مكان إلى مكان، وهو مستغرق في تفكيره، جاد في سيره حتى تجاوز العمران، وبدأ يتوغل في قلب الصحراء حيث لا حياة ولا زرع ولا نماء،

لقد أحس إبراهيم أنه إنما كان يسير بوحي وإرشاد وإلهام، وإن اتباعه هذا الطريق الجدب القفر، لابد أنه قد تم لحكمة خافية، وإن صمت هاجر وعدم تبرمها لابد أن يكون وليد إرادة ورغبة عليا.

وطال بخليل الرحمن السير والسرى وهو يتوقف ليسير، ثم يسير ليتوقف، ثم يتابع السير من جديد، وكأنما يقصد مكانًا معينًا بالذات.

وأخيرًا أحس إبراهيم الإرهاق، وعجزت هاجر عن الاستمرار في السير، وصرخ الرضيع البريء، وكأنما كان يعيّن بصرخته المكان المقصود، فتوقف الشيخ الجليل، وطابت نفسه ونفس هاجر إلى الراحة، أحسّ ألا رغبة له بعد ذلك في المسير.

ووقر في قلب إبراهيم أن هذا المكان هو المكان المختار، لتقيم فيه هاجر بعيدًا مع ابنها إسماعيل، ولكن أي إقامة هذه التي يمكن تستقر في مثل ذلك القفر الجديب؟ في مغارة رهيبة يرفرف فوقها الصمت ويخيمّ الموت، فلا حسّ ولا حياة، ولا أثر لحياة أو زرع أو ماء.

ونقل إبراهيم عينيه في ذهول ورهبة، وتمنى لو يعاود المسير مرة أخرى، أو يرتد

مـع هاجر إسماعيل من حيـث جاء، ولكنه لم يستطع أن يـديم، وكأنما كان قدر هاجر وابنها قد ارتبط بهذا المكان.

ونظـر إبراهيـم إلى هاجر من بـين أهدابه يرقبهـا في حذر وضيـق، كانت هادئة صابـرة، وراضية، لم يفزعها المـكان، ولم يروعها الصمـت، ولم يحزنها ذلك الجدب الضارب على الصحراء.

وتولت الليلة بما فيها وأشرف الصباح، وعاد إلى إبراهيم تفكيره في المسير، ولكن رغبتـه تضاءلت، وتبـدّى له كأنما هو وأهلـه مأمورين بالبقاء حيـث حطت بهم عصا الترحال، ووجد نفسه يتجه إلى الله بضراعته، ويرقى إليه بصلاته ونجواه.

((ربـي إني أسكنـت من ذريتي بـوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحـرم ربنا ليقيموا الصلاة فأجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)).

وتعـالى الرجاء إلى سدة العرش، وغمرت نفـس إبراهيم راحة أحس معها أن الله قد سمع واستجاب للدعاء، وأنه لا ضير عليه بعد ذلك أن يترك هاجر وابنها حيث نزل بهما وأن يعود من حيث جاء.

ورجـع إبراهيـم وبقيت هاجر المكافحة الجريئة وحدهـا في قلب الصحراء التي لا حدود لها، بقيت لتضع بذور حياة جديدة أرادها الله في هذه البقعة المقدسة بالذات.

وبـدأت هاجر حيث هي تقيم أسس الوجود، وتعمـل لاستقرار حياتها الجديدة في ذلك المكان دون أن تفكر في الغد، ولا على أي صورة سوف يكون.

كانـت هاجـر مسلمـة، أسلمت لربها وقـد فُرض الإسـلام على البشريـة جمعاء، فالإسلام فريضة مقررة، لأنه الأمر الخالد للناس بأن يشهدوا الخالق سبحانه وتعالي بالربوبية، ويقرون الوحدانية المطلقة، ويطيعون ولا يعصون.

كانت هاجـر شديدة الاستمساك بأهـداب دينها، عميقة الإيمـان، وطيدة الصلة

باللّه، تعرف عن صدق أن اللّه لن يكلها في وحدتها هذه لغيره، ولن يحرسها سواه، فلم تفكر في شيء آخر، وابتسمت للحياة في رضا وهدوء واستسلام، ومن أسلم نفسه وذاته للّه فسوف يجزيه أجره في الدنيا والآخرة، بل في أي شيء كانت.

تفكـر هاجر وهي تعلم أن كل هذا الوجود رهين بأمره -سبحانه وتعالى- وأنه قدّر فهـدى، وأعطى كل شيء حقـه، وقدّر الرزق والموت والحياة، علـى كل من خلق وأن كل شيء عنده بمقدار.

وأقبلـت هاجر علـى تعبدها، وراحـت تقتل الوقت الملـول بالضراعـة والصلوات، ووجدت في التعبّد وفي رعاية الطفل ما كان يشغلها عن التفكير في أي شيء آخر.

ومّـرت الأيام وكل شـيء على حاله، وهاجر لا ترى في يومهـا إلا مارأته في أمسها، والأمس الذي سبقه، فضاء ورمال وسماء ثم صمت قاتل رهيب!

إنهـا صـورة مألوفة، صورة الأمس، وصـورة الغد، وما بعد الغـد، ولكن الزاد أخذ ينفـد، والماء يقـل والأيام تتوالى، وتهتف هاجـر راضية أن اللّه لن يتخلـى عنا أبدًا أنا والرضيع البريء.

كانـت ابتسامة إسماعيل الوضاءة تملأ حياة هاجر بالنور والأمل والفرحة، وكانت ضحكتـه الناغيـة تنزل في قلبها بردًا وسلامًا، وكأنها أنـداء الصباح الطاهر تتساقط على أكمام الزهور.

إليس إسماعيل الرضيع ابن خليل الرحمن إبراهيم زهرة ندية عبقة؟ قدّر لها اللّه أن تعيشـ في الصحراء، وأن تنمـو وتثمر وتتكاثر وتكون منها زهور وزهور، أليست هذه هـي سنة الوجـود وشريعة الحياة؟ إذًا فلـم تعبس؟ ولماذا تبتئس؟ ولمـاذا تخاف؟ إنها مسلمة شديدة الاستمساك بإسلامها.

وفتحـت هاجر ذراعيهـا للحياة من جديد، ومـرة بعد مرة ويومًا بعـد يوم أخذت

مواكـب الحياة تسير، ولكن الـزاد كان ينفد والماء يقل، والمكان يـزداد تابدًا وضرواة، وقد راحت تعدو عليه عوامل الطبيعة وتتابع الفصول!

وبالرغـم من هذا صبرت هاجـر وأقبلت على الحياة في رضا وهدوء، وراحت تقبل على الرضيع البرئ بمزيد من الرعاية والحب والحنان

ومـرت الأيام بعد ذلك، ونفد الزاد فعلًا ولم يعـد لدى هاجر ماء، على الرغم من هذا ظلت صابـرة صامتة راضية وانتوت هاجر الصوم لله تقربًا وزلفى، وصامت يومًا بعد يوم.

صامت عن الطعام والماء وهي تأمل في رحمة الله، وبأنه تعالى لا بد أن يتجلى عليها وعلى وليدها بآية عظيمة من آياته الكبيرة حيث يقيمان.

وتتابـع مسيرة الزمـن، ولا بارقة أمل تبـدو في الأفق، ولا بقعة ضـوء تتبدى وسط غياهـب الظلمات، لقد طـال بهاجر الصابرة الصوم واشتدت وطـأة الجوع والعطش، وجـف ضرعها، فإذا بالصوم يفرض إجباريًا علـى الصغير البريء، وصرخ إسماعيل مـن هول وطأة العطش، وتمـردّت، ووضعت الطفل جانبًا وراحت تنظر هنا وهناك، ثم تجـري هنا وهنـاك، وتسعى من هنا وهنـاك، وتنظر حواليها، فلا شـيء غير الفضاء والرمال الممتدة إلى أطراف الأفق البعيد.

وصرخـت هاجر من كل قلبها، صرخة متمردة على الشيطان، وقد راح يغريها بأن تقتـل الطفـل وتنجيه من رهبة الموت جوعًا، ثم تقتل نفسها هي بعد ذلك لتستريح، فلا تموت مرة في كل لحظة.

وتمثـل الموت لعينـي هاجر، وأثارهـا أن رأته بعين مخاوفها يحوم فـوق إسماعيل، فصرخـت وتجاوبت الصحراء مـع صدى صرخاتها التي اختلطـت بصرخات الطفل، وخطـر لهـا أن تهرب، أن تبتعد عن إسماعيل كي لا تـراه وهو يموت، وحتى لا يراها هو الآخر وهي تحتضر وقد عجزت عن مد يدها إليه لتطعمه وتسقيه.

وانطلقــت تجري فوجدت «الصفــاء» أقرب مرتفع إليها، فأسرعــت إليه تنظر من فوقه لعلها تجد أحدًا، وأرادت أن تستمر في هروبها، ولكن حنانها أوقفها، وقد دوّت في خيالها صرخة الطفل فعادت تهرول كالمجنونة، واختلطت المرئيات أمام هاجر، وعادت تهــرول بــين «الصفا» وتقف عند المروة وهــي حائرة لا تستطيــع أن تتقدم خطوة، سبع مرات قطع فيها ذلك السعي، وهي تغال الموت وتحارب اليأس وتتعلق بالأمل وتتمسك بالرجاء.

ودوى في خيالهــا الثأئــر نغم ودعاء، وراحت وهي في غمــرة الاستسلام إلى هلاك حتمــي، تنصــت وكان الصدى يرجع صوت زوجهــا إبراهيم: ((ربــي إني أسكنت من ذريتــي بــوادٍ غير ذي ذرع عنــد بيتك المحرم ربنــا ليقيموا الصلاة فأجعــل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)).

وأنصتــت هاجر إلى أرانين الدعاء طويلًا، ثم استمرت في هرولتها شاردة مسلوبة اللب، تصغي إلى الطفل مرة، وإلى هاتف خفي مرة أخرى، ثم إلى يقين ساورها مرة ثالثة.

إنها في جوار الحرم، فكيف يأتي عليها الجوع ويفترسها العطش؟ وإنها لضيف الله في وادٍ رهيــب، توســل إبراهيم إلى ربه أن يحيله إلى جنة، وأن يرزق فيها من الثمرات، فهل يضل الرجاء، ولا يقبل رب البيت دعوة خليله؟! وصاحت هاجر من كل قلبها يارب.

وصــرخ الطفل حيث هو، وبلغتــه الملائكية غير المفهومة، وقطعًــا كان يسأل خالقه ومــولاه، صرخ إسماعيل وراح يضرب الأرض بقدميه الصغيرتين حيث كان ينام، وعاد إسماعيــل يصــرخ ويصرخ وهو لا يلبــث في كل مرة، ومع دوي الصرخــة يركل الأرض بقدميه وأصداء الصرخات تتعالى نحو سدة العرش مستنجدة بالله.

واستجــاب الله لهاجر الصابرة والطفل البريء، وعنــد قدمي إسماعيل أخذ الماء يتفجر وينبثق عاليًا، وإذا برشاش منه يمس وجه هاجر فتنتبه في ذهول ودهشة ورهبة، ثم تنطلق إلى حيث كان الصغير، فتحمله وابتعدت به ثم وسدته على نشر من الأرض، وعــادت إلى الماء المتفجر، فراحــت تضمه براحتي يديها في عصبيــة، وكأنما تصورت

أنها قادرة على أن تجمعه كله حيث هو، فلا ينتشر ويضيع ويتهرّب بين حبات الرمال!

وجعلت هاجر تصيح وكأنما تخاطب الماء، وتأمر العين المتفجرة قائلة: (زمي زمي) وإذا بالماء المتدفق يستجيب بإذن الله لهاجر ويطيعها؛ فيستمر على تدفقه في هدوء من راح يضع أسس استقراره ويعين مكان بئر «زمزم» الموجود.

وبكت هاجر فرحًا وندمًا، بكت فرحًا لأن القدرة قد استجابت لدعاء إبراهيم، وندمًا لأنها كادت تستسلم إلى الوسواس الخناس، وهو يوحي إليها بالتمرد والتجديف!

وحوّمت سباع الطير الضارية فوق سماء «زمزم»، وكان تكاثر أرجلها في الفضاء دليل قيام حياة جديدة مستقرة في تلك البقعة النائية المهجورة.

ووجد بضعة نفر من قبيلة جرهم أنفسهم يبعثون المطايا إلى ذلك المكان القصي المجهول، وإذا بهم يفاجأون بعين زمزم المتفجرة بالحياة والاستقرار، وبهاجر ورضيعها البريء، وأستاذن القادمون هاجر في البقاء حول الماء، فلم تجد غضاضة في السماح لهم وأذنت لهم بما شاءوا، وبأن يشاركوها وابنها العيش على أن يعترفوا لإسماعيل عندما يشب بالصدارة والزعامة وحرية التصرف في مياه العين.

ورضي الجرهميون بما طلبته هاجر، وانتقلوا بجموعهم ليعيشوا حول النبع، الذي تفجرّ تحت قدمي إسماعيل استجابة لدعاء أبيه إبراهيم، وضراعة أمه هاجر الصابرة، التي قرت عينها في النهاية، واستقرت بها الحياة وطاب لها العيش في جيدة كرام صاهروها بعد أن بلغ إسماعيل مبالغ الشباب، وزوجوه ابنة شيخهم لتكون له الزعامة فيهم من بعده، وليكون أبًا للشعوب عدة، وأمم كبيرة قدّر الله لها أن تنشأ في ذلك المكان وإلى جوار البيت العتيق.

وسارت الحياة سيرتها الرضية بعد ذلك، وأقر الله عيني هاجر بابنها بكر إبراهيم، وراحت تتخيله مع الغد وكيف أنه سيكون قائد أمة عظيمة مباركة، وأنه لا بد أن يرث والصالحون من ذريته شريعة وإمامة أبيهم إبراهيم عليه السلام.

آمنـة بنت وهـب
سيـدة الأمهـات

لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها إلا أنها عندما خطبت لعبد الله بن عبد المطلب «كانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسبًا وموضعًا».

والسيـدة آمنة من أسـرة عريقة أصيلة لها مكانتها، فهـي آمنة بنت وهب بن عبد منـاف بن زهـرة بن كلاب بن مرة، أبوها وهب سيد بنـي زهرة وجدها عبد مناف بن زهـرة، وجدتهـا لأبيها عاتكة بنت قصي بن مرة بن هـلال السلمية، وهي واحدة ممن يقول فيهن الرسول عليه الصلاة والسلام: ((إنا ابن العواتك من سليم))، وأمها برة بنت عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار بن قصيمن، هذا النسب كانت آمنة أفضل فتاة في قريش نسبًـا وموضعًا والتـي خفف لها قلب فتى قريش أحب أبنـاء سيد بني هاشم إلى نفسـه، ذهب عبد الله مع أبيه عبد المطلب لخطبـة آمنة من أبيها وهب وتم الزواج، وبعـد فترة وجيزة سافر عبد الله في قافلـة إلى الشام، وترك عروسه مع جاريته «بركة أم أيمـن» ومرت الأيام ورأت فيما يرى النائم كأن آتيًا قد جاءها فوقف منها غير بعيد فقـال: (أتعلمين أنـك ستصبحين أمًا؟ قالت: ماذا تقـول؟ لم أفهم عنك، قال أتعلمين أنـك حامل؟ قال: (أتعلمين أنك حامل؟ فقالـت: لا! قال فأعلمين إذا أنك ستكونين أمًا لخـير مـن حملت الأرض مـن الناس، وعـادت القافلة من الشـام، وتخلف عبد الله في المدينـة لمرضه عند أخواله، وباتت آمنة تدعو لعبد الله بالشفاء، لتجده بجانبها عندما تتحـق أجمل بشرى ومرَّ بها الحمل، وعندما حملت بالمصطفى وضعت يد المشيئة عنها كلفة الوحم.

وعاد الحارث بن عبد المطلب وحده بمفرده إلى المدينة، لينعي أخاه الشاب إلى أبيه وزوجـه وأهل مكـة، فلما خلت آمنة بنفسهـا وتذكرت زوجها إلتاعـت وتملكها الحزن، ولكـن البشرى التـي تحملها بين أحشائها تصـرف عنها الحزن، وتمـلأ نفسها صبرًا

وشوقًا لرؤياه، وجاءها المخاض في أوان السحر من ليلة الاثنين، فأحست بالخوف الذي ما لبث أن زال بنور يغمر دنياها ولم تعد آمنة وحدها، فإلى جانبها وليدها نورًا وجمالًا وطلعة بهيّة.

أخـذت آمنة ترضع طفلهـا إلى أن تحضر المراضع من الباديـة، لأخذه مع رضعاء قريش بعيـدًا عن مكة؛ لينشأوا في جو البادية، فجاءت حليمـة السعدية وأخذته معها، ثـم عادت به حليمـة بعد مدة إلى مكة، فم تكد أمه تراه حتـى أخذت تعانقه وتحتضنه في لهفة وحنان، وهي تحمد الله على ما بدى عليه من الصحة والنمو، وتشجعت حليمة وقالت للسيدة آمنة: (لو تركت بنَّي عندي حتى يغلظ فإني أخشى عليه وباء مكة).

وانطلقـت حليمـة به فرحًا، إذ كانـت وقومها شديدي الحرص علـى مكثه فيهم لما رؤوه من بركته،

وبعـد بضعة أشهر عـادت حليمة بالصبـي إلى أمه آمنة وهي قلقـة عليه وأخبرت حليمـة السعدية آمنة بما خـبر به رسول الله بعد ذلك ضمن حديثـه عن نفسه «قصة الرجلين اللذين شقا صدره الشرف»،

وبعد أن قضت حليمة على آمنة قصة الرجلين قالت آمنة: (إن لبني لشأنًا فوالله ما رأيـت مـن حمل قط كان أخف من حمله ولا أيسر منه، وقع حيث ولدته وأنه لواضع يده على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء، وعندما بلغ محمد بن عبدالله السادسة من عمره حدثتـه أمه عن رحلة يقومـان بها معًا إلى يثرب كي يزور قـبر الحبيب هناك ويتعرف علـى أخوال أبيه، وربكبت راحلتها تصحبهما جاريتها بركـة وبعد شهر أن لها أن تعود بولدهـا إلى أم القـرى وفي الطريق شعرت آمنة بالمرض وأحست أن الأجل المحتوم قد حـان فأحتضنت طفلها وأنهمـرت الدموع من عينيها، وأخذت مـن جاء رحمة للعالمين وبالمؤمنين روؤف رحيم رهبة الموقف وتموت الأم، وأصبح الطفل كما أراد الله له يتيمًا، ودفنـت السيدة آمنة بقرية الإيـواء، وعاد الصبي الحزين بصحبـة ام أيمن إلى جده عبدالمطلب بمكة ولم ينس يومًا أمه ولا قبرها،

حاتم الطائي
أكــرم العــرب

وأمــه عنبــة بنت عفيف كانت امرأة من أكثر النـاس سخاءًا وجودًا، ولعلها هي التي أورثت ابنها حاتم صفات وسجايا الجود، وحتى الشعر فقد كانت شاعرة أيضًا.

قيــل عنها أن يدها لم تعــرق الانقباض يومًا، فهي فياضة لا تبقي شيئًا مما تملكه، وحين رأى إخوتها إنها على وشك أن تبدد ثروتها على السائلين والضيوف حجروا عليها وتركوها مدة تعاني ألم الفقر لعلها تعتبر، ثم أعادوا إليها طائفة من إبلها وإذا بامرأة جديدة تأتيها سائلة، والحاجة تكوي أضلعها، فلم تتردد لحظة من أن تقول لها: (هذا كل ما لدي من الإبل فخذيها والله لقد علمني الجوع ألا أحرم سائلًا).

ولقد أنشدت قائلة:

لعمرك قدما عضني الجوع عضة فأليت نفسي أن لا أمنع الدهر جائعا

فقولا لهذا الأئمي اليوم أعفني وإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابعا

فماذا عساكم أن تقولا لأختكم سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا

ولا ما ترون الخلق إلا طيعة فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا؟

✍ من هو حاتم الطائي وفي أي زمان عاش؟

هــو حاتم بــن عبدالله بن سعد بن الحشــرج بن إمرئي القيس بــن عدي بن أحزم الطائــي. وكان يكنى بأبى عدي وأبي سفانة، وعدي وسفانة هما ابنه وابنته، وقد أدركا الإسلام وأسلما.

تقــول إحدى الروايات: مرَّ عليه ذات ليلــة كل من الشاعر عبيد وبشر بن أبي خــازم والنابغة، فنحر لهــم ثلاثة من إبله وهو يجهل من هم، وعندما عرفهم أعطاهم كل الإبل ولم يبقَ لديه إلا جاريته وفرسه.

سخاء متوارث:

ولعـل عامـل الوراثة هذا لم يكن بين حـاتم وأمه فقط، بل امتـد إلى ابنته سفانة، فقـد ذكر ابن الكلبي أن أباها كان يعطيها مجموعة إثر مجموعة من إبله، فتهبها كلها وتجود بها على الناس.

وفي ذات يـوم يقول حـاتم الطائي لابنته سفانة: (سفَّانة يـا ابنتي أن القرينين إذا اجتمعـا معًا في المال أتلفاه)، ثم يقول حاتم: أقصد أن تختاري واحدة من اثنين أما أن أعطي وتمسكي، وإما أن أمسك وتعطي، وإلا لن يتبقى لنا شيء.

ثم تقول سفَّانة: أنا أمسك والله لن يكون يا أبي، أنا سفَّانة ابنة حاتم الطائي، ابنة أجـود وأكـرم رجال العرب، لا يمكن أن أمسك أو أقبضـ يدي في وجه أي سائل يا أبي، وبمـا أنه المستحيل أن يمسك أبوها حاتم الطائي كان الحال هو الفراق، لذلك قاسمها والدها حاتم المال وأفترقا.

وأدركت سفَّانة الإسلام بعد غزو المسلمين لبلادها، التي تقع عند جبلي أجا وسلمى (منطقة حائل حاليًا) وقد تم أسرها وخاطبت النبي عليه الصلاة والسلام قائلة: (يا محمـد، أن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب. فإني ابنة سيّد قومي، وإن أبـي كان يفك العـاني ويحمي الزمار ويُقـري الضيف، ويشبع الجائـع ويفرج المكروب ويفشي السلام، ويطعم الطعام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي).

فقـال لها الرسـول عليه الصـلاة والسلام: (هذه صفـة المؤمن حقًا لـو كان أبك مسلمًـا لترحمنا عليـه، خلّوا عنها فـإن أباها كان يحب مكارم الأخـلاق)، والله يحب مكارم الأخلاق.

عمرو بن كلثوم
وأمه ليلى بنت المهلهل

هـو أبـو الأسد عمرو بن كلثـوم بن عمرو بن مالك بن عتاب بـن سعد بن زهير بن جشـم بن حبيب بن عمرو بـن عنم بن تغلب بن وائل الشاعر والفارس المشهور (أعزب العـرب) مـن أهل الجزيرة، ومـن شعراء الطبقـة الأولى، وأمه هي ليلـى بنت المهلهل (الزيـر سـالم) أخي كليب، وقد اشتهـرت ليلى بالأنفة وعظم النفس، قيل أن المهلهل عندمـا تـزوج هندًا بنت بنج والدة ليلى، قال لها عندما وضعت ليلى: أقتليها على عادة الجاهليـة، فلـم تفعل وأمـرت خادمًا لها أن يغيبها عـن أبيها حتى لا يراهـا، فلما نام المهلهل هتف به هاتف يقول:

كم من فتى مؤمل وسيد شمردل   لا تجهل في بطن بنت مهلهل

فاستيقـظ مذعـورًا وقال: يا هند أين ابنتي؟ قالت: قتلتهـا، قال: كلا وآلهة ربيعة، وكان أول من حلف بها.

فأصدقينـي فأخبرته فقال: أحسني غذائها، فتزوجها عمرو بن مالك، فلما حملت بعمرو قالت: أنه أتاني آت في المنام فقال:

يــالك ياليلــــــى من ولــــــد   يقــــدم إقــــدام الأســـد
مـــن حنتــم فيــــه العـــدد   أقـــول قليـــلًا لا فنــــد

وفعـلًا سـاد عمرو قومه وهو في الخامسة عشر من عمـره، وتغلب قبيلته هم منهم في الشرف والمجد.

ولـد عمـرو في بيت عز وشرف، ونشأ شجاعًا كريمًا، وشاعرًا؛ فساد قومه في حياة أبيـه وأصبـح شاعر القبيلة، ومن أشهر قصصه أن الملـك عمرو بن هند ملك المناذرة كان جالسًا يومًا مع ندمائه، فقال لهم: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي هند؟

قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم (ليلى).

قال: ولمَ؟

قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها (كليب) وائل بن ربيعة أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو سيد قومه تغلب، وكانت هندًا أم الملك عمة أمرئـي القيس الشاعـر، وليلى هي أمه أي خالته، فكان يربطهمـا هذا النسب، فأرسل عمـرو بـن هند الملك إلى عمرو بن كلثـوم الشاعر يستزيره، ويسألـه أن يزير أمه ليلى معه إلى أمه هند، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من تغلب، وأقبلـت أمـه ليلى في ظعن من بني تغلـب، وأم عمرو بن هند برواقهـا، دخل عمرو بن كلثوم على

الملك عمرو بن هند في رواقه، ودخلت أمه وأم الملك في قبة من جانب الرواق، وكان عمـرو بن هند أمر أمه أن تنحي القدم إذا دعا بالطـرف، وتستخدم ليلى، ودعا الملك عمـرو بمائـدة، ثم دعا بطرف، فقالت هند: ناوليني ياليلـى ذلك الطبق، فقالت ليلى: لتقـم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها، فصاحت ليلى: (وا ذلاه يا لتغلب!)، فسمعها ابنها عمرو فثار الدم في عروقه وانتفض قائلًا: (لا ذلَّ لتغلب بعد اليوم!).

فوثـب عمـرو بن كلثوم إلى سيف عمرو بن هند المعلـق في الجدار فضرب به رأس عمرو بن هند فقتله، ثم نادى عمرو في بني تغلب فانتبهوا ما في الرواق وساقوا نجائبه إلى الجزيـرة، وجاشـت حينهـا نفس عمرو بـن كلثوم وحمـى غضبه، فنظـم معلقته المشهورة يصف فيها حديثه مع ابن هند وشجاعته وعزته:

أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرًا قد روينا

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وظلـت «تغلـب» تعظم قصيدة عمرو بـن كلثوم، ويرويها صغارهـم وكبارهم، على تتابع الأجيال كما ظل مقتل عمرو بن كلثوم مفخرة لهم يباهون به.

صخر بن عمرو
بين امرأته وأمه

كان صخر من أشجع العرب وأكرمهم وأجملهم، وكانت تحبه سلمى بنت عوف بن ربيعة بن حارث الرياحي، وصخر هو أخو الخنساء المشهورة فيه بالشعر.

وكان صخر قد عاهد سلمى على أن لا تتزوج بعده، وهو كان كذلك عاهدها، وكان يقول إذا نظر إليها لا أكره إلا الموت إلا لأنه يفرق بيني وبين هذه.

فلما كان اليوم المشهور بيوم الكُلاب، وهو اليوم الذي تحارب فيه بنو عوف وبنو الحرث، التقى صخر مع ربيعة بن ثور العوفي الأسدي، بعدما تغلب بنو الحرث على بني أسد ونهبتهم، فطعن ربيعة صخرًا، وكان رمح صخر قصيرًا، فأصاب ربيعة في بطنه خلفًا من الدرع، فمرض صخر بالطعنة، فكانت أمه تلاطفه، وقصَّرت سلمى في خدمته، فسمع يومًا امرأة تقول لأمه كيف حال صخر؟ فقالت: (نحن بخير ما دمنا نرى وجهه). وسألت امرأة أخرى، فقالت: (لا حيٌّ فيرجى ولا ميت فينعى) فغمّ لذلك، وحكى في (النزهة) أنه جلس يومًا ليستريح، وقد رفع سقف البيت، فرأى سلمى واقفة تحدث رجلًا من بني عمها، وقد وضع يده على عجيزتها، فسمعه يقول لها: أيباع هذا الكفل؟ فقالت: عن قريب، فقال صخر لأمه: عليّ بسيفي لأنظر هل صدئ أم لا؟ فأتته به، فجرده وهمَّ بقتل سلمى، فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع فبكى وأنشد قائلًا:

أرى أم صخرٍ لا تملُّ عيادتي وملَّت سلمى مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ومن يغتر بالحدثان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
لعمري لقد نبهت من كان نائمًا وأسمعت من كانت له أذنان

وللموت خير من حياة كأنها محلة يعسوب برأس سنان
وأيُّ إمرئي ساوى بأمٍ حليلة فلا عاش إلا في شقي وهوان

أم أنس بن مالك:

لقريش السادرة في غيِّها وضلالتها، مازالت تلهث وقد انطلقت تعدو في جنون لتختار الطريق الشائك لنفسها، الذي تعودت سلوكه من أجيال، كانت تشعر أنها في السنام من العرب أجمعين، وأنه أبيح لها بحكم المركز المعنوي الضخم ما لم يبح لغيرها من العالمين، فعكفت على انطلاقها الجنوني في طريق الترّدي الذي تعشقه بالروح والوجدان.

وإذا كانت إرادة الحق تبارك وتعالى اقتضت أن ينطلق صوت الداعية من قلب قريش، فإنها أرادت في الوقت نفسه أن تكون بين ظهراني هذا المجتمع المترّدي، قلوب تعشق الخير وتهوى الفضيلة، لتستجيب للداعية وتستشعر جلال دعوته في أحضانها تتسارع إليه وتلتف حوله وتكون عونه وساعده.

وحل اليوم الموعود، وأسفر الزمن عن مطلعه السعيد في موعده الذي أراده الحق، وانطلق صوت محمد ينذر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلى الوحدانية والهدى.

واستجاب الرعيل الأول من المسلمين والمسلمات لدعوة محمد، ولم يأبهوا لغضب سفهاء مكة وأشرارها، ولم يقيموا وزنًا لغضبة الأهل وثورة العشيرة، لأنهم كان يطمئنون في رضوان الله، ويتمنوا أن يكون لهم الجنة التي أعدت للمؤمنين.

ومن هذا الرعيل الأول كانت "أم سليم" بنت ملحان بن خالد، لقد وجدت أم سليم في دعوة الإسلام صدى لمشاعره، وهي التي طالما آمنت بأن إحساسها دائمًا كان إحساس الصدق، وأن شعورها لم يكذبها طوال حياتها، وأن قلبها ما هداها لغير الحق، فلا عجب أن أسرعت تدخل في دين الله، دون أن تهتم بما كان يحدث في تلك الآونة من الثورة على المسلمين.

آمنـت أم سليم بنـت ملحان بدعوة الإسـلام، وأمتلأ بنورها ذلـك القلب الكبير، فشعرت بالطمأنينة وأحست أنها اهتدت إلى ما قد ظلت تبحث عنه طويلًا دون جدوى.

وكانت كلما طال بها البحث وتشعبت سبله، أحست أنها لم تصل إلى ما كانت ترجوه وتريـده، أما اليوم فقد أحسَّت -والراحة تشملها والهـدوء يغمر عواطفها- أن سفينة بحثها الضالة قد اهتدت أخيرًا إلى مرساها الآمن، وشاطئ الخلاص الذي طالما كانت تحلـم بالوصول إليه لتثب منه إلى الأرض الصلبة، وعلى هذه الأرض تستطيع أن تبدأ حياتها المستقرة في ظل عقيدة ورعاية دين قويم.

ولقـد كان دخول أم سليم في حظـيرة الإيمان بالله وحده ضربة قاضية، لم تصدع أحلام عشيرتها وأهلها فحسب، بل كادت تفقد زوجها "مالك بن النضر" صوابه، وهو يفكـر في المركب الصعب الذي تخيرته زوجته! ويعجـب كيف ارتضت هذا الأمر وقبلته وحدها، ولم تشاركه الرأي أو تستشيره فيه!

كان مالـك بن النضر يكره دعوة الإسلام مـن صميم قلبه، وكان مع الفئة الباغية التي تربصت بمحمد ومن تابعوه، وإنه اليوم وبعد أن علم بدخول زوجته في دين محمد، يحـار ويستشعر الثورة مرة والتخاذل مرات، ثـم لا يلبث أن يثور على تخاذله وحيرته، ويزداد امتلاء قلبه بالحقد والضغينة، ويصر على الانتقام، ويقسم أن ينال من محمد ومـن تابعوه؛ لأنهم سفهـوا دين العشيرة وعابوا أربابها وفرّقوا بـين الولد وأبيه والابن وأهلـه، بل لأنهم عرفوا وبوسائلهم السحرية أن يصلـوا إلى قلب زوجته، فطعنوه بهذا في صميـم بيته، وأوقفوه موقف الحائر الضعيف، الـذي أن حارب في الجبهة الداخلية ووقـف مع السفهاء ضد المسلمين؛ اتجهت إليـه أنظار الشامتين الساخرين، وكأنهم في صمتهـم يقولون لـه: أبدأ بنفسك يا مالك بن النضر وقـوّم أهل بيتك وازجرهم زجرًا شديدًا.

وصمـم مالــك بــن النضــر في نفســه أن يــترك التعرّضــ لمــن تبعوا محمــدًا من المستضعفــين والرقيق وبعض فقراء مكة، وأصرَّ فعلًا أن يبدأ بنفسه وأن يقوم ما تهدم مــن بيته، بأن يعيد زوجته أم سليم إلى ديــن آبائها وأجدادها مرة أخرى، وأقبل عليها بالوعيــد والتهديــد، فسخرت منــه ولم تهتم بكيده، وردّته عنهــا ردًا غليظًا، ووقفت في وجهه وقــوف الصخرة العاتية أمام الإعصار المدّمر الــذي تكسرت حدته عندها، ولم يستطع أن ينال منها شيئًا على الإطلاق.

كان مالــك بــن النضــر يؤمن أن زوجتــه الشريفة العاليــة النسب لن تكــون أوهى عقيدة ولا أضعف إيمانًا من سمية أم عمار، ولا من عمار نفسه وأبى ياسر، هذه العائلة الصغــيرة التي لم تستطع قريش برهبوتها وبطشها وجموعها أن تحول واحدًا منها عن معتقده أو تصرفه عن دينه أو ترغمه على أن يعيب دين محمدًا!

كان مالك بن النضر يعرف في زوجته أم سليم أنها لا تؤمن بغير اقتناع، وأنها حين دخلــت في ديــن محمد دخلته عن عقيدة ورغبة، ومــا كان لمثلها أن تتحول عما آمنت به وأحبتــه، فكيف يستطيع أن يرغمها؟ بل كيف كان له أن يقف أمام زوجته الغالية؟ التي كان يحبهــا من كل قلبه، ويتمنى رضاها ويود لو يدفــع حياته ثمنًا لهذا الرضا، متمنيًا أن تعود إليه مرة أخرى، وقد نسيت الإسلام ودعوة الوحدانية.

حــاول مالك بــن النضر مع زوجته أم سليم بشتى الوسائــل أن يردها فلم يستطع، ولم يجــد التهديد فتيلًا، فعــاد إلى الملاينة، والوعد الحلو، والكلمــة الطيبة، وأم سليم تأبى أن تصغى إليه أو أن تستمع له.

وكمــا كان يؤمــن مالك بن النضر بــأن واجب الزوج يفرض عليــه أن يحاول بشتى الطــرق، ليعيد إليه زوجته إلى دين أهلها كذلك كانت أم سليم ترى أن عليها أن تحاول إقناع زوجها بأن يدخل في دين الله، ويؤمن مع جموع المؤمنين ويشتري الجنة وأن يسير في طريق الهدى.

وراح كل الزوجين يحاول مع صاحبه بشتى الوسائل وهو يرجو أن ينتصر، حتى لقد طال الجدل والصـراع بينهما، وبلغ الذروة التي أرغمت مالك بن النضر عن التراجع، وقـد أحسَّ أنه أمام قمة لم يستطع أن يصل إليها! وأن ينال منها، وأنه من الخير له أن يفر من الجدل، فهو أضعف من أن يثبت أو أن يقاوم.

وانقلبـت الآية وراحت أم سليم تحدث زوجها مالك بن النضر عن حلاوة الإيمان، وعـن رضـا الله وعن حلاوة طاعته، وعن وعده الحق لمـن دخلوا في دينه، بأنه لن تكون لهـم الجنان في الآخـرة فحسب، بل ستكون لهم هذه الجنـان في الدنيا، حيث سيعظم أمرهم وتعلو رأيتهم ويعز دينهم.

وكان مالـك بن النضـر يصغى في ذهول إلى حديث زوجتـه، وهو يحس أن ما كان يسمعـه هـو الحق الـذي لا يأتيه الباطـل من بين يديـه ولا من خلفه، ولكـن كيف كان يستطيـع أن يخرج على إجماع العشيرة، فيعيب أرباب أهله ويتنكر للعزى ويسب اللات ويسخر من هُبل.

وهكـذا وجد الرجل نفســه في موقف الحائر المرتبك، الذي لا يـدري ماذا يفعل أو كيـف يتلمس لنفسه طريقًا للخلاص والخروج مـن هذا الموقف العصيب، وأنه ليصغى إلى أم سليم زوجته وهي تقول له ساخرة:

- ويلـك يا مالك بن النضـر، كيف تريد مني أن أترك جانب الحق وأن أكفر بدعوة الصدق وأتابعك على دين لا أساس له ولا وجود؟!

كان مالـك بـن النضر يطاطي رأسه، وقد استشعر العجـز والضعة والهوان، ولكن كيـف كان يسلم وهو الذي يجب أن يأمر فيطاع؟! كيف كان يسلم ويتخاذل متنازلًا عن عُلوِّ مكانته مقرًا لزوجته بما أقدمت عليه؟!

لكـن الرجل أحسـ ومع مرور الأيام أن محاولاته لن تجـدي فتيلًا، فقرر بينه وبين

نفسـه أن يترك أم سليم وما آمنت به، وليبق كل منهما في الجانب الذي أراده لنفسه لا يعتدي على الآخر، ولا يجب من الآخر أن يعتدي عليه.

ولكـن حدثًا جديدًا فوجـئ به الرجل ذات يوم فكان يجن لـه، فقد سمع زوجته أم سليم المجاهدة المسلمة تهدهد ولده أنس بن مالك وهو بين يديها وهي تلقنه الشهادتين وتقول للصغير: (قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله).

لقـد جن جنـون مالك بـن النضر، وثـارت ثوائـر نفسه ونـوازع الشر فيهـا أمام اجـتراء زوجته، كأنها كانت تمعـن في حربه وقتاله، وهي تروض الصغير على النطق بالشهادتين، وتلقنه شهادة الواحدانية لتتغلغل في دمه وتسري في عروقه مسرى الحياة.

كيـف كان يرضـى مالك لولده الصغير هذا الأمر، وهو الـذي كان يطمع أن يجعله يقف في صفه، على أن تعود هي بعد ذلك إلى قومها مرة أخرى.

ولكن اليوم وأمام هذه الطريقة الجديدة من طرق الدعوة، التي اتبعتها زوجته مع صغيرهـا أنس، يشعر أنـه أمام إصرار جديد وسلاح جديد مـن أسلحة القضاء عليه، فـلا يجـد غير أن يصيح في أم سليم أن تترك ولده الصغـير وشأنه، وألا تحاول إرهاق مسامعـه بكلمات لا يفهم عنها شيئًـا، ولكنها كانت تصر على المضي في طريقها، الذي ارتضته مؤكدة لزوجها أن الصغير سيكون له شأن عظيم في غده، وسينبه ذكره ويعظم خطـره، وأن علـى الأب أن يترك ولـده فليس في حاجة إليه؟ وأنهمـا يكرهان نصائحه ويبغضـان وجوده معهما في هذا البيت، الذي أصبـح الشريعة الإسلامية تقضي بأنه لا عيشـ لواحد من الاثنين مـع صاحبه بعد اليوم، فلا أم سليـم أصبحت تحل لمالك، ولا مالك يحل لأم سليم، وإنه لمن العار أن يضمهما سقف واحد!

ولمـا دعيـت الحياة مالك بن النضـر، وأعجزه أن يقف في وجه زوجتـه، وأن ينتزع منهـا ولـده، لم يجد غير أن يفر هاربًـا، لا من البيت بل من هذه القريـة بأسرها، وأن

يبتعـد ما أمكنه الابتعاد، وأن يحـاول الاختفاء عن عيون الشامتـين الساخرين، ليوفر على نفسه ما كانت تحسه من ألم وعذاب، وليقضي كما أرادت نفسه الظالمة، بعيدًا عن زوجته التي كان يحبها، وولده الوحيد الذي كان يتمنى أن ينشأ على غراره، ويسير على سيرته، ولكن الأمر أفلت من يديه، فلم يجد غير التسليم والإقرار بالهزيمة!

وهكـذا خـرج مالك بن النضر إلى الشام هائمًا علـى وجهه، لا يدري هل يغامر في تجـارة يسـري بها عن نفسه وينمي ماله، أم يقضـي ما تبقى له من العمر في ركن بعيد لا يشعر به أحدًا؟!

وراح يناقش الأمرين وإذا به يسخر من نفسه، وقد أوحت إليه أن يعمل على تنمية مالـه! فلمن ينمي هذا المال، ولمن يكثره وولـده الذي سيصبح من النابهين مع غده كما تحلم أمه، لن يكون في حاجة إلى المال ولا إلى ميراث أبيه الذي سيبرأ منه ويباعده وينساه!

إذن فليصـرف مالك بن النضر همه إلى الفكرة الثانية: وهي أن يقضي العمر في ركـن بعيد منعزل، حتـى يواتيه الحل، لكن كيف كان لرجل مثلـه عالي الهمة أن ينسى وجوده وينكـر شخصيته، وأن يرضى المهانة بأن يقبل العيش بعيدًا عن الناس، مقهورًا برضاه، مغلوبًا على أمره بكامل رغبته، وهو الذي يحس بأنه عليه أن يستعيد بناء نفسه، وينتقم لأمه ويعوض عليها ما فاتها، فهو وإن كان قد هزم في عقر داره، فيجب عليه أن يحقق نصرًا، وأي نصر يفيئ إلى ظله، ويعيش ما تبقى من عمره في ظلال ذكرياته.

وراح مالـك بن النضر يغامر بسيفه في مهجره الجديد، وإذا يعدو يتربص به ذات مرة، ويتمكن منه فيقتله ويخلصه من أوصاب الحياة.

وهكـذا بعـد أن اختفـى إلى الأبد مالـك بن النضر وجـدت أم سليـم بنت ملحان نفسهـا، وقد خلصت أمـور دينها ثم شواغل بيتها والإشراف علـى تربية وحيدها أنس بن مالك، فأقبلت عليه تحدوه بالعطف وترعاه.

وذات يـوم دق بـاب أم سليم وحـين أسرعت تلبي نـداء الطارق راعهـا أن وجدت نفسها أمام أبي طلحة وقد جاء يخطبها.

وابتسمـت أم سليم ابتسامــة هادئة، لم يلبث الفكر أن يتشعَّب بعدها في أكثر من مســاره، فهذا رجل من أشراف قومه جاء يطلبها لنفسه، وهو من الكافرين المتربصين بدعوة محمد وموقفها منه معروف وبلا شك.

ولكن هل كان لمجاهدة مسلمة عاقلة مثل أم سليم أن تجعل مثل هذا الصيد الثمين يفلـت من يدهــا دون أن تمسك بـه، وتحاول معه محــاول قد تكون مجديـة لمصلحتها ومصلحة دينها القويم؟!

كانــت أم سليم تعتبر نفسهــا مجاهدة في سبيل الله بكل سلاح، ولما الجهاد لإعلاء ديـن الله، خاصــة مع بداية الدعـوة يتطلب من المسلمين أن يحاولـوا جهدهم ضد من يثقـون فيهـم إلى دعوة الوحدانية؛ ليكثر عـدد أتباعهم، وجدت أم سليـم نفسها أمام شريف من أشراف مكة، لو أفلحت في ضمه إلى حظيرة الإسلام لكان في هذا ربح، أي ربح؟ فلماذا لا تحاول والرجل اليوم ببابها، وقد جاء يطلبها وهو أمام الحاجة في طلبها يفكر بعقله ويحتكم إلى قلبه، ويتمنى لو تسعده ظروف فتكون أم سليم له.

إنهــا فرحة حـرام أن تضيع، وفي ظروف مواتية في مثل هــذه الظروف ولا بأس أن تبدأ المجاهدة المسلمة جهادها من ناحية العاطفة، وكيفية استغلالها لتجذب عدوًا من أعداء الإسلام إلى حظيرة الإسلام.

وعــاد أبـو طلحة وقد راعه صمت أم سليم، عاد يطلب يدها من جديد، وقد كبر في نفســه أن تظـل على صمتها لفـترة طويلة دون أن تتنازل بالرد عليــه، حتى لقد ظن أن في صمتهــا هذا ما يعني تصغيرها لثئائه وعـدم اهتمامها به، وإذا بالمجاهدة أم سليم تســرع لتقـول له: يا أبا طلحة! أصغ إليَّ جيدًا لقد أتيــت تطلب يدي، وأنه ليدهشني أن

تتجاسـر علـى التقدم بمثل هذا الطلـب وأنت تعلم ما بيني وبينـك، فأنا مسلمة، وأنت تكفـر بالإسـلام، وديني يحرّم عليّ أن أتزوج رجلًا إلاهه من حجر، لا يضره ولا ينفعه، أو خشبة يأتي بها النجار فينجرها له، هل يضرك هذا الحجر؟ أو تنفعك تلك القطعة وهـي مـن خشب؟ أيهـا الرجل العاقـل ألا تشعر بالخـزي والعار عندمـا تحتقر عقلك الواعـي فتنزل به إلى هذه الدرجة؟ فتقبل على ممارسة مثل هذه العبادة! يا أبا طلحة إننـي أرحب بالـزواج بك في حالة واحدة هـي قبولك الدخول في ديـن الله، واعتناقك الإسلام وذلك هو الصداق الذي بيني وبينك.

وسكتـت أم سليم وتولت أبا طلحة فترة صمت طويل راح قلبه يدق خلالها، وراحت المرئيـات تـترى أمام عينيه، وجعـل العرض السخـي الذي عرضته المجاهـدة المسلمة يفرض على نفسه تصورات جديدة، أن أم سليم لا ترفض الزواج به ولا تشيح بوجهها عنـه، ولكنها تمد يدهـا إليه وهي لا تسأله غير أن يشهد بأنـه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

وكان مـن الطبيعي بعد هذا أن لا تطول بأبـي طلحة حيرته، فقد خلص إلى الرأي الذي كان يؤمن به فعلًا، والذي طالما كان يروعه أن يبوح به،

وكاد قلـب أم سليم يقفز مـن بين ضلوعها فرحة، فقد وصـل جهادها إلى ذروته، وأفلحـت في جذب هذا الرجل عـدو الإسلام إلى حظيرة الإسـلام، الذي دخله بكامل رضاه، فتزوجته وكان صداقها إعلان الرجل إسلامه!

وبقيـت أم سليم بنت ملحان على العهـد بها دائمًا مسلمة مجاهدة، تتمنى أن تتاح لها الفرصة تلو الفرصة لتجاهد بكل وسيلة وأداة في سبيل نشر الدين وإعزاز كلمة الله.

وبـدأت الدعوة الإسلامية تدخل من طور إلى طور، وتنتقل من ميدان إلى ميدان، فـكان مـن الطبيعي أن تجـد أم سليم أكثر مـن فرصة من فرص الجهـاد، التي كانت

تتمناهــا وترجوهــا، فقد هاجر النبي -ﷺ- من مكة إلى يـثرب مدينته المنورة، التي بدأ الإسلام يدخل بها عهدًا جديدًا.

هاجـر محمد ليبدأ جهــاده، ثم كان يوم (بدرًا، ثم يوم أحد)، وشهدت أم أنس بن مالــك يوم (أحد) ثم عــادت مع جموع العائديــن والعائدات، وفي نفسهــا من النضال صــورة، ومن الرغبــة في الجهاد أكثر من صورة ورغبة، وقـد عرفت ما لم تكن تعرف، عرفت أن الدين القويم أساسه التضحية وحصنه الثبات والطاعة.

عــادت أم أنس بن مالك إلى المدينة لتتعلم أكثر مما علمت، ولتتفقه في دينها أكثر مما تفقهت.

وبنفســ إقبال أم أنس بــن مالك على المعرفة لتتزود منهــا، كانت تقبل على رعاية شئون بيتها وزوجها إقبالًا، كانت ترى فيه مرضاة الله، لأنها عرفت أن الدين طاعة، وأن أساس الطاعة الخضوع، وخاصة لرب البيت، فمرضاته مرضاة الله، والقيام بفروضه ومــا يتطلبه مــن الفرائض الحتمية، التي أن لم تتم كاملــة اعتبرت المرأة مقصرة غير كاملــة الإيمــان، وقد كانت أم سليــم تكره أن تكــون ناقصة الإيمــان، إذ حرصت على استكماله من شتى نواحيه، لتلقى الله بقلب سليم، حيث يشاء لها -سبحانه وتعالى- أن تلقاه.

لقد بدأت هي البداية الموفقة، وإنها لتدفع " أنس " إلى أن يسير في الطريق نفسه؛ ليغــترف من بحر المعرفة، ويتزود مــن زاد الطاعة والعلم، وليغشى مجالسه، وليجالس أهلــه وليجعــل إمامه ومعلمه محمــدًا رسول الله، حتــى يكون له القــدوة والنبراس في مستقبل حياته.

وكان أنســ بن مالك عند حسن ظن أمه به، فتبع رأيها وعمل بمشورتها ودأب على مرضاتها، وبدأت الأيام تسير، أيام نصر وإشراقات عز للمسلمين والإسلام.

وجعلــت السنوات تتابــع ونصر الله يرفرف علــى عماده، ويملأ قلوبهــم بالتقوى، ويدفعهم إلى مزيد من الجهاد في أكثر من ميدان.

وكانت أم سليم خلال هذه الفترة لا تكف على الدأب والجهاد، وكانت مع المسلمين في شتى مراحل جهادهم المعنوي والحربي، ثم إذا بها تقف في النهاية، والمسلمون يتأهبون لغزوة الفتح الكبرى.

الله أكبر، هذا يوم سعيد كانت أم سليم تتمناه، إنه لوعد الله الحق (لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمنين)، واليوم يتحقق وعد الله، ويستعد المسلمون لغزوة الفتح الكبرى، وإن أم سليم لتجد نفسها تندفع مع غيرها من المسلمات المجاهدات؛ لتكون في خدمة المحاربين الواثقين من نصر الله، وكانت أكثر المسلمات شوقًا إلى شهود هذه المعركة، التي ستعود بها إلى مواطن عزها الأولى، ومراتع طفولتها وشبابها، حيث سيقدر لها أن تعيش بالروح أيامًا في ظلال الذكريات.

وراحت أم أنس بن مالك تتخيل وتتخيل ما شاء لها الخيال والفكر، ثم إذا بخيالها الجامح يتوقف في النهاية أمام الحقيقة الناصعة، وقد أعز الله دينه وأيده بنصر رسوله، ودخل مكة دون حرب أو قتال، فحطم الأصنام وأمر "بلال" أن يعلو سطح الكعبة داعيًا إلى الصلاة.

وتم النصر، ولم يكد رسول الله يستريح في مكة، حتى عاد يتأهب والمسلمون إلى الجهاد في يوم حنين، وخرجت أم سليم معهم، وهي يومها حامل في ولدها عبدالله بن طلحة، وكان من الواجب عليها أن تراعي جنينها، وتلتزم بيتها لتنعم بالراحة، التي من الواجب أن تنعم بها سيدة في مثل حالتها، ولكنها وهي المجاهدة المناضلة أبت إلا أن تخرج إلى الموقعة، وقد تمنطقت بخنجر لتدافع عن نفسها ضد أعداء الله.

وبدأت موقعة حنين وقد اختل فيها ميزان القوى الروحية، فالمسلمون اليوم وهم مقبلون عليها غير هم بالأمس، كانوا بالأمس على حال غير هذه الحال، كانوا يشعرون أنهم قلة يجب أن يعظم أمرها وتعلو رأيتها على كثرة طاغية.

أمـا اليوم فهم يشعـرون بأنهم كثرة، وأنهم لن يغلبهم غالب مع كثرتهم هذه، وإذا بالله القادر -سبحانه وتعالى- يأبى إلا أن يعلمهم درسًا لا ينسونه أبدًا، ليعرفوا بعدها أن الكـثرة لا تغنـي أصحابها من الله شيئًا، وأن ثبـات العقيدة وقوة المعنويات والمقدرة الروحيـة على القتال هي العدة، وهي أداة النصر الذي لم تكن الكثرة أداته ولا وسيلته في يوم من الأيام.

وانقضـ كفار ثقيف على المسلمين وقد حصاروهم في واد تحوطه الجبال، فتزعزع الصـف، ووهنت القـوى، وفترّت العزائم، وضعفت المعنويـات، وأحست الروح بعجزها عن الكفاح المستميت، إذا بالمسلمين يفرون إلا قلة منهم.

ووقـف رسول الله والقلـة المؤمنة القوية حواليه، تدافع بحـرًا زاخرًا من الكافرين واستمـر الكفـاح، وكانت أم أنـس بن مالك بين الصفوف التي راحـت تدافع عن النبي فأبلـت وأحسنت، وكانـت عند حسن ظنها بنفسها، وعندما حسـن ظن النبي بها، وفي مكان أراد لها الله أن تكون فيه على الدوام مؤمنة مجاهدة، تسعى إلى الجهاد ما أمكن، وتعمل على أن تجود بالروح؛ لتنال شرف الاستشهاد في مواقع الكرامة والشرف والتضحيات.

وانتصـر المسلمـون وأم أنس بن مالك في مكانها والخنجـر في يدها، وهي تروح به وتجيء تدفع وتدافع حتى التأمت الصفوف، وأتم الله على المسلمين نعمة النصر.

وجـاء أبو طلحـة إلى النبي وكأنه يشكو أم سليم إليه، بأنها حملت نفسها أكثر مما يجـب أن تحتمل، ووقفت في مواقـف لم يكن لحامل مثلها أن تقفهـا، فشهرت الخنجر وخاضعت المعركة والتحمت مع الصفوف، وراح يقول للنبي:

- يـا رسـول الله هذه امرأتـي أم سليم معها خنجـر، وإذا بأم سليـم تسارع لتقول للرسول شارحة موقفها، مبينة سبب إصرارها على الخروج والخنجر معها:

- يـا رسـول الله إنمـا خرجـت والخنجر معـي أدافع به؛ فـإذا دنا منـي أحد من الكافرين بقرت بطنه.

وابتسـم رسـول اللّه ابتسامة تهلل بها وجهـه الكريم، الذي شاع فيـه البشر وشاع النور، وقال للمجاهدة المؤمنة التي كان يعرف مكانتها وحقها في الجهاد:

- يا أم سليم أن الله كفى وأحسن!

وعاشـت أم سليم بعد هذا، وبعد أن تمـت الانتصارات والفتوحات وأكمل الله على المسلمـين دينهـم، وأتم عليهـم نعمتـه، وارتضى له الإسـلام دينًا، عاشـت أم أنس بن مالـك حياة الدأب على الكفـاح المستميت، فكانت المؤمنـة الصادقة المجاهدة، وكانت المسلمة المعتزة بإسلامها، وكانت الصحابية الجليلة التي روت بعد ذلك عن رسول اللّه أربعـة عشر حديثًا منها في الصحيحـين، أربعة أحاديث أحدهم متفق عليه، كما انفرد البخاري بحديث ومسلم بحديث آخر.

وكمـا روّت أم سليـم بنت ملحان بن خالد عن رسـول الله، كذلك روى عنها ولدها الروايـة الصـادق أنس بن مالك وعبـد الله بن عباس، وهما من كبار الـرواة الموثوق بصحة روايتهم، وروى عنها أيضًا عمرو بن عاصم الأنصاري، وأبو سلمة عبد الرحمن بن عوف، وزيد بن ثابت،

هـذه كانـت أم سليـم بنت ملحان بـن خالد، أم أنـس بن مالك مسلمـة كانت من السابقـات، ومؤمنة كانت من الرعيـل الأول من المجاهدات، وراوية حديث، مشهور لها بالدقـة والصـدق، ويكفيها بعد هذا عزًا وفخرًا أن أنس بـن مالك قد رضع لبنها ونشأ في حجرهـا، فكانـت هي معلمـه الأول، الذي أبان لـه أوضح السبل، ويسـر له الطريق إلى الحقيقـة والمعرفـة، فاتبع الطريق الـذي أرشدته إليه أمه، فـكان خير ابن لأعظم الأمهات، كانت بحق وحقيقة من أعظم المسلمات الخالدات.

أويس بن عامر القرني
له أم هو بار بها

هــو أويس بن عامر بــن مالك، عالم وزاهــد وورع، أدرك الرســول -عليه الصلاة والســلام- لكنه لم يهاجر أو حتى يذهب للقاء رسول الله، وتكتب له الصحبة، والسبب أمه، وهذا سره الثاني أنه شديد البر بأمه، حتى وصفه النبي بذلك ليعرفه الصحابة: (وله أم هو بار بها).

هــل كان عنده مشكلة في اختيار الأولويات؟ ماراًيك؟ لقاء النبي أم أمه؟ أنت ماذا تختار؟ هو أختار أمه، فلما بلغ به البر لهذه الدرجة أكرمه الله بأن أرسل جبريل -عليه الســلام- إلى النبي -عليه الصــلاة والسلام- ليخبره بفضل أويــس القرني، ومن ثم يُخــبر النبــي أصحابه وأمته بهذا الرجــل الزاهد العابد، قيمة أنــه يجعلك تعوض، بل وتسبق ما تركته من أجل البر.

وفي رواية (يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمراد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرئي منه، إلا موضع درهم، له والدة هو بار بها، لو أقسم على الله لأبرّه فــإن استطعــت يا عمر أن يستغفر لــك فأفعل)، لاحظ قال النبي: (لــو أقسم على الله لأبــرّه) بعد أن قال: (له والدة هو بار بهــا)، لذلك ذكر النبي هذه النقطة، لأنه ضحى من أجل أمه بصحبة النبي، فاستحق ذكر النبي له.

نقطة تميز أويس في البر المحبة والخدمة لأمه، فالبر لا يعني فقط عدم الخطأ تجاه أهلك، بل أهم نقطة في البر هي الصحبة، عن أبي هريرة ــــرضي الله عنهــــ قال: (جــاء رجل إلى النبي -صــل الله عليه وسلم- فقال من أحــق النــاس بحسن صحبتي؟ قــال: «أمُّــك»، قال: ثم من؟ قال: «أمُّك»، قال: ثم من؟ قــال: «أمُّك» قال:ثم من؟ قال: «أبوك».

وعن معاوية بن جاهمة السُّلمي أنه أستاذن الرسول -ﷺ- في الجهاد معه، فأمره أن يرجـع ويَبَرّ أمــه، ولما كرر عليه قال -صل الله عليه وسلـم-: (ويحك. الزم رجلها. فشم الجَنّة)، أليس تريد الجنة؟ لماذا تذهب بعيدًا؟ هناك عند رجلها الجنة.

وهــذا نبي الله عيسى بن مريم -عليه السلام- عندما تكلم في المهد كان من قوله: (وَبـرًّا بوالدتــي) أي: وأمرني ربــي ببر والدتي والإحسان إليها، فمـع ما أتاني الله من الوحي والمعجزات، وما جعل لي من الفضل والتشريف فإني ألزم برها.

وعن عائشة قال: قال رسول الله -ﷺ-: (نمت، فرأيتني في الجنة فسمعت صوت قارئــي يقرأ، فقلت من هذا؟ قالــوا: هذا حارثة بن الثمان، فقال لها النبي: كذاك البر وكذاك البر، وكان أبر الناس بأمه).

وكان أبــو هريــرة إذا أراد أن يخــرج من بيته، وقف على باب أمــه فقال: (السلام عليــك يا أمــاه ورحمة الله وبركاتــه، رحمك الله كمــا ربيتني صغيرًا، فتقــول: وعليك السلام يا ولدي ورحمة الله وبركاته، رحمك الله كما بررتني كبيرًا).

وقيــل للتابعي الجليل الإمام الحسن البصري: (ما البر؟ قال: الحب والبذل، قيل: وما العقوق؟ قال: أن تهجرهما وتحرمهما وثم قال الحسن: النظر إلى وجه الأم عبادة، فكيف برها؟).

أرجـع إلى كلام النبــي وهــو ينادي: (يــا علي. يا عمــر. أن استطعتمــا أن تدركاه فيستغفــر لكما)، لكن لمــا عمر وعلي بالذات؟ لماذا أوصى النبي عمر بالذات، أن فيهما صفــة مشتركة: عمر ليس فقيرًا ولا زاهــدًا ولا مغمورًا، بل في قمة الشهرة والغنى، فما الذي يجمعهما؟ إنها الشفافية وصفاء الروح.

انظــر كيف يوصل النبي الأجيال ببعضها، ويقيم صداقة وعلاقة ستقام بعد موته، ولمــاذا ذكــر النبي عليًا مع أويــس؟ لأن أويس أسلم بسبب علي، حيــث أرسله النبي إلى اليمن، ومع ذلك يقول له النبي اطلب من الدعاء،

وبعـد عشرات السنين كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا أتى عليه إمراد أهـل اليمن سألهـم أفيكم أويس بن عامر؟ وفي ذاكرته حديـث رسول الله، فيردون: لا نعرفه أصلًا.

فلمـا ولي قـال بالموسم: أيهـا النـاس قوموا فقامـوا، قال: اجلسـوا إلا من كان من اليمـن فجلسوا، فقـال اجلسوا إلا من كان مراد، فجلسوا فقال: اجلسوا إلا من كان من قـرن، فجلسوا إلا رجـلًا كان عم أويس القرني، فقال له عمـر: أقرني أنت؟ قال: نعم، قال: أتعرف أويس؟ قال: وما يسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما فينا أحمق ولا أجن ولا أحوج منه، فبكى عمر ثم قال: بك لا به، سمعت رسول الله يقول: (يدخل الجنة بشفاعته مثل ربيعة ومضرًا، ثم قالوا: لا ليس معنا.

فعـرف عمر أن أمه لم تمت بعـد، لأن علامته أنه كان بارًا بأمه ولن يتركها ويحج. في ذلـك الوقت، وطوال هـذه السنين، لم يحج أو يأتي، وعمر يبحث عنه، لأن أمه كانت لم تمت بعد، حتى ماتت، فقرر أويس أن يحج.

مكـث عمر وعلي يبحثان عن أويس القرني عشـر سنين فلم يعثرا عليه، وفي السنة التي توفى فيها عمر -رضي الله عنه- قبيل استشهاده بأيام، وقف على جبل أبي تبيس في موسـم الحج، وأطـل على الحجيج، ونـادى بأعلى صوته: يا أهـل الحجيج من أهل اليمن. أفيكم أويس من مراد؟ فقام شيخ طويل اللحية من قرن فقال: يا أمير المؤمنين إنـك قد أكثرت السؤال عن أويس هذا، وما فينا أحد اسمه أويس إلا ابن أخ لي يقال له أويس فأنا عمه، وهو حقير بين أظهرنا خامل الذكر وأقل مالًا وأوهن أمرًا من أن يرفع إليـك ذكـره، فسكت عمر -كأنه لا يريده- ثم قال يـا شيخ وأين ابن أخيك هذا الذي تزعـم؟ أهو معنا بالحرم؟ قال الشيخ: نعم يا أمير المؤمنين هو معنا في الحرم غير أنه في أراك عرفات «اسم مكان في مكة قريب من جبل عرفات» يرعى إبلنا.

فركـب عمر بـن الخطاب وعلي بن أبـي طالب -رضي الله عنهمـا- على حمارين لهما، وخرجا من مكة وأسرعا إلى أراك عرفات، ثم جعلا يتخللان الشجر ويطلبانه.

فـإذا هما به في طمرين من صوف أبيض قد صف قديمه يصلي إلى الشجرة، وقد رمى ببصره إلى موضوع سجوده، وألقى يديه على صدره والإبل حوله ترعى.

قـال عمـر لعلي رضي الله عنهما: (يـا أبا الحسـن أن كان في الدنيا أويس القرني فهذا هو، وهذه صفته)، ثم نزلا عن حماريهما وشدا بهما إلى أراكة، ثم أقبلا يريدانه، فلما سمع أويس حسهما أوجز في صلاته، ثم تشهّد وسلم وتقدما عليه فقالا له: السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فقال أويس: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقال عمر رضي الله عنه: من الرجل؟

فقال أويس: راعي إبل وأجير للقوم.

فقال عمر: ليس عن الرعاية أسألك ولا عن الإجارة، إنما أسألك عن اسمك، فمن أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا عبدالله وابن أمتّه.

فقـالا: قد علمنا أن كل من في السموات والأرض عبيد الله، وأنا لنقسم عليك ألا أخبرتنا باسمك الذي سمّتك به أُمّكَ.

قال: يا هذان ما تريدان إليَّ؟ أنا أويس بن عبدالله.

قال عمر: من مراد ثم قرن؟

قال أويس: نعم.

قال عمر: كان فيك برص فبرئت من إلا موضع درهم؟

قال أويس: نعم.

فقال عمر رضي الله عنه: الله أكبر يجب أن توضح عن شقك ألك والدة وأنت بار بها؟

قال أويس: نعم.

فقالا له: إنك أويس القرني الذي أخبر الرسول بأنك من أهل الجنة.

قال عمر: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: (يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمراد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان فيه برص فبرئي منه إلا موضع درهم، وله والدة هــو بار بهــا، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعــت أن يغفر لك فأفعل)، فاستغفر لي يا أويس.

أويــس لم يكــن يعلم قبل ذلك اليــوم أن النبي تكلم عنه، ثــم أراد أويس القرني أن يتعرف إليهما، فقال له علي: أما هذا فعمر أمير المؤمنين، وأما أنا فعلي بن أبي طالب، فقال لهما جازاكما الله وهن هذه الأمة خيرًا.

تخيــل فرحة أويــس عندما عرف من عمر أن النبي -ﷺ- ذكــره باسمه والسبب أمــه، نعم يا أويس. كان النبي يعرفك بالاسم، كنت غاليًا. نعم كنت معروفًا في السماء يــا مغمــورًا في الأرض، ولم يكن النبي يعرفك فقط، بل لو طلبت منه وتوسلت سيعطيك يــا أويس، أنت لــو أقسمت على ربنا سيبر قسمك، ومان يــراك وأنت ترفع بصرك إلى السماء، وأنت ترعى الغنم، وكنت تتحسر قبل ذلك، لأنك لم تصحب النبي مثل سيدنا عمر وعلي، طلب منهما النبي أن يذهبا إليك، ويطلبا منك أن تستغفر لهما، فأعاد عمر عليه(استغفر لي وأدعُ يا أويس)، أي تواضع هذا؟ فقال أويس: (أو يستغفر مثلي لمثلك يا أمير المؤمنين؟).

فكــرر عمر رضي الله عنه وزاد، فاستغفر له أويس وقال: (اللهم أن هذين يذكران أنهما يحباني، وقد رأوني فاغفر لهما وادخلهما في شفاعة نبيهما محمد -ﷺ-).

فقــال عمر لأويس: من اليوم أنت أخي لا تفارقني، فقال أويس: لا يا أمير المؤمنين: أنت رجل يعرفك الناس وأنا أريد الخفاء.

ثم قال عمر رضي الله عنه: أين تريد؟

فقال أويس: أريد الكوفة.

لماذا قال الكوفة وهو من اليمن؟ لقد توفيت أمه، فلماذا لا يعود إلى اليمن؟ السبب أن أهل اليمن عرفوه بعد كلام عمر، فقرر البقاء في مكان لا يعرفه فيه أحد.

فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها؟

قال أويس: (لأن أكون في غبرات الناس (عامة الناس غير المشهورين) أحب إلي).

هـذا هو سره إنه لا يحب الشهرة، هـذا اختيار رهيب، لقد جاءته فرصة عمره أن يكـون مـع عمر، أو يحمل كتاب عمـر ويصير أشهر الناس ورفيـق عمر، تخيل هل ترى ماذا اختار؟ لقد اختار التخفف من الدنيا والإخلاص لله، لا يريد إلا وجه الله.

أسماء «ذات النطاقين» وابنها عبد اللّٰه بن الزبير

ولــدت «أسماء» في بيــت رجل حر شجاع من الأعــلام، كان أول قرشي حرر أفكاره من ظلمات الجهالة، وسخر من رهبوت الخصم وتحدي الكهانات، وتمرد على الحجر المنحــوت، وأصغــى في تمعــن وفهم عميــق إلى صوت محمــد، وهو يدعــو العشيرة إلى التطهــير، ويفتح لها باب النــور، لتخرج من ظلمة الجاهليــة والضلالات وجد الصوت العظيم صداه ومستقره في نفس أبي بكر، فكان أول رجل جاهر بإسلامه، ونطق بشهادة أن لا إلــه إلا اللّه، وأن محمــدا رسول اللّه، غير عابي بثورة العشيرة ولا ضجة السفهاء، وهكــذا استنشقت أسماء أول ما استنشقت عبير بطولة أبيها العظيم، فامتلأت نفسها بالشذى الخالد، هو هبها حيوية وحياة، بعيدين في كل شيء عن المجتمع الهازل المقيت، الذي كان تقاليه المظلمة تسيطر على قريش وأهلها.

عاشت أسماء في حادث الهجرة الكبرى، الذي غير وجه التاريخ، وكان لها فيه دور بطــولي اتسم بشجاعة فذة، وفدائية منقطعة النظــير، استعانت فيها بالروح في سبيل العقيدة، فلم يكد رسول اللّه يخرج مأمورًا إلى الهجرة مع أبيها الصديق، حتى تقدمت أسماء الصبية الصغيرة، لتقوم بدور إيجابي خطير.

كان علــى أسماء الصغيرة أن تتنطس أخبار قريشــ الغاضبة، التي بثت العيون في كل اتجاه تترصد المؤمنين المهاجرين بدينهم من طغيان العشيرة، التي أجازت الجوائز لمن يأتي بهما ميتين أو على قيد الحياة!

ثم تحمل هذه الأشياء الخطيرة في حذر إلى المهاجرين العظيمين في مخبئهما بغار «ثــور»، مع ما يلزمهما من طعام وشــراب حتى حدث ذات يوم أن ثقل عليها ما تحمله؟ فشقت نطاقها إلى قسمين ليسهل عليها حمله، وتتمكن من إخفائه.

فلمــا رأي رسول اللّه ما فعلت أسمــاء بنطاقها، وهي بعد صبية صغيرة بشرها بأن اللّه سيعوضها عن نطاقها بنطاقين في الجنة! فسميت من ساعتها «ذات النطاقين»!

ودهمهــا أبو جهل رأس الشرك ذات يوم وهــي على مقربة من الغار، وراح الأشرار الذيــن معه يحاولــون انتزاع سرهــا ولا جدوى، حتى لقــد فقد الشريــر العاتي غريزة الحنــان، ولطــم الصبية لطمــة قاسية مزقــت قرطهــا، وسقطت على الأرض باكية، فتركهــا وهو يستشيط غيظًا من شجاعتها وعنادها، وقــد أبت أن تشفي غلته وتبوح له بالسر الذي كان يبتغيه.

وهاجــرت أسمــاء بعــد ذاك إلى يثرب، وتزوجــت من حواري الرســول وابن عمته «الزبــير بــن العــوام» وأنجبت لــه ولدهــا البكر «عبــد اللّه» هنــاك، فــكان أول مولود للمهاجرين في يثرب.

وشهــدت أسماء في مدينة رسول اللّه انتشار الإســلام، وتعاظم شأنه، فرأت نصر اللّه والفتــح، وكيــف راح النــاس يدخلون في ديــن اللّه أفواجًا، فتعلمت مــن هذا درسًا خالــدًا في الثبات على المبدأ والاستهانة بالكثرة الظالمة صاحبة الباطل، التي انتصرت عليها القلة المؤمنة التي تنادي بالحق وتجاهد في سبيله.

وتــولى أبــو بكر أمر المسلمــين بعد رســول اللّه، فصار خليفة المسلمــين، ولم تتغير أسمــاء ولم تتبــدل، بل راحــت في ثبات ترقــب الأب الحاني الرقيق الصــوت، الهامس النبرة، الكثير البكاء، وقد زمجر وثأر وأقسم واستمسك بالحق، وأبى أن يفرط في هنة منه حين حدثت فتنة (الردة).

وجاء عمر ومن بعده عثمان.

ثــم كانــت الفتنة الكبرى التي تمن بعدهــا البيعة لرابــع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب.

وخــرج الزبــير بن العوام على البيعة، وشق عصا الطاعــة على ابن خاله «علي» هو و«طلحــة» ومن تبعهما من المسلمين، ورأت أسماء كيف أفلح زوجها الزبير بن العوام في إخــراج أختها الشقيقة أم المؤمنــين عائشة من خدرها، لتتقدم صفوف الخارجين على أمــير المؤمنين علــي بن أبي طالب وتدعو إلى قتاله، فلم يرقها ذلك الحادث ذاته، وعزّ عليها أن يتفرق أمر المسلمين.

وآثــرت البعد عن النضــال السياسي وكرهت الخروج، وبقيــت حيث هي في مدينة رســول الله، حتى تمخضت الأحــداث الدامية عن قتل (علي) وأخــذ البيعة لمعاوية بن أبي سفيان.

ودارت عجلــة الأحــداث عاصفــة، وراحــت أسمــاء ترقبهــا في حــذر، ثــم إذا بها تتفاجــأ بولدها البكر (عبدالله)، يقود الثورة ضد الحكــم الأموي ويجمع حوله السادة القطاريــف من أبناء الأنصار والمهاجرين، ويؤلف منهم جيشًا حاميًا ساعده على قطع الخطبــة عن الأمويين، ثم أعلن نفسه خليفة على العالم الإسلامي كله دون بلاد الشام التي كان يحكمها معاوية.

كانــت ذات النطاقــين في تلك الفــترة الدقيقة من فــترات الصــراع الرهيب على الخلافــة بين ولدها عبــدالله بن الزبير ومروان بن الحكم تســير نحو الشيخوخة التي بعــدت بها عن الحلبــة، ولم تجد غير أن تدعو لولدها بالفــلاح في جمع شأن المسلمين، وتوحيدهم والعودة بهم إلى عهد الراشدين.

وظــل عبدالله بن الزبير يحكم العالم الإسلامي كله زهاء تسع سنين، واستقرت له الأمور في شتى المناحي إلا الشام، التي أحس مروان بن الحكم وهو فيها بأنه أضعف من أن يقــاوم انتشار نفوذ ابن الزبير، فكاد يبايعه ويريح نفسه من قسوة النضال الطويل، لــولا أن مــروان بن الحكــم مات قبل أن يخلــع نفسه أو يعترف بإمــارة ابن الزبير على

المسلمين، وجاء بعده ولده عبد الملك بن مروان، وكان طموحًا متمسكًا بالسلطان، شديد المحافظـة عليه، عاشـ في ظل أبيه فترة قاسية، استشعـر خلالها العجز أمام عبد الله بن الزبير، مما جعله يصمم في قرارة نفسه على أن يقف في وجه هذا الغريم الخطير، ويحاول أن ينتزع منه السلطان ليرده إلى بني أمية من جديد.

كان عبد الملك بن مروان موفقًا في اختيار الحجاج بن يوسف الثقفي ليقود الجيش الذاهـب إلى مكة، للقضاء على الخلافة التـي كادت تقضي على الملك الأموي، وقامت الحرب ومال ميزانها في غير جانب ابن الزبير وحاصر الأمويون مكة حصارًا شديدًا.

وبانـت لعبد الله نهايته ونهاية خلافته، فقـد تخلى عنه الولد والصديق وراح بعض المقربين منه يزينون له سبيل الهرب، فلم يجد أمامه من يشير عليه أصدق من أمه «أسماء».

واجترت ذات النطاقين ذكريات الماضي، وراجعت تجاربه كلها، ووقفت تكلم ابنها وتحدثـه حديـث الصدق وتسأله: فيمَ كان خروجه ولمَ كانـت غضبته؟ فلما أجاب بأنه إنما خرج من أجل الحق، طلبت منه أن يبقى حيث وضع نفسه.

وانهار الابن القائد المحارب أمام صراحة الأم، وأحب أن يستثير حنانها، فصارحها بأمـر موقفه، وكيف تحول الحظ عنه وتركه الأقربـين، وبالغ الحجاج في حصاره حتى خشي أن يقع في يده فيمثل بجثته!

ومرة أخرى رفعت أسماء إلى ابنها وجهها الجامد الذي فقدت عيناه النور، وقالت لـه كلمتها تلـك التي صارت مثالًا في التمثيـل بالجثة: (وما يضير الشـاة أن تسلخ بعد ذبحها؟!) وإن كنت على الحق فكن حيث أنت! ولك في السابقين أسوة)!

وحرضتـه على العودة إلى القتال، وضرب الحجـاج مكة بالمجانق ولم تسلم الكعبة المشرفـة مـن قسوتـه، واستبـاح لنفسه حرمتهـا باسـم الرغبة في تقويضـ ملك أحد الخـوارج علـى الأمويين وأثارها معركـة فناء، وخرج بن الزبـير بتحريض من أمه إلى

المعركـة في القلـة القليلة التي ثبتت إلى جانبـه، وثار النقـع، ودرات الرحى، وانطلقت كلابهـا تنهش وتعوي وتطالب بالمزيد، وصال ابـن الزبير وجال يومها وهو بلا درع كما أمرتـه أمه، وحاور وداور، وأبلـى في القتال بلاءً حسنًا، فتكسـرت أمامه الصفوف تلو الصفـوف، حتى خانه حظـه في النهاية؛ فسقط على رأسه حجـر من إحدى الشرفات التي تهاوت من بناء الكعبة، فسقط وسيفه في يده.

لقد مات ابنها أشرف ميتة، من أجل مبدأ آمن به، وسلطان أقامه ليقوض سلطان الطغـاة، وإنمـا لتنصـت بعد ذلك إلى من يخبرهـا أن الحجاج قد أسـرف في عداوته لولدهـا الشهيـد، فجز رأسه وصلـب الجسد على الثنيـة! وجعل أجنـاد الشام تمر به شامته لتلعنه!

وأبـت أسمـاء أن تخـرج مـن بيتها، ورضيـت للجسـد الحبيب أن يظـل في العراء مصلوبـًا، على أن ترجو فيـه فاسقًا مثل الحجاج، أبى أن يحـترم حتى حرمة الموت في جثمان البطل الذي مات في نضال شريف والسيف في يده.

وبقيت الجثة المصلوبة في مكانها، وبقيت الأم الثكلى قعيدة بيتها، وبقى الحجاج في فسطاطه ينتظر أن تأتيه أسماء راجية متوسلة، حتى خاب فأله، فبعث إليها من يأمرها أن تأتيه، فسخرت من الرسول وأبت أن تخرج من بيتها، فلم يجد إلا أن يذهب إليها في قضه وقضيضه وهو يرجو أن يخيفها، وأن يجبرها على التقدم إليه بالرجاء.

ووقفـت ذات النطاقـين مرفوعـة الرأس أمـام الحجـاج، تسخر منـه وتقول له: (إنـك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طـولًا) جئتني في قضك وقضيضك وحرسك وأعوانـك، ولتذهـب بهم عجوزًا عمياء! لقد قُتل الأسد، فـلا ضير على الثعالب أن هي حوّمت على العرين!

فقال لها الحجاج وقد أذهلته جرأتها عليه:

- لقد شرفتك بحضوري إلى هنا.

- فأجابتــه بقــوة: لقد شرفنا الله ورفع من قدرنا قبــل أن تأتي أنت إلى الدنيا، وما كانت زيارة الحجاج لترفع من قدر أسماء بنت أبي بكر، وحاول الحجاج أن يخفف من ثورتها عليه فقال لها ملاطفًا: هل من حاجة أقضيها لك يا أم؟

- فصاحــت الأم الثكلــى تقول له: لست لك بأم! أنا أم المصلــوب على الثنية، وإنك وجيشك لتعرفون قدره.

- فقــال الحجــاج: إني لعاذرك يا ذات النطاقين، ومازلت أسألك أن كنت في حاجة إلى شيء أقضيه لك؟

- فقالــت: ياحجاج أهذا الراكب الذي أبــى له قدره إلا أن يرتفع فوق الرءوس حتى في موته، أما أن له أن ينزل؟

- فأجاب الحجاج: يا بنت الصديق! أن إيمانك الشديد هذا ليروعني، وإن ما حدث كان قدرًا مقدورًا، ولقد أراد ابنك الخلافة لنفسه، وأرادها الله لعبدالملك!

- قالــت: ظــل عبدالله أميرًا للمؤمنــين تسع سنوات طوالًا رفع فيهــا رأية الإسلام، وكان خــير قــدوة للحاكــم الصالح، الــذي بايعه النــاس على الطاعــة، لا الذي فرضه طاغية، أو أخذوا له البيعة بحد السيف!

- قــال: ولكن إراد الله تمت على هذه الصــورة، والله ما حقدت على ولدك، ولكني أحسست بالزهو عندما تخلصت منه.

- وهتفت أسماء ووجها إلى السماء: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).

- وهتف الحجاج في خجل: هزمتني والله بنت أبي بكر!

لقـد رأى الحجـاج أسمـاء على حقيقتهـا، لا كمـا تصورها قبـل أن يراها، ونكس الطاغيـة رأسـه أمـام ثبات الأم وقـوة شخصيتهـا، ورأى أنه كان أضعف مـن أن يهز بالخـوف قلبهـا، فلم يجد غير أن ينسحب مهزومًا، بعـد أن أجبرته على الاعتذار لها، ووعدها بأن يعيد إلها جثة ولدها لتقوم بمراسم الدفن.

ذهب الحجاج وبقيت أسماء كما هي صامتة، هادئة، راضية النفس.

لقد شهدت كم أعوام في أثر أعوام، وشخوص بعد شخوص، ووقفت موقف المجالدة أمام جبابرة، فلم تتحول أو تضعف، حتى وهي أمام روعة التجربة التي شاء لها الحظ أن تدخلها، وكان ابنها الحبيب هو الضحية والفداء.

إن أسمـاء في سيرتهـا لتكاد تكـون بطلة أسطوريـة ضربـت أروع الأمثال في شتى مراحـل عمرها الطويـل، لقد كانت شجاعة بمعنى الكلمة، جريئـة مؤمنة بقضاء الله، فلم تهزمها الأحداث على جسامتها، ولم تزعزها فاجعة كتلك التي صادفتها يوم مقتل ولدها، وتجالدت وقلبها يقطر دمًا.

هـذه هـي صـورة مشرقة لـلأم العربيـة الباسلـة، التـي ضربـت أروع الأمثال في التضحيـة بفلذة كبدهـا في سبيل المبـدأ، لتكون قـدوة حسنة لأمهات اليـوم، وأمهات المستقبـل، فيحذون حذوها في إعداد الجيـل المؤمن بالتضحية والفدائية، ليعيد أمجاد العـرب الميامين، أيام سلطـان العرب وسيادتهم ووحدتهم الكـبرى في وطنهم الكبير، الذي أقاموا أسسه على دعائم من الشجاعة والبطولة والفدائية ووحدة الصفوف.

عائشـة الحُرَّة.
أم أبو عبدالله الصغير
آخـر ملـوك غرناطـة

لعبت هـذه المـرأة دورًا مهما في إنقاذ عرش غرناطة من مؤامـرات ضرتها ثريا الروميـة، وثبـات الغرناطيين أمام النصـارى، وخاصة في بـث روح المقاومة لدى ابنها الملك أبا عبدالله الصغير.

احتفظ الأسبان إلى يومنا هذا باحترام وتقدير لهذه المرأة، وألّفوا حولها القصص والأساطير، وحافظوا على منزلها في حي البيازين الشهير بغرناطة المعروف اليوم بدار الحرة.

✍ نهاية الأندلس:

يقـول مـؤرخ الأندلس المعاصـر الأستاذ عبدالله عنـان في كتابه «نهايـة الأندلس» عـن عائشة الحرة: (وتحتل شخصية عائشة الحـرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بـارزة، وليـس ثمة في تاريخ تلك الفـترة الأخيرة من المأسـاة الأندلسية شخصية تثير مـن الإعجاب والإحترام، ومن الأسـى والشجن قدر ما يثير ذكر هـذه الأميرة النبيلة الساحـرة، التـي تذكرنـا خلالها البديعـة، ومواقفها الباهـرة وشجاعتهـا المثلى إبان الخطوب المدلهمة، بما تقرأه في أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف.

والواقـع أن حياة السلطانـة "الحرة" تبدو لنا خلال الحـوادث والخطوب، كأنها صفحـة من القصص المشجي، أكثر مما تبـدو كصفحة من التاريخ الحق، وهذا اللون القصصـي لا يرجـع فقـط إلى كونها أمـيرة أو امرأة تشترك في تدبـير الملك، وتدبير الشئون والحوادث، ولكن يرجع بالأخص إلى شخصيتها القوية وإلى سمو روحها، وفيع مثلها، وإلى جنانها الجرئي الذي يواجه كل خطر أو يسمو فوق كل خطب ومصاب.

والروايــة القشتاليــة ذاتها -وهي تسميها عائشة فسحبمــا قدمنا- لا تضن عليها بالتنويــة والتقديــر، هــي التي تسبــغ على شخصيتهــا وحياتهــا كثيرًا من هــذا اللون القصصي المشجي.

كانــت عائشة "الحــرة" ملكة غرناطة في ظـل ملك يحتضر، ومجـد يشع بضوئه الأخــير ليخبــوء ويغيضــ، وقد رزقت مــن زوجها الأمير أبــي الحسن بولديــن هما أبو عبــدالله محمد، وأبو الحجاج يوسف، وكانت روح العــزم والتفاؤل التي سرت في بداية هــذا العهد إلى غرناطة، تذكي بقية من الأمـل في إنقاذ هذا الملك، وكانت عائشة ترى مــن الطبيعــي أن يؤول الملك إلى ولدهــا، ولكن حدث بعد ذلك ما يهــدد هذا المشروع، ذلــك أن الأمير أبا الحسن ركن في أواخر أيامــه إلى حياة الدعة، واسترسل في أعوانه وملاذه، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن، تعرفها الرواية الإسلامية باسم "الثريا" الرومية.

وتقــول الرواية الإسبانيــة أن ثريا هذه واسمها النصــراني "إيزبيلا"، كانت ابنة عظيم من عظماء إسبانيا، وهو القائد شانشوخمينيث دي سوليس، وأنها أخذت أسيرة في بعضــ المعارك، وهــي صبية فتية وألحقت باســم ثريا أو كوكب الصبــاح، فهام بها الأمــير أبو الحســن ولم يلبث أن تزوجها، واصطفاها على زوجــه الأميرة عائشة، التي عرفت عندئذ "بالحرة" تمييزًا لها من الجارية الرومية، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها.

كان السلطان أبا الحسن يقيم مع زوجته الفتية الحسناء في جناح الحمراء الكبير وقصر فمارش، بينما كانت تقيم الحرة مع أولادها في جناح بهو السباع.

وكان الأمــير أبــو الحســن قد شاخ يومئذ وأثقلتــه السنون، وغــدا أداة سهلة في يد زوجتــه الثريا، التي كانت فضلًا عــن حسنها الرائع فتاة كثيرة الدهاء والأطماع، وكان وجــود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطــة، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه

الظـروف العصيبـة التي تتجاوزها المملكـة الإسلامية عاملًا جديـدًا في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطر.

وكانـت ثريـا في الواقع تتطلع إلى أبعـد من السيطرة على الملـك الشيخ، ذلك أنها أنجبـت من الأمير أبـي الحسن كفريق عائشة ولدين، هما سعـد ونصر، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما، وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد غريمتهـا الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة، وحرمـان ولديها محمد ويوسف من كل حق الملك، وكان أكبرهما محمد أبو عبدالله ولي العهد المرشح للعرش.

وكان أشـراف غرناطـة يؤثـرون ترشيـح سليـل بيـت الملـك على عقـب الجارية النصرانيـة، ولكـن ثريـا لم تيأس ولم تفتر همتهـا، فما زالت بأبـي الحسن حتى نزل عنـد تحريضهـا ورغبتها، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطـف ورعاية، ثم ضاعفت ثريـا سعيهـا ودسها، حتـى أمر السلطـان باعتقالهمـا، وزجت عائشة مـع ولديها إلى بـرج قمارش، أمنع أبراج الحمـراء، وشدد في الحجر عليهـم، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسـوة، وذهبـت ثريا في طغيانهـا إلى أبعد حد، فحرضت الملـك الشيخ على إزهاق ولده أبي عبدالله عثرة آمالها.

وكانـت الأميرة عائشة امرأة وافرة العـزم والشجاعة، فلم تستسلم بل عمدت إلى الاتصـال بعصبتها وأنصارهـا، وفي مقدمتهم بنو سراج أقـوى أسر غرناطة، وأخذت تدبـر معهـم وسائل الفـرار والمقاومة، ولما وقفت الأمـيرة من أصدقائهـا على نية أبي الحسـن قـررت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مـع ولديها بأي وسيلة، وفي ليلـة من ليالي جمادي الثـاني سنة ٨٧٧هـ استطاعت الأمـيرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين.

وهكذا ظهر ابن عائشة أبو عبد الله الصغير في وادي أش وثار على أبيه وخلعه عن الحكـم، وقامـت حرب أهلية بين الابن والأب، الذي التجـأ إلى خيه أبو عبد الله محمد الزغل حاكم مالقا.

وبعـد وفـاة أبي الحســن اشتدت الحرب بين أبــي عبد الله الصغـير وعمه الزغل، وقسّمـوا المملكـة المسلمة إلى شطرين، وقـد استغل العدو النصـراني الفرصة وانقض أولًا علـى مـا بيد الزغل مـن أراضٍ؛ فاستسلم هـذا الأخير ودخل تحت لـواء فرناندو الثاني ملك قشتالة، وبقي ما بيد عبد الله الصغير وقد اعتقد النصارى أنه سيسلم لهم مفاتيح البـلاد دون مقاومة، وهنا ظهر الدور الكبير لعائشة الحرة التي حرضت ابنها علـى المقاومــة، وساعده علـى إذكاء روح المقاومة رجل قلما ذكـره التاريخ، وهو موسى بـن أبي الغسان الذي أسكـت كل الأصوات الداعية إلى الاستسلام، وفعلًا استجاب أبو عبد الله الصغير للتحرض، وظهرت منه بطولة محترمة في جهاد الإسبان، لكن هذا لم يمنع من الاستسلام تخيرًا للقوة الإسبانية.

حيـث كان الوزراء الخونـة، والمستشارون المرتشون من قبل الأعـداء قد أقنعوا أبا عبـد الله الصغير ملك غرناطـة بألا فائدة من القتال، وإن الشـروط التي يقدمها لهم العـدو ليس هنـاك أفضل منها، وكلهم قبضوا في الخفاء، فقبـل أن يسلم مقابل ضيعة سـوف يطـرد منها فيما بعـد، فجاء في الصبـاح الباكر الممطر ليسلـم مفاتيح المدينة للزوجين: إيزابيل ملكة قشتالة وفيرناندو ملك أرغون.

ورحل بعدها مباشرة هو وحريمه وجواريه، وحين اجتاز القصور والحدائق، وألقى النظـرة الأخيرة، وهو على قمة الجبل على غرناطة عاصمة ملكه بكى، وجاءه الرد من أمه عائشة الحرة: أبك كالنساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه كالرجال.

جليلـة خانـوم
أم ناظم حكمت

جـاء ناظم حكمت إلى الشعر من عائلـة أرستقراطية مثقفة، كان جدّه ناظم باشا المولـوي يكتب الشعر الديني والتعليمي، مستخدمًا لغة تركية بها قدر كبير من الكلمات العربيـة والفارسية، كمـا كان والده حكمت ناظم باشا قنصلًا في هامبورج، ومديرًا في الخارجية التركية، وواحدًا من أبرز قيادات حزب الإتحاد والترقي.

أمـا أمه «جليلـة خانوم» فقد كانـت امرأة فائقـة الجمال، تنتسـب إلى عائلة من الأشراف، إذ كان جدّها جنرالًا مرموقًا مات في ساحة الحرب، وكانت مغرمة بالرسم وتمارسـه، وكانت قارئة جيـدة ومُحبَّة للشعر –على عكس والـده– وذات اطلاع كبير علـى الثقافـة الفرنسية، ومولعـة بالشاعر «لامارتـين»، وكانت متحـررة، متمردة على التقاليد القديمة، وسوف يكون لها تأثير كبير على ابنها في مسيرته الشعرية.

كان ناظم جكمت ابنًا للأستقراطية التركية وسليلًا لباشوات الأناضول، لكنه تمرد علـى طبقته وعاش آلام الفقراء والجوعى، وحمل قضيتهم، وحرض على تغيير حياتهم بالثورة، ورفض الظلم والقهر والاستبداد، الأمر الذي جعل السلطات تزج به في السجن.

وحـين سجن ناظم حكمت في سجـن «بورصة» الرهيب، كتبـت جليلة خانون لافتة كبـيرة وعريضة وعلقتها أمام السجن، مطالبة بإطلاق سراحه، ووقعتها باسمها الأول في شجاعة نادرة.

وقـد كشـف النقاب مؤخرًا عن رسالـة بعث بها الشاعر التركـي ناظم حكمت من سجنه إلى مؤسس الجمهورية التركية أتاتورك؛ لإصدار عفو خاص من التهم المنسوبة إليه، وذلك خلال فترة سجنه في عام ١٩٣٨م.

كمـا تم الإعلان عن رسالـة مماثلة بعثت بها والدة الشاعـر جليلة خانوم في نفس الفـترة، ولنفس الغرض، الفرق بـين الرسالتين هـو أن ناظم قد اختـار صفة المفرد لمخاطبة أتاتورك في رسالته، بينما اختارت والدته صيغة الجمع.

وقد تم العثور على الرسالتين في أرشيف القصر الجمهوري التركي، خلال استعداد مستشارية القصر بتصوير الوثائق الموجودة في الأرشيف كافة مجددًا، لهدف تقديمها لخدمة الباحثين.

✍ نص رسالة ناظم حكمت:

يبدأ ناظم حكمت رسالته بمخاطبة أتاتورك بقوله:

«إلى المقـام العـالي لرئيس الجمهوريـة أتاتورك، وجهت لي اتهامـات باطلة حول تحريضـي الجيش على العصيـان، وقد حوكمت بسبب هذه التهمـة المزعومة بالسجن لمدة ١٥ عامًا.

أما الآن فتوجه لي تهمة تحريض القوات البحرية على العصيان والتمرد،

أقسـم بمبادئـي الثورة التركيـة، وأقسم برأسـك بأنني بريء من هـذه التهم، لم أحرض الجيش علـى التمرد، لأنني لست مجنونًا ولا رجعيًـا، أو خائنًا للثورة والوطن، كي أفكر في التحريض على العصيان العسكري حتى للحظة واحدة في حياتي.

لم أحرض علـى العصيان لأنني شاعـر مؤمن بإنجازتك، ومؤمـن باللغة التركية قبـل كل شيء، لم يكن بودي أن أقتطع جزءًا من وقتـك ضمن مشاغلك الكثيرة لمأساة يتعرض لها شاعر،

أرجـو أن تعذرني لو تسببـت في ذلك ولو للحظة، لكن يداك همـا اللتان سترفعان عنـي الحيف، وتتمكنان من مسح لطخة التحريض على التمرد التي يراد تلويث جبيني بها، ولأنك أكبر ثوري في عصرنا، لذلك أريد العداة منك، ومن الفكر الكمالي الذي تمثله،

كما أقسم برأسك وبالثورة التركية بأنني بريء من هذه التهم المنسوبة لي.

ناظم حكمت ١٨ آب/ أغسطس ١٩٣٨

لقـد دفع التأثر والحزن والكمد بناظم حكمت مـن التهم المنسوبة إليه، إلى قيامه أيضًا بإرسال رسالة في نفس الموضوع إلى البرلمان التركي في تلك الفترة، متطرقًا فيها إلى الحيف الذي لحق به.

وفي نفس الفترة كتبت جليلة خانوم والدة ناظم حكمت رسالة إلى مصطفى كمال أتاتورك، لإصدار عفو خاص عن ولدها الشاعر، وتمتاز رسالتها بالإيجاز والتركيز.

✍ نص رسالة جليلة خانوم:-

قائدنا.

عائلة خالتي وفؤاد باشا (خال ناظم حكمت)

يخصونكم بالسلام،

كلنـا نعلم بأنكم على درجة كبيرة مـن الرحمة والرأفة كما هو معروف، لذا نطمح بإصدار قرار عفوكم الشخصي عن ولدي ناظم، الخادم الأمين للغة التركية،

وأن تمنعوا تعرضه إلى المزيد من القهر والأسى،

أرجوكم لا تبخلوا علينا بعدالتكم،

جليلة ابنة أنور باشا

أثر الأم في حياة
عـزيـز نيسين

عزيز نيســين (١٩١٥ – ١٩٩٥) اسمه الحقيقي: محمد نصرت نيسين من مواليد تركيــا في جزيرة قرب إستانبــول، واستخدم اسم عزيز نيسين الذي عرف به فيما بعد كاسم مستعار كنوع من الحماية، ضد مطاردات الأمن السياسي في تركيا، ورغم ذلك فقد دخل السجون مرات عديدة.

يعتبر عزيز نيسين واحدًا من أفضل كتّاب ما يعرف بالكوميديا السوداء في العالم، أو مــا تسمــى بالقصــص المضحكــة المبيكة، والمضحــك المبكي في حياته رغــم شهرته الواسعة في جميع أنحاء العالم، كمبدع فذ إلا أن بلده الأم تركيا لم تعطه من حقه سوى القليل، توفى عزيز نيسين في تموز عام ١٩٩٥.

قالت عن الأديبة والإعلامية الجزائرية «هدى درويش» في حوار إذاعي أنه «موليير الأدب التركي».

✍العلاقة بين عزيز نيسين وأمه :

والعلاقــة بين عزيز نيسين وأمه كانت تشوبها الدراماتيكية، حيث تركت أثرها في مخيلته منذ كان طفلًا، وسطرت منهجه الفكري بخطوط حزينة، أخذت شكل السخرية السوداء الناقمة على التخلف البغيض، والنفاق المستشري في المجتمع التركي آنذاك.

لقــد جاءت كتابــات «عزيز نيسين» عن أمه بقدر عظيم مــن التبجيل والحب الذي وصل إلى درجة عالية من القدسية، يتجلى ذلك من خلال منحها هالة ملائكية جميلة، فقد كانت هذه الهالة الملائكية المحفز القوي له في معترك الحياة، وكفاحه الطويل ضد قــوى الظلام والجهل والتخلف. مابين المساحة الملائكية المقدسة، التي أحاطها بها وما

بــين قلة الحيلــة وجلد الذات لتقصيره بحقها، حيث الوقت الــذي لم يسعفه كما ينبغي لكــي يمنحها حقها، كما يجب في زمن كانت المرأة فيه لا شيء سوى وعاء إنجاب. يبدو جليًا حجم جلــد الذات والشعور بأن والدته صحية، مجتمع أهــان كينونتها وإنسانيتها عندما قال نيسين: (اعتدت تخيل أمي البالغة من العمر الثامنة عشر عامًا فقط، وهي تطرز ولكن ليس بالخيوط الملونة، بل كانت تطرز بدموعها والنور المشع من عينيها لكم، تمنيت لو أعطي مقابل كل قطعة واحدة من تلك القطع، التي طرزتها يدا أمي كل كتبي وكل ما سأكتبه).

كذلــك تجلــى وضع «عزيــز نيسين» أمــه في الإطــار الملائكي في ســرده عن حادثة الزهور، حيث يقول: (ألم تكن أمي تستطيع القراءة ولا الكتابة؟ لأنها كانت سيدة غاية في رقــة المشاعــر والإحساس، وإن كل الأمهات هن أفضل نســاء العالم، أمي لأنها أمي، كانت أفضل امرأة في العالم؟)

في إحدى المرات، قطفت زهورًا من الحديقة وأحضرتها لها، كانت سعيدة بتلك الزهور.

قالــت لي: (تعال، دعنا نقطــف المزيد)، ذهبنا إلى الحديقة التــي بها أشرت إلى بعضــ الزهور، قالت لي: (انظــر لجمال الزهور، أن تلك الزهور تعيش كما نعيش نحن أيضًــا، إذا قطعناها تموت، إنها ستكــون أجمل وهي هكذا وهي واقفة على ساقها، ولن يبدو عليها الجمال وهي في كوب زجاجي)،

كلمــا مررنــا بكل زهرة كانــت تخبرني: (اقتلهــا، أقطفها لــو أردت ذلك)، ومهما تعلمت وما من شيء جديد أعرفه فأعزوه إلى أمي.

أمــا الغضب وقلة الحيلة، والثورة على التخلف والجهل الذي عامل المجتمع التركي النساء فإنه تجلى في إحدى قصائد «نيسين» النادرة إذ يقول:

أنتِ الأجمل من بين كل الأمهات

أنتِ الأجمل من بين أجمل الأمهات
في الثالثة عشر كان زواجك
في الخامسة عشر كانت أمومتك
في السادسة والعشرين جاءت منيتك
هكذا قبل أن تعيشي
كم أدين إليك بهذا القلب المليء بالحب
فأنا لا أملك حتى صورتك
كانت خطيئة أن تكون لم صورة فوتوغرافية
لم تشاهدي الأفلام ولا المسرحيات
ولم تشهدي الكهرباء ولا الغاز ولا الموقد الكهربائي
ولم توجد أغراض البيت ومستلزماته لديك
لم تسبحي في البحر يومًا
لم تستطعي القراءة ولا الكتابة
أتتك المنية وأنتِ في السادسة والعشرين
قبل أن تعيشي من هنا أقول:
هذا ما كان عليه الأمر
أما الآن فهذا ما يصير إليه الأمر
«لكم تمنيت لو أعطي مقابل كل قطعة واحدة
من تلك القطع التي طرزتها يدا أمي
كل كتبي وما سأكتبه».

البيــر كــامــو
عـلاقة شديدة الخصوصية

ولــد البيــر كامو في ٧ نوفمبر ١٩١٣، في مدينة «مونـدوفي» القريبة من مدينة عنبة الحالية في الجزائر الفرنسية، محافظة القسطنطنية، أبوه هو لوسيان أوجستان كامو، الــذي ولد هو الآخر في الجزائر، وينحــدرون من عائلة تنتمي للفرنسيين الأوائل الذين أستوطنوا الجزائر، المستعمرة الفرنسية آنذاك، وأمه هي كاترين سينتي، مات أبوه في معركة مــارن في بريطانيا، تاركًا الأم بلا مورد ومعها طفلاها (لوسيان والبيرو)، تعود الأم إلى بيت والدتها، وتعيش مع طفليها في غرفة من المنزل مع الجدة والخال.

إذ لم يعرف كامو عن أبيه سوى بعض الصور، وحكاية ذات دلالة تتلخص في شعور الأب بالقــرف، أمــام مشاهد الإعــدام التي كانت تنفذ في الحــرب، لم تكن الأم تسمع تقريبًــا، وبالطبع لا تقــرأ ولا تكتب، ولم تكن تفهم ما يقوله محثهــا إلا عند الإمعان في حــركات شفتيه، وعن ذلك كتب كامو: (كانت هنــاك امرأة أضحت فقيرة بسبب موت زوجهــا، تــاركًا إياها مع طفليها، عاشت عنــد والدتها التي كانت فقــيرة هي الأخرى، مــع أخ لها، وعامل، كانــت عمل لتكسب قوت يومها، كانت تنظـف البيوت، تاركة تربية أولادها لأمها القاسية، والمتكبرة، والمسيطرة، والتي ربتهم بقسوة شديدة).

الأم يزخــر تاريخ الأدب بنمــاذج الأمهات، ولكن ما من أم تشبــه الأخرى، إلا أننا مــع كامو نتوقف أمام نمط خاص، ونموذج فريد، فأم الكاتب الكبير لم تكتب وصاحب اللغــة الفريــدة لم يسمع لغة أمه! حيــث تقتصر على عدد يسير مــن الكلمات، الذي لا تستخدمه إلا في أشد حالات الاحتياج للنطق! كما أنها لم تكن تسمع تقريبًا! وظل الابن

لا يعـرف ما إذا كانت هــذه الحالة قد انتابتها، بسبب مرض التايفويد الذي عانت منه في مراهقتها، أم أن صدمة خبر وفاة الزوج (في ١١ أكتوبر ١٩١٤) في بريطانيا في أثناء الحـرب، هي التي سببت لها هذا الثقل اللغوي، كما يروي أنه حين شاهد صورتها وهي تمسـك بصورته وتنظر إليها بحنــان، هب صارخًا: (إذن فهـي تحبني. نعم تحبني).

كانـت علاقتـه بأمه شديـدة الخصوصية، لم تنطـوي على تبادل لغـوي، ولكن انطوت علـى الكثير من الحنان والعطف، الذي كان يشعر بـه ابن إزاء أم محدودة الامكانيات (ماديـة، وجسديـة، وذهنية) ومسئولـة عن نفسها وعن ابنيها، وبـين أم رأت في الابن الواعـد ما يمكن أن يعوضها عـن فقد الزوج وعن سنوات الألم، دون أن تمتلك الوسيلة للتعبير له عما يدور بنفسها.

وعنهـا قـال كامـو: (أمي هي أكثر قضيـة آمنت بها في الوجود) كمـا يذكر أنه حـين كان يستيقظ من النوم ولا يجدها في المنزل كان يخرج إلى الشرفة، ويبحث عنها بعينين متلهفتين عبر الشرفات المحيطة، لعله يجدها تعمل في أحد بيوت الجيران، وإذا وجدها تابعها في صمت إلى أن تعود.

سلفادور دالي

ماذا تعني أمه بالنسبة إليه؟

أمـي ذلك المـلاك على جبل الأولمـب الدالي، صدرهـا بعد دمها أعطـاني الحياة وصوتهـا الحلـو هـذا أحلامـي، كنـت أود أن أشربهـا بالطريقـة التـي كان جيراننـا الأرجنتينيـون (عائلـة ما تاسيس) يحتسـون بها (المتَّة) وقت العصـر، ستة أشخاص يتناوبون كل يوم فنجانًا، يمررونه بينهم حول غرفة المعيشة الكبيرة من فم إلى فم.

لقـد احتسيت هـذا الشراب من هـذا الإبريق الضخم، وأحسسـت بحلاوة ودفء السائـل يتدفق بداخلـي، وحملقت في البرميـل الخشبي، وعليه صـورة لنابليون ينظر

خلفـه لـيراني، كان للإمبراطور خـادم بلون وردي وبطـن أبيض وحـذاء أسود برقبة عالية وقبعة، ولمدة عشر ثوان انسابت قوته بداخلي، أصبحت نابليونيًا: سيد العالم، في ذلـك الوقت كنت في السابعة ووقعت في حب أرسوليتا الجميلة، إحدى بنات ماتاسيس، وملأني إحساس غريب بفكرة أن أضع فمي حيث وضعت أرسوليتا وأمها فميهما، ولكن في الوقت نفسه لسعت شرارة من الغيرة قلبي، بفكرة أنهما قد يكونا شربا بعد شخص آخـر وليس بعـدي، الفضل لهذا البرميل الصغـير، لقد ظللت فترة طويلـة أعتقد أني نابليون بونابرت، كنت في الوقت الذي أتباطأ فيه، ونحن عائدون من رحلة صيد طويلة كل مـا أحتاجه أن يقال لي: (عش حياتك يا نابليون) على الفور أنسى كل التعب وأقفز إلى حصاني المقاتل المخلص.

مازلـت أستمع إلى الصـوت المنتظم لذراع التدوير لألة العرض، التي كانت والدتي تديرهـا باليد، لتشاهد بعض الأفلام القليلة، وأتذكر شريطًا وثائقيًا أسمه «الاستيلاء علـى بورت آرثر» وهـو يحكي عن الحرب الروسية اليابانيـة، التي كان الجنرالات فيها يـؤدون التحيـة كأنهم أشخاص آليون، وفيلم آخر «تلميـذ يقع في الحب» ومانت والدتي تقـف خلفي في الظـلام، وأنا وأختي وأصدقائـي نركز عيوننا علـى الشاشة المتحركة، أمـي هي مالك الصورة عندما أفكر فيها، كما أنني أرى القرنفل الذي كانت تزرعه في الشرفـة أو الصبار الصغير، الذي كانـت تستخدمه في لوحة مريم العذراء حول المزود الذي ولد فيه المسيح في أعياد الميلاد.

من والدتي عرفت حقيقة أن لي سِنيَّن صغيرتين فقط من النوع المعروف بالقواطع، بـدلًا مـن أربعة في فكي العلوي، كما أنني مازال لدّي اثنتين من الأسنان اللبنية في فكّي الأسفـل، كسـرت واحدة منها عندمـا لكمت نفسي في نوبة من نوبـات الغضب، ملأني موت أمي باليأس، ومر علي زمن طويل لا أصدق أنها رحلت.

هـي وحدها يمكنهـا أن تغير روحـي، شعـرت أن فقدانها كان تحديًـا، واستجبت بـأن أكون القـدر حتى أصبح خالدًا، لقـد رأيت نوعًا من البراميـل الصفيح الصغيرة مليئة بشراب فاتر حلو يسمى (متّة) عليه صورة لنابليون، هزّتني على أنها أجمل وجه (سوبر إنسان) وخصوصًا جاذبيتها الجنسية، لأن الأجزاء الأكثر رقة في نابليون كانت مطابقة لتلك التي لدى أُمّي.

سيجموند فرويد
المتعّلـق بأمــه

سيجموند فرويد هو مؤسس علم التحليل النفسي، ولد بالنمسا في ٦ مايو ١٨٥٦م، وغاب عن عالمنا في ١٩٣٩م، عن عمر ناهز حينها ٨٣ عامًا، وهو أحد أبرز المنظرين في الطب النفسي في القرون الأخيرة، وصاحب نظرية «العقل اللاأواعي».

وكان للعــالم الراحل عدة نظريات حــول تعلّق الولد بأمه، ورغبتــه بالاستئثار بها، فيمــا عــرف بعقدة أوديــب، كما وضع نظريــة أنثوية لهــذه العقدة، لكن عنــد الإناث، عرفــت بعقدة «إلكــترا»، ولعل تلك النظريــة الفرويدية فتحت المجــال أمام تعمق عدد مــن الباحثين حول علاقــة الطبيب النمساوي بوالدته ومدى تأثــره بها، وهل عانى من أي عقد فترة طفولته.

ومــن جهته فقد كان فرويد شديد التعلّق بأمه حتى أواخر حياته، خاصة إذا علمنا أنها عاشت حتى الخامسة والتسعين ولم تسبقه إلى الموت إلا بتسع سنوات فحسب.

وكان فرويد يزورها كل صباح، أما هي فكانت تأتي إلى بيته كل مساء أحد، لتتناول العشاء عنده، في حين لم يكن يفرد لأي من أفراد أسرته مثل هذا الوقت، بما في ذلك زوجته.

وبمــا يشير إليه معظــم كتّاب سيرة فرويد أن علاقته بأمــه كان لها أعمق الأثر في تمتعــه بالثقة بالنفس، وهو ما يتفق مع رؤيته هــو نفسه أن الذي يكون مفضّلًا عند أمه يتمتع بثقة بالنجاح، وتكون كفيلة بأن تولّد النجاح الفعلي في أغلب الأحيان.

ومــرّد هذه الثقة، بحسب فرويد إلى الأمان الــذي يوفّره حُبّ الأم، على الرغم من أن هــذا الأمان يشير أيضًــا وبحسب أريك فروم إلى جانب سلبي يتعلق بخلق شعور من الاكتئاب والسلبية، حين يلوح ما يقلل من المحبة والإعجاب المطلقين.

بحسـب دراسة مترجمة للباحـث اليوناني "ميتري أفييرينوسـ" بعنوان "فرويد نفسانيـة المـرأة" فوالدة فرويد كانت امرأة جميلة، وزوجـة لينة الطباع لرجل يكبرها مرتـين، بينما كان والده "ربًـا" للأسرة، يتمتع بالسلطة المطلقـة، التقليدية في الأسر اليهوديـة في تلـك الفترة، التي كان لايـزال للرجل فيها اليد الطـولي على كل ما يتعلق بشئون أسرته.

كان فرويـد هو صاحب الحظوة لدى أمه المتدينة إلى حّد التصوف، فقد كان ابنها البكـر، وكانت بحدسها الصوفي قد تنبأت لـه بمستقبل مجيد، ولم يكن همّها سوى أن تحقق له كل ما يرغب فيه.

ولعـل ذكريات الغيرة الجنسيـة التي شعر بها فرويد نحو والـده (الذي كانت الأم تلبـي له رغباته هـو الآخر) هي أصل نظريته في المركب الأوديبي، ومع زوجته، مثما مع أمه وشقيقاته البنات (وكنّ خمس بنات) وشقيقه إسكندر.

كانـت حاجاته ورغباته هي الشمس التي تطوف حولهـا حياة الأسرة، فعندما كان بيانو شقيقاته يزعجه في أثناء دراسته، اختفى هذا الأخير إلى الأبد، وباختفاء البيانو يتلاشى كل أمل لشقيقاته في أن يصبحن موسيقيات.

ويذهب كتاب «القصة العائليـة لسيجموند فرويد» إلى أن الخليفة الحقيقية، التي تؤسسـ للأفـكار التي طرحها فرويـد في ميدان التحليـل النفسي، أنه وكمـا بدأ يقول منـذ أن كان مراهقًا يبلـغ السادس عشر من العمر، يتساءل عـن حقيقة علاقته بأبيه «جاكوب».

مويان في كلمة (نوبل) ٢٠١٢
أنــا وأمــي والحكايات

ولـد «مويـان» في ١٧ فبراير ١٩٥٥، ويعنـي اسمه بالصينية «لاتتحـدث» وهو اسم مستعـار بينما اسمه الحقيقي «جوان موي»، وكان قـد صرح في خطاب ألقاه بالجامعة المفتوحة في هونج كونج، أنه اختار ذلك الاسم عند كتابة روايته الأولى، لأنه أراد الكتابة بصراحـة ومصداقيـة، وهو مـا لم يكن مرحبًا بـه في الصين في ذلـك الوقت، واختار الاسم لتذكير نفسه بعدم الكلام كثيرًا،

وقد فاز مويان بجائزة نوبل في الأدب في العام ٢٠١٢م،

✍ كلمة مويان في الأكاديمية السويدية المنظمة لجائزة نوبل:

◆ أعضـاء الأكاديمية المحترمين، السيـدات والسـادة:

ربمـا تعرفّتـم بفضـل التلفزيون والإنترنـت على قريتـي ومسقط رأسـي، منطقة دونجي بجاومي البعيدة جدًا عن هنا، وربما شاهدتم أبي رجلًا في التسعين، أو أخوتي، وزوجتـي، وبنتـي، وحفيدتي التـي تبلغ من العمر ستـة عشر شهرًا، مـع ذلك وفي هذه اللحظة المجيدة جدًا لا أفتقد إلا شخصًا واحدًا، أُمّي ويمكننا أن نراها الآن.

عندمـا انتشـر خبر فوزي بجائـزة نوبل في أرجـاء الصين هنــأني الكثيرون، غير أنهـا الوحيـدة التي لم تستطع أن تفعل ذلك، ولدت أُمـي في عام ١٩٣٣، وماتت في عام ١٩٩٤، شرق قريتي، والسنة الماضية، وبسبب تشييد خط سكة حديد يعبر بهذا المكان، اضطررنا لنقل قبرها لمكان آخر بعيد عن القرية.

انتبهت عند فتح القبر أن الصندوق الذي يضم الرماد قد اندثر، وصار جزءًا من الأرض، ولم يسعنا إلا أن نقبض على قليل من التراب كذكرى لوضعه في المقبرة الجديدة.

شعرتُ بداية من تلك اللحظة، بأن أُمي كانت جزءًا من الأرض، وأنني عندما أقف فوقها لأحكي الحكايات، أعرف أن أمي تنصتُ إليَّ.

إحـدى أولى ذكرياتي معها كانت عندما حملـت الزجاجة الحرارية الوحيدة، التي كنـا نمتلكها لأملأها بمـاء ساخن من المطعم العـام، ولأنني كنت جائعًـا وخائر القوة لم أستطـع تحمل ثقـل الزجاجة فكسرت، ولأن الخوف تملكني جـدًا، اختبأت في كومة قش طـوال اليوم، دون أن أتجرأ على الخروج، وحلّ الليـل، وسمعت أُميّ تناديني بلقب العائلـة، فخرجت من هناك متوقعًا أن تزجـرني أو تضربني، إلا أنها لم تفعل، بل على العكس ملست على رأسي وأطلقت تنهيدة طويلة.

وأقسى ذكـرى كانت اليوم الذي رافقتُ فيه أمي، لتجمع القمح المتساقط من حقل تملكـه الدولة، جـاء حارس الحقل، فهرب الجميـع ركضًا بأقصى سرعـة، إلا أن أمي التي هروّلت بالـكاد بقدمين ملفوفتين بضمادة، فأمسك بها الحارس الذي كان طويلًا جـدًا وقويًا، وسدد لها لكمة في وجههـا، لم تستطع أمي أن تتحمل الضربة فتهاوت على الأرض، وأخذ الحارس منا القمح، الذي جمعناه وانصـرف وهو يصفر، كأن شيئًا لم يكـن، وبينما ظلـت أُمي تنزف من فمها، وهي جالسة علـى الأرض، ورُسم على وجهها يأس لا يمكنني أن أنساه طيلة حياتي، وبعد ذلك بسنوات طوال، عندما صار الحارس الشـاب مسنًـا، وحـلّ الشعر الأبيض محـل الشعر الأسـود كاملًا، رأيتـه بالصدفة في السـوق، أردت أن أنقض عليه لأضربـه كثأر، غير أن أمي منعتنـي وسحبتني من يدي وقالت بسكينة: (يا بني، السيد الذي ضربني والسيد الذي تراه ليسا نفس الشخص الآن).

ثم ذكرى أخرى لا يمكن أن تمحى من ذاكرتي، كنا ظهيرة حفل منتصف الخريف، واستطعنـا بعد صعوبات كثـيرة أن نصنع مكرونة باللحم والخضـار، وكان نصيب كل منـا قطعة صغيرة، وعندما كنا على وشـك الأكل اقترب شحاذ مسن من بيتنا، أخذت

قطعـة وعدة شرائح مـن البطاطس الجافة وأعطيتها له، ومع ذلـك غضب وقال: (أنا رجل عجـوز وأنتم تأكلون المكرونة باللحم، وتهبونني القليـل من البطاطس الجافة، يا لقلوبكم الباردة).

أغضبتنـي كلماتـه فدافعـت: (نحـن لا نـأكل المكرونـة باللحم إلا عـدة مرات في العـام، وكل واحـد فينا لا يأخذ إلا القليل ما يملأ بالكاد نصف معدتنا، ولم يتبق لنا إلا البطاطس الجافة، أن كنت لا تريدها، فأذهب إلى الجحيم)، حينها زجرتني أمي، ثم قامت وأخذت نصف ما عندنا وأعطته كله له.

أكـثر الذكريـات التـي سببت لي ندمًـا، كنت يوم رافقـت فيه أمي لنبيـع الكرنب الصينـي، بالصدفة حصّلت عشر سنتات زيادة من رجل مسن، جمعت الحصيلة كلها وذهبت للمدرسة، وبانتهاء اليوم الدراسي عدتُ للبيت، فشاهدتُ أمي وهي المرأة التي نـادرًا ما تبكي، تئن بحزن مفجع، بـك كانت الدموع تكسي وجهها، لم تنهرني أمي، بل تركت الكلمات تهرب برقة: (ابني أي خزي جلبته لي).

في طفولتـي أصيبت أمي بمرض رئوي، كان الجوع والمرض والإرهاق سحب أسرتنا لعمق هاوية يأس قاتمة، وكل يوم كانت تتضح أمامي نبوءة فظيعة، كان يبدو لي أن أمي قد تنتحر في أي لحظة، وكلما عدت إلى البيت من العمل، وعند دخولي من الباب كنت أصرخ باسمها بصوتٍ عالٍ، وأهدا بعد أن تجيبني وأكمل يومي.

وفي حالـة عكس هـذه كنت أضطـرب وأبحث عنهـا في كل ركن، بمـا فيها الغرفة الخارجية، وغرفة المطحن لأجد لها أي أثر.

وذات مـرة وبعـد أن مشطت كل الأماكن الممكنة، لم أتمكن من العثور عليها، هكذا جلسـت في الطرقة وشرعـت في البكاء بكل قوتي، وفي تلك اللحظـة تحديدًا رأيت أمي قادمـة من بعيد ومعها حزمة حطب، عبّرت لي عـن ضيقها من بكائي دون أن أستطيع

أن أشرح لها كم أنا مشغول عليها، شعرت أمي بسر قلبي وقالت: (يا بني لا تشغل بالك، حتى لو فقدت جميع مباهج الدنيا، ولم يحن يومي، فلن أرحل للعالم الآخر).

أنــا قبيح بالوراثة منذ ولــدت، وكثيرون من أبناء قريتي، كانوا يسخرون في وجهي، وبعض زملاء دراسة أشرار ضربوني لهذا السبب.

ذات يــوم عدت للبيت، وبدأت أبكي بحزن كبير، فقالت أمي: (يا بني لست قبيحًا، أنت ولد طبيعي، كيف تقول إنك قبيح؟ إضافة لذلك لو ظللت شابًا بقلب أبيض وصنعت الخير، حتى لو كنت قبيحًا بالفعل ستصير ولدًا جميلًا).

عندمــا انتقلت للمدينة، بعض أشخاص قد تلقوا تعليمًا جيدًا، كانوا يسخرون مني بالنكات الحمقاء حول وجهي، وأحيانًا من وراء ظهري، وأحيانًا أخرى أمامي، وفي تلك اللحظــات كنت أستحضر كلمات أمي، فتهدئني، وانتبهــت أنني أنا من يتحتم عليه أن يطلب منهم المعذرة.

كانــت أمي أمية ولذلــك كانت تحترم بطريقة مفرطة كل مــن تلقى تعليمًا، وكانت حياتنــا مليئة بالصعوبات، ولم يكــن بوسعنا توفير ثلاث أكلات عادية يوميًا، غير أنني كلما طلبت منها شراء كتاب أو ورق لم تكن تتأخر.

كانــت امرأة جــادة في العمل، وتكــره الشباب الكســالى، لكنني كلمــا كرست وقتًا لقــراءة الكتــب ونسيت عملــي، كانت تلتمس لي عــذرًا، ذات مرة جاء حــكاء إلى سوق قريتنا، فهربت من الأعمال التي كلفتني بها أمي، وذهبتُ إلى السوق لأسمع الحكايات، ونهرتنــي أمي علــى ذلك، وبالليل عندما بدأت في تجهيــز المعاطف الشتوية تحت ضوء مصبــاح الزيت الخافت، لم أستطع السيطرة علــى نفسي، وقصصت عليها الحكايات التي تعلمتها خلال اليوم.

في البدايــة لم تكن لديهــا رغبة لسماع أي كلمة، لأن الحــكاء كان لا يبدو لها مهنة

عاديــة وأن الحكائــين ليســوا إلا ثلة من الرجــال الثرثــارة والمهرجــين، إضافة لذلك فالحكايات التي يحكونها لا تقدم أشياء مفيدة، مع ذلك جذبتها رويدًا رويدًا الحكايات الي بدأت في روايتها.

كلما أقيمت الاحتفالات، لم تكن أمي تكلفني بأي عمل، أعطتني بذلك إذنًا ضمنيًا بالذهاب لسماع الحكايات.

ولكــي أكافئ كرمهــا وأيضًا لأزهو بقــوة ذاكرتي كنــت أقص عليهــا كل التفاصيل الخاصة بكل الحكايات، التي سمعتها طوال اليوم.

بعــد فترة قليلة لم يشبعني حكــي الحكايات، التي يحكيها الحــكاء كما هي، هكذا شرعــت في خلــق تفاصيل أثناء القصص، وبهدف أن تــروق لأمي، كنت أضيف مقاطع وأحيانًــا أعدل النهايات، ومع الوقــت لم يقتصر المستمعون على أمي وحدها، بل انضم لهــا أختي وخالاتــي، وشكّلت جدتي جزءًا منهم، أحيانًا كانــت أمي تعبر عن قلقها بعد سماعهــا للحكايــة، كان يبدو أنهــا توجه كلامها لي لكن أيضًا ربمــا توجه لنفسها: (يا بني، أي مهنة ستمتهن في المستقبل؟ أتريد أن تعمل في حكي الحكايات؟!)

أدركت قلق أمي لأنهم في قريتنا لم يكونوا يحترمون الولد المتكلم، فأحيانًا ما يجلب المتاعب لنفسه والمشكلات لعائلته.

في قصتــي "الثــور" أحكي عــن ولد مرفوض في قريتــه، لأنه يتحدث كثــيرًا، إنها حكايــة صِباي، كانــت أمي تذكرني بتكرار أن أتحدث قليلًا، لأنهــا تتمنى أن أكون ولدًا هادئًــا وكريمًــا وصامتًا، مع ذلك برهنت أنني أتمتع بقــدرة لغوية وميل كبير للحديث، وهو ما يمثل خطورة واسعة، وكانت قدرتي على حكي الحكايات يسبب لأمي بهجة.

يا للمعضلة التي كانت تعيشها.

بينظيـر بوتو
ابنــة القــدر

نصـرت ميرزا الصـابونجـي الأصفهـاني: أو «نصرت بوتو» فيما بعـد، هي سيدة باكستـان الأولى في الفـترة ١٩٧٣-١٩٧٧م، وزوجـة رئيـس وزراء باكستـان السياسي الكبير ذو الفقار علي بوتو، وخليفته في رئاسة حزب الشعب الباكستاني «P P P» من عام ١٩٧٩–١٩٨٣م، ووالدة رئيسة وزراء باكستان بينظير بوتو التي اغتيلت عام ٢٠٠٨م.

ولدت ٢١ سبتمبر ١٩٢٩م، وهي تنحدر من عائلة كردية سنية ثرية تدعى «أصفهاني الحريـري» التي كانت تقيم في مدينة أصفهان بإقليم كردستان إيران، تتبع في أصولها إلى البطـل الأسطوري المسلم صلاح الدين الأيوبي، استقر والدها رجل الأعمال الثري في كراتشـي بباكستـان، وكان لهذه الأسـرة شبكة واسعة من رجـال الأعمال في جميع أنحاء شبه القارة الهندية، طافوا فيها قبل التقسيم عام ١٩٤٧م.

والدتهـا «فاطمة الماحوزي» تزوجـت وعمرها في التاسعة من أحـد أقارب أمها في العـراق-لأن والدتها عراقية- من الدها المدعو مـيرزا الصابونجي، الذي كان صغيرًا في السـن أيضًـا، وكان مثقفًا ومحبًا للقراءة، والسفـر، فقصدت الهند للسياحة فوجد أن صناعـة الصابون فيها مزدهرة، وتـدر أرباحًا طائلة فعاد إلى العراق، وعرض على زوجته مرافقته إلى هناك فرافقته على مضض.

أنجبـت زوجتـه «فاطمـة الماحـوزي» ابنتـان: شفيقة وبهجـت اللتـان تزوجتا من عراقيـين، ورزقت بنصرت فيما بعد في الهند، ثـم زينة وصبيين لم تكتب لهما الحياة، أمـا نصرت فكانت كما رغب والدها محبة للدراسة والعلم، فقصدت باكستان لدراسة الهندسـة، وهناك أحبـت نصرت ذو الفقار علي بوتو، وتم زواجهـا منه يوم ٨ سبتمبر

١٩٥٨م، في حضـور العائلـة، وكانـت حفلة الزفـاف ضخمة وملوكيـة، وكانت نصرت سعيدة بزواجها.

سكنـت نصـرت في قصر واسـع وفخم، فكانـت المرايا مطلية بالذهـب والأحجار الكريمـة، وكان زواجهـا مـن ذو الفقار حلـم حياتها، وكانـت الزوجة الثانيـة له، وقد انجبـت لـه بنتين بينظـير «بينـزير» بوتـو، و«سنام « بوتـو، وولدين هما شـاه نواز بوتو ومرتضى بوتو.

وتذكـر خالتها «ملـوك الماجوزي» أن ولديهـا «مرتضى وبينظـير» كان الكثر شبهًا بوالدهما في الحكمة والقيادة، على الرغم من أنهما اختلفا مع بعضهما سياسيًا.

قتـل ولديها «مرتضـى بوتو» خـلال اشتباكًا مـع الشرطـة الباكستانية في ظروف غامضة، فيما قتل ابنها الآخر «شاه نواز» بوتو مسمومًا في فرنسا،

بعـد إعـدام زوجهـا –رئيـس وزراء باكستـان– ذو الفقار علي بوتو عـام ١٩٧٩، رأسـت حزب الشعـب الباكستاني الـذي أسسه زوجها خلال الفـترة ١٩٧٩–١٩٨٦م، وساعدتهـا في ذلـك ابنتهـا بينظير بوتو، وهذا الحـزب عضو في المنظمـة الاشتراكية العالميـة، ومقره إسلام أبـاد، ومعقله إقليم السند جنوب البلاد، ولـه أنصار في إقليم البنجـاب شرق البلاد، كمـا أنتخبت نصرت نائبـة في البرلمـان الباكستاني لدورتين، رحلـت نصرت بوتو في حقبـة الثمانينات إلى دولـة الإمارات العربيـة المتحدة، وكانت تعـاني من مرض الزهايمر والسكتة الدماغية، وعاشت هـذه السيدة قصة تراجيدية مؤلمة، وتلقت صدمات قوية، عاشت فصولها منذ إعدام زوجها ذو الفقار، وبعده فجعت بمقتـل أولادها الثلاثة: مرتضى، وشاه نواز، وبينظير بوتو، وقد تميزت عائلتها بالعناد والتحـدي، والإصرار على بلوغ الأهداف، حتى لو كان الثمن إراقة الدماء، حتى يمكننا وصـف نصرت بوتـو: (خنساء باكستـان الحزينة)، فقد دفع كل مـن زوجها وأولادها

الثلاثـة ثمنًـا باهظًـا في ركوبهـم موجة السياسـة الصاخبـة في بلد عـرف بالقلاقل السياسيـة والمؤامـرات، والظـروف الاجتماعيـة والاقتصادية المعقـدة التي كانت تمر بهـا باكستـان منذ الإستقلال، ولا زالت تعصف بها إلى اليـوم، أو ربما هو القدر الذي ينتظره دائمًا ساسة الشرق على الأرجح،

توفـت نصرت بوتـو في مستشفى بدبي بالإمـارات العربية المتحدة يـوم الأحد ٢٣ أكتوبر ٢٠١١م، عن عمر ناهز ٨٢ عامًا، وذلك بعد صراع طويل مع المرض.

ونقـل جثمانها إلى بلدة «غاري خودا باكس» بمقاطعة السند الجنوبية، حيث تقدم آلاف المشيعـين، الرئيـس الباكستاني في ذلك الوقت اصطف علـي زرداري زوج ابنتها «بينظـير بوتو» ومعه كبار رجال الدولة، ووضـع الرئيس الورود على قبر عائلة بوتو بعد أن قاموا بالصلاة عليها في أكبر مساجد باكستان، ودفنت بجوار زوجها ذو الفقار علي بوتـو في مقبرة الأسرة هناك، وبهـذه المناسبة أعلنت باكستان الحداد لمدة خمسة أيام على وفاتها.

أمـا بخصوص ابنتها بينظـير ذو الفقار علي بوتو، فكانت أول امرأة تتولى منصب تنفيذي في سلطة الحكم في بلد إسلامي، ومن أشهر الزعيمات السياسيات في العصر الحديث.

ولـدت بمدينـة كراتشي في ٢١ يونيـو ١٩٥٣، وفي ١٨ ديسمـبر ١٩٨٧م تزوجت من آصف علـي زرداري في مدينة كراتشي قبيل الانتخابـات العامة، الذي أصبح فيما بعد الرئيـس الحادي عشر لباكستان، ورئيس حـزب الشعب الباكستاني بعد اغتيال زوجته بينظير بوتو في ديسمبر ٢٠٠٧م.

تأثـرت بينظـير بفكر والدها علي بوتـو، وبالحياة الغربية التـي عاشتها على مدى سنوات طويلة من عمرها خلال فترة تعليمها، وتعتبر من دعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وبعـد إكمال دراستها في جامعة هارفـارد بالولايات المتحدة، وجامعة إكسفورد في

بريطانيــا، عــادت إلى باكستان عام ١٩٧٧م، وقبل فترة قليلة مــن الانقلاب على أبيها الذي قاده ضياء الحق، والذي انتهى بإعدامه عام ١٩٧٩، وبقيت تحت الإقامة الجبرية إلى أن استطاعــت الخــروج من باكستان، لتقضي عشر سنوات بالمنفى حتى لقي ضياء الحق مصرعه في حادث طائرة عام ١٩٨٨م.

عــادت إلى باكستان وتولت قيادة حزب الشعب الباكستــاني، والذي أسسه والدها وفــاز تحالفها بأغلبية طفيفــة في الانتخابات العامة، لتصبح في الأول من ديسمبر عام ١٩٨٨م أول امــرأة في بلــد مسلم تشغــل منصب رئيس الوزراء، وقــد واجهت حكومتها العديــد من المشكلات الاقتصادية، مما ألب عليهــا خصومها السياسين، الذين رفعوا عليهــا وعلــى زوجها آصف علــى زرداري الــذي كان يشغل منصب وزيــر الاستثمارات الخارجيــة العديد من قضايــا الفساد، وسوء استعمال السلطــة، وسقطت حكومتها في أغسطس ١٩٩٥م، وحكم على زوجها بالسجن ثلاث سنوات « ١٩٩- ١٩٩٣م».

استطاعــت بينظــير بعد ثلاث سنــوات العــودة إلى رئاسة الوزراء بعــد فوزها في الانتخابــات، التــي أجريت في أكتوبر ١٩٩٣م، لكن بقاءهــا لم يدم طويلًا فقد أُسقطت حكومتها للمــرة الثانية عام ١٩٩٦م، بعد تجدد الاتهامــات لزوجها بالرشوة والفساد، وخســرت في انتخابــات ١٩٩٦م، التي فازت بها الرابطــة الإسلامية، وكان زوجها وراء خروجهــا من الحياة السياسية الباكستانية، بل وأيضًــا إجبارها على الحياة في المنفى مرتين. فعاشت في المنفــى بين بريطانيا، والإمارات العربية المتحدة، ومنعت من دخول البلاد بسبب عدم حضورها إلى المحكمة عام٢٠٠٢م.

صــدر قرار بالعفو عنها من الجنرال برويز مشرف رئيس باكستان في إطار صفقة سياسية برعاية الولايات المتحدة، تمكنت بوتو بموجبها من العودة إلى باكستان.

وفي ١٨ أكتوبــر ٢٠٠٧م عــادث إلى كراتشــي لتقــود حزب الشعــب الباكستاني في

الانتخابـات العامــة، حاملــة لواء إعــادة البــلاد إلى الحكم المدني، وقــد تعرضت إلى محاولة اغتيال فاشلة في نفس يوم عودتها إلى باكستان في ١٩ أكتوبر ٢٠٠٧م.

وبعد شهرين تقريبًا من نجاتها من الهجوم الأول، تعرضت إلى الهجوم الثاني يوم الخميس ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٧م على موكبها، بعد خروجها من مؤتمر انتخابي لمناصريها، وكانــت واقفة في سيارتها لتحيــة الجماهير المحتشدة، فتم إطــلاق النار عليها وقتلت برصاصــة في عنقها، وأخــرى بالصدر، وبذلك انتهت حيــاة أول امرأة تتولى حكم بلد إسلامي، ويتولى زوجها آصف على زرداري رئاسة وزراء باكستان.

وعن تأثر بينظــير بوالدتها نصرت بوتو على تربيتها وفكرها، فقد اعتبرت نفسها كردية، حيث قالت ذلك خلال مؤتمر صحفي لدى حضورها مؤتمر الاشتراكية الدولية في رومــا ٢١ يوليــو ٢٠٠٣م: (أننــي أعتــبر نفسي كرديــة لأن والدتي مــن أصل كردي، وقــد لعبت والدتــي ذات الثقافة الكردية دورًا كبيرًا في أن يصبــح والدي رئيس لوزراء باكستان، ولذلك أصبح لــدي بطبيعة الحال إهتمامًا كبيرًا بمشكلات الشعب الكردي، ولن يتم حل مشكلته إلا عبر الديمقراطية والسلام).

جميلة بوحيرد
ووالدتها باية الصفاقصية

لم تكـن باية الصفافصية الأصل الجزائرية الهوى، أن تكون في هذا المكان، سجن بريوسـ الرهيب وسط العاصمة، وإلى من جاءت؟ إلى ابنتها الوحيدة جميلة، الجميلة الشقـراء، ذات العينـين الخضراويـين، وفمها المبتسـم دومًا، تنفرج الشفـاه عن لؤلؤ أسنانها! يا إلهي ما الذي أتي بابنتي إلى هذا المكان الموحش؟!

لكـن بايـة التي ترعرعت في بيئة دينيـة مؤمنة بأقدار الله، تـرى أن قدر ابنتها أن تكون هنا ولها الشرف أن تكون مناضلة.

تسكـت باية عن هواجسها الخائفة، ثم تستعيذ بالله من الشيطان، عندما تذكرت أن وحيدتهـا حُكـم عليها بالإعدام، فتقول ربـي كبير، وتستغفـر الله أن يتلطف بأولاد الجزائـر، ليشمـل بلطفه ابنتهـا جميلة، التي طالمـا حلمت كيف تزفهـا عروسًا بثوبها الأبيض لبيت عريسها، فتشجع نفسها، سأزفها عندما تخرج من السجن، صرير الباب الكبير يوقظها من أحلامهـا وشرودها، فترى ابنتها متهللة الوجه بابتسامة شعت نورًا في وجههـا الصبـوح، والسجانة الفرنسية تترفق بساعد جميلـة ولا تغادر المكان، هكذا الأوامر لا يترك السجناء مع ذويهم حتى لا يتواصلون بشأن الثورة.

تسلم على ابنتها من خلف الشبك الحديدي، تسألها عن صحتها، تكابر باية دمعة طفـرت فتوقفت بالمآقي، مسحتها قبل أن تراها جميلـة، وجميلة هي الأخرى تظاهرت أنها لم تر دمعة الأم.

فقالـت لأمهـا مازحة: أمي قد تأتـي المرة القادمة وترين اسمـي فقط على الباب، أكـون في الـدار الآخرة، تفاجأت جميلة من قوة شكيمة أمهـا، وهي تجيبها: يا لسعدك

يـا حبيبتـي أن تكوني شهيدة، ويا سعـدي أن أكون أم الشهيـدة، وأنت لا تموتين بسبب عـار، وإنمـا تموتين بشـرف الدفاع عن استقـلال الوطن ودفاعًا عـن الإسلام، واللغة العربيـة، حبيبـي لا تخافـين من المـوت، كل الناس يموتـون، واحد يمـوت مريضًا على فراشـه، وآخر يمـوت في حادث سير، والموت سبيل الأولـين والآخرين، والرسول -عليه الصـلاة والسـلام- أفضل الخلق مـات، وحتى الموت نفسه يموت، هنـا قالت الحارسة: (انتهى الوقت).

والـدة جميلـة أصلحـت حائكها، ولوّحـت لابنتها مودعـة وداع المـوت، وهي تقول: (نلتقي عند الله)، وخرجت من سجن بريوس.

جواب الأم مفاجأة عقدت لسان جميلة عن أي كلام، فقط قالت: أمي أبقى على خير.

كانـت السجانـة المرافقة لجميلـة خرجت من بـأب آخر، لتلقي بجميلـة في ساحة السجـن، وطلبـت مـن السجانـة أن تذهب لزيـارة مناضـلات أخريـات بالسجن كن يضحكن ويتحدثن، والتفت جميلة إلى السجانة، فوجدتها تبكي بمرارة، سألتها جميلة: هل تذكرت زوجك الذي قالته المجاهدون؟

قالت السجانة: لا، أنا التقيت اليوم بمريم العذراء.

فردت جميلة: كل الأمهات هكذا.

فأجابتهـا السجانة: لا ليـس جميع الأمهات هكذا، أنا لم التـق بامرأة عظيمة مثل أمك حتى في بلادي فرنسا.

دخلت جميلة بوحيرد زنزانتها تتأمل كلام أمها، التي ستذهب إلى ابنيها السجنين الياس والهادي اللذان سجنا أيضًا من أجل الثورة.

خرجت جميلة بوحيرد من السجن بعد الاستقلال، وأصبحت رمزًا للثورة في الجزائر.

وعنها كتب نزار قباني:

الاسم جميلة بوحيرد
تاريخ ترويه بلادي
يحفظه بعدي أولادي
تاريخ امرأة من وطني
جلدت مصقلة الجلاد
امرأة دوخت الشمس
جرحت أبعاد الأبعاد
ثائرة من جبل الأطلس
يذكرها الليلك والنرجس
يذكرها زهر الكباد.

حنــا مينـــة
ابـــن الشحـادة

والدتـي اسمها مريانـا ميخائيل ذكور، وقد رزقت بثلاث بنـات كُنّ بالنسبة لذلك الزمـان ثلاث مصائب، عانـت منهن الكثير الكثير، فالوسط الفقـر إلى حد التعاسة، كان يشـكل عقلية سلفيـة بالغة القسوة، وقد تعاون هذا الوسـط وما فيه من ظلم ذوي القربـى على إذلال والدتي، بإتهامهـا أنها لا تلد إلا البنات، وكان المطلوب أن تلد المرأة الصبيـان، وفي الأقـل الأقل أن تلد صبيًا بعـد كل بنت، لكن القدر شـاء أن تحمل وتلد البنات الثلاث بالتتابع، الأمر الذي كان يحمل إليها مرارة الشقاء بالتتابع أيضًا.

وستقول أمي حين أكبر: (اسمع ياحنا أنت ابن الشحادة فقد شحدتك من السماء، منـذ تزوجت أباك، وفي كل مرة كنت أحمل فيها، كانـت السماء تعاقبني فأرزق ببنت، أنا التي كنت أسألها الصبي، أسألها أنت، وأنت لم تأتِ إلا في الحمل الرابع، الذي بكيت فيه من الفرح، بينما كنت قبل ذلك أبكي من الحزن.

لقد منحتني السماء إياك بعد طول انتظار، وطول معاناة، لكن المنحة كانت حتى مع الشكـر منحة مهـددة بالأمراض، والخوف عليك منها، ثم الدعاء إلى الله في أن تعيش كرمـي لي، حتى لا أعيش الخيبة من جديد، وهذا مـا حدث، فقد ولدت عليلًا، ونشأت عليـلًا، وكان الموت والحياة يحومان حول فراشـك، الذي كان طرّاحه على حصيرة في بيـت فقـير إلى حد البؤس الحقيقي، كنـت شمعة تنوس ذبالتهـا في مهب ريح المرض، وكنت أسأل الله وأنذر النذور، وأسأل الريح بكل ما في الابتهال من ضراعة، ألا تنطفئ الشمعة التي كنتها، حتى لا أفجع فجيعة تؤدي بي إلى القبر، وشاء الله سبحانه وتعالى أن تعيشـ في قلب الخطر، وهذا الخطر لازمـك حتى الشباب، وعندما تحول من خطر

المـوت إلى خطـر الضياع في السجون والمنـافي، هذه التي أبكتني بـكاءً مضاعفًا خشية ألا أراك، وأنـت تعطـي نفسك للعـذاب في سبيل ما كنت تسميـه التحرر من الاستعمار الفرنسي وتحقيق العدالة الاجتماعية!).

وقـد اضطرت أمـي إلى حرمان من نصـف حليبها، وبيع النصـف الآخر إلى ابن عائلـة ثريـة كانت تعمل عندها، يُقال أن أخـي في الرضاعة كان «جول فيتالي» وهو من الأغنياء الذين عاشوا حياة ترف، ولم أراه وجهًا لأنه ارتحل قبل سنوات.

عبدالرحمن الأبنودي»أنا ابن فاطمة قنديل»

«أنـا ابن فاطمة قنديل» عبـارة كثيرًا ما رددها عبدالرحمـن الأبنودي، فهي كلمة السـر في حيـاة الشاعر الراحل، استقـى من خلالها الشعر والغنـاء، الحكمة وطقوس الحيـاة، من خـلال علاقة حب فطري متبادل، بـدأ بصوتها يتسلـل إلى وجدانه، وهو مـازال بذرة بداخلها، فكانت له الأرض بقوتها وحنانها، فخصوصيتها الشديدة سبب تكوينه، ليقول: (أمي هي الشجرة المظللة التي أدين لها بالأبنودي كله).

«حمـارة عليلـة ولدت جحشًا عليلًا» منـام رأته فاطمة قنديل خـلال فترة حملها، لتجـده أمامهـا بعد الولادة طفلًا صغيرًا لا يقوى علـى مواجهة الحياة، في الوقت الذي ردد مـن حولها: (دعيه يموت في هدوء، لا تتعلقـي به، ليس له عُمر)، رغم كونه طفلها الرابـع تمكست به بقوة، تضرعت إلى الله، مارسـت الطقوس، وأشعلت البخور، قادت حربًـا لتبقى وليدها على قيد الحياة، لـترى معجزتها تتحقق، ويتذكر الأبنودي: (كنت نحيفًا عليلًا، وكانت أمي تربط ركبتي بأشرطة من القماش خشية أن تتفكك).

مجموعة كبـيرة من المواقف شكلت العلاقة الفريدة بـين الأبنودي وأمه «فاطمة»، فكانت هي السجـل والمكون الرئيس لمخيلته الخصبة، فاستمد منها بداية الشعر، وهي الحافظـة لأشعار القرية والتراث والفلكلور الشعبي بكل طقوسه، يقول: (ماسمعته من

أمــي شحنني بتجربة خرافية، كانت دائمًا لصيقــة بالغناء، لأنه في أبنود يشكل علاقة فريــدة مع الحياة، كالحر والبرد، والظل والشمس، والليل والنهار، والجوع والشبع، لا يوجد فعل لا يصاحبه غناء في القرية وفي بيتنا الفقير بالذات).

ويضيــف الأبنــودي أنها عندما كانت تسمع أغنياته تبــث في الإذاعة كانت تمازحه قائلــة: (أدوك كام؟ خلــي بالــك أنا أستحق نصــف الأجر) حيث اعتمــد الشاعر على مجموعة من أغنيات التراث الشعبي في شعره، وكانت «فاطمة» بداية طريقه إليها.

ونجــد ذلك واضحًا في قصيدته -الديوان- «المـوت على الأسفلت» التي رثى فيها صديقه رسام الكارتير الفلسطيني الراحل ناجي العلي ومنها:

« أماية. وأنتي برتحِي بالرّحى.
على مفارق ضُحى
وحدك وبتعدّدي
على كل حاجة حلوة مفقودة
ما تنسينيش يمة في عَدُّودَة
عَدُّودَة من أقدم خيوط سوداء
في توب الحزن
لا تولولي فيها ولا تهلّي
وحُطي فيها اسم واحد مات
كان صاحبي يا أمَّــــه
واسمهُ ناجي العلـــي

مــاحــي بينبين
مراسيــم جنازة الحليب

وماحــي بينبين كاتب «مغربي» استطاع أن يحقق حضــورًا طيبًا في الرواية المغربية المكتوبــة باللغة الفرنسية، من خــلال إصدار كبريات دور النشــر الفرنسية مثل» فيار» و»ستــوك» وغيرها لأربع من رواياتــه وهي: «إغفاءة العبــد» ١٩٩٢م، و»مراسيم جنازة الحليب»، و» ظل الشاعر» ١٩٩٤م، و»أكلوا لحوم البشر».

ولــد الكاتــب ماجــي بينبــين في مراكشــ عــام ١٩٥٩م، وعمــل في باريســ أستاذًا للرياضيــات طيلــة ثمانيــة أعوام، وهــو رســام أيضًا، وأقــام العديد مــن المعارض في نيويــورك وباريســ، إضافة إلى معارضه المنتشرة مع فنانــين آخرين في كل من فرنسا، وألمانيا، والولايات المتحدة، والمغرب، والفنان لا يفصل بين كتابة الرواية ورسم اللوحة، وقد أقتنى «متحف الفن المعاصر» في واشنطن ثلاثين لوحة من لوحاته.

يتحــدث ماحي بينبين عــن أمه قائلًا: (كان لأُمي أثر كبــير في رواياتي، وقد كتبت روايــة عنها بعنوان «مراسيم جنــازة الحليب» أسرد فيها حكايــة أم خاض ابنها غمار السياسة، وتوارى عن الأنظار، وهي مصابة بمرض سرطان الثدي، فاستأصلوا ثديها، ومثلمــا سرقــوا ابنها لم ترضَ أن يسلب منها موته، هــل استئصال الثدي وسرقة ابنها كانــت نتيجة مصادفة بحتة؟ لا أعــرف، فقد احتفظت بثديها المبتور في كيس مطاطي، وقامــت بدفنــه، بعــد أن عاشت معه مثــل ابنها المفقــود الذي كانــت تخاطبه وتحاكيه وشيَّدت لهذا الثدي قبرًا.

توفيق زيــاد
رسالة عبر بوابة مندلبوم

ولـد توفيق زياد في مدينة الناصرة عام ١٩٢٩م، وأمتدت حياته حتى عام ١٩٩٤م، بعـد أن أنهـى دراسته الثانوية في مدارس الناصرة، وأختير رئيسًـا لبلديتها، ثم نائبًا في الكنيسـت، وخلّـف لنا شعره في ديوانه «ديـوان توفيق زياد» الـذي يضم مجموعتيه الشعريتـين اللتـين تنتميان إلى شعـر التسعينيات وهما: «أشدّ علـى أياديكم» ١٩٦٦م، و«أدفنوا موتاكم وأنهضوا» ١٩٦٩م،

وكتـب توفيـق زياد هـذه الرسالـة الشعريـة إلى أمه، التـي تعيش خلـف الأسوار والحواجز وبوابة مندلبوم. يسألها عن الحال والأحوال، والخيمة السوداء، والأصحاب، ويبثهـا نجواه وأشواقه وأخباره، وحديثه عمن رحلـوا وغابوا، وعن الباقين الصامدين كالفولاذ والصخر وفي دمهم آنفة النسر وكبرياؤه،

عندمـا ينقـل إلى أمه أخبار زواجه من بنت الجار، فلم يعد وحيدًا كما خلفته أمه، هذه الزوجة التي يصفها بأنها «نعنعة البلدة»، وهو يعتذر اعتذارًا بريئًا عن عدم توجيه الدعـوة لأمه لحضور زفافـه، فيقول –وكأنه يقـدم سببًا ليستوقف أحـدًا بالدهشة أو التساؤل– فالدربُ مُنسدة! أليس هاتان الكلمتان البسيطتان: الدربُ منسدة خلاصة الخلاصة لقضية وطنه وشعبه وأرضه وتاريخه وحاضره ومستقبله؟

لقد مرّت السنوات، وأصبحت الأم جدة، يرزف إليها الخبر، لعله يدخل على قلبها بصيصًـا من السعادة والفرح، وله الآن من لحمها بِنيّة صغيرة سماها فهدة، لكنها ما ككل الأطفـال الصغار الممتلئين والممتلئـات بالحيوية قردة، تسأل في كل صباح بلهجتها الفلسطينية أينما الجدة؟

وفي لغة شعرية شديدة البساطة والسهولة –لكنهما البساطة والسهولة الممتنعتان– يُنهـي توفيق زياد رسالتـه إلى الأم بأن طفلته الصغيرة تحب «فـيروز» خصوصًا غِنوة «العودة».

ويالهـا من خاتمة تحدث رجفة وأهتـزازة عميقتين في الوجـدان، وارتدادًا مفعمًا بالشجـن والتوتر، مبلـلاً بندى الدموع إلى مستهل الرسالة، نعيـد قراءتها وتأملها من جديـد، وأسكناه أغوارهـا الإنسانية العميقة، وفي معنى الأمومـة عندما تصبح صورة للوطـن، ومعنى الوطن حين يتجسّد في التلّـة والزيتونة والسدرة والوردة والفلّة، ونتأمل السطـر النثري الـذي وصفه الشاعر في مستهـل قصيدته، وكأنه مفتـاح لعالم شعري يفضي بنا إلى كنز مكنونات الشاعر وذخائره النفيسة الباقية وهو يقول:

«لعل أحد الذين ابتسمت لهم «بوابة الأحزان» هذا العام يحملها إلى أمه»!

رسالة عبر بوابــة مندلبوم

«لعل أحد الذين ابتسمت لهم «بوابة الأحزان» هذا العام يحملها إلى أمه»

« أمي الحبيبة

لك مني مئتا قبلة

أبعثها من بيتنا العالي على التلّة

من شجر «الفيجن» والوردة والفُلّة

والبيدر الضاحك من دغدغة الغلّة

من نصبه الزيتون، والسدّرة والملّة

والموقد الصائم، والعيدان والحلّة

من كرمَة في كلّ صيفٍ تملأ السلة

وقوتةٍ شامية، بيضاء معتلّة

وهاجسٍ يسألني عن آخر الليلة

أمّاه.

يا أجمل ما في العالم الرحْبِ

ياحبّة العين التَي أعبدُ يا قلبي

الشوق، عندي وردة تحيا على حبّي

أماه.

كيف الحال أن القلب يستنبي؟

وكيف حال الخيمة السوداء، والصحْبِ؟

باللّه هل ذبّتم كما ذبنا إلى القربِ؟
إليكموا تحية خضراء كالعشبِ
الطائرُ المشتاقُ، يمُديها إلى السربِ
ويسأل النجمات عنكم علّها تُنْبى
متى تكون الخطوة الأولى على الدرب؟
أخبارنا؟ كثيرة. تُثقل لي صدري.
«أبو صلاح» عميت عيناه من قهرِ
وأم «فخري» ذهبت حزنًا على فخري
والقرية السمراء. قد شابت من الصبر
والعينَ شحّ الماء فيها، فهي لا تجري
وأرضنا. يسلمها الظُلاّم للغبْرِ
لم يبّق يا أُمّي غيرُ المَلّ والصَخَرِ
لكننا نصمدُ كالفولاذ للدهرِ
وكيف لا.
وفي دمنا أَنفُ النّسْرِ؟

وابنُكِ ما عاد كما خلّفتهِ وحْده
لقد تزوجتُ بنت الجار من مُدة
تعينني في عُمري المملوء بالشدّةِ
إن تلميحا قلتِ: ذي نعنعة البلدةْ!
صفحًا أنا لم أدعكم في ليلة الصّمْدة

لم أدعكم، فالدرب يا أمي مُسنَدّة!

وأنتِ قد أصبحتِ يا والدتي جدّة

لي الأن من لحِمكِ، من لحمي أنا وردة

شيطانة. للّه ما أطيبها. فهدّة

تسألني كلّ صباحٍ: أينها الجدّة؟

تحب فيروزْ

خصوصًا غِنوة «العودة»!

محمـود درويش
أحــن إلى خبز أمي

الأم كلمــة بمثابة براح بلا ضفاف، ذراعيها حنيــة، رائحتها وطن، صدرها أمان، كثــيرون كتبــوا عــن الأم، إلا أن لقصيــدة درويش «أحــن إلى خبز أمي» وقعًــا بداخلنا جميعًــا، والــذي لا يشيخ أبدًا مهما مــرت على تجاعيدها السنــين، والذي يظل بحاجة دومًا إلى دفء الأم.

إنها القصيدة التي حركت عواطف الملايين، وعن القصيدة يحكي محمود درويش: (كنا عائلة من ثلاثة أبناء، وثلاث بنات، وكنت الفتى الأوسط بين الصبيان، وهذا كان يضايقني).

وبوضــح دوريش: (عندما كان يجري توزيع المسئوليــات، كان يتم احتسابي مع الكبــار أنا وأخي الأكــبر، وعندما كان يجري توبيخ الصغار، أيضًــا كنت بينهم، أي أنا وأخي الأصغر، فنشأ شعور دفين في قلبي مفاده أن أمي لا تحبني مثل باقي إخواني).

ويتابــع: (كان والدي رجلًا قليل الكلام، خجولًا، ولا يعبر عن حبه لنا، وهذا ما زاد شعوري الكاذب تأكيدًا، في ذلك الزمن) كان جدي هو من أحادثه وأتبادل معه الأفكار والمشاعر.

لم يفصــح درويش الطفل الخجول بطبعه عن هذا الشعور لأحد، وظل يحمله بقلبه حزنًا دفينًا حتى صار شابًا، لكن يحدث أمرًا أطاح بهذا الجدار، الذي وضعته الظروف بين درويش وأمه، وهو اعتقاله من قبل السلطات الإسرائيلية ودخوله السجن.

يقــول درويش: (عندما جاءت أمي لزيارتــي ومعها القهوة والخبز، منعوها من إدخالهم، وسمعتها وهي تحاول بكل ما أوتيت من قوة لتوصل إليّ خبزها، الذي خبزته بنفسهــا والقهوة التي أعدّتها لي، ولما سمحوا لها بالدخول احتضنتني طفل صغير وهي تبكــي، فبــدأت أقبل يديها كما لم أفعل من قبل، وعندئــذ انهار ذلك الجدار الذي كان بيني وبينها.

ومن تلك اللحظة اكتشف درويش أنه ظلم أمه لسنوات، اعتقادًا منه أنها تحبه أقل من باقي إخوته، لكن شعوره لم يذهب أبعد من قبلاته قط، فلم يستطع أن يبوح لها بما يعتمل في قلبه قبل أن تنتهي الزيارة.

لجـأ درويش المرهـف إلى براح الأبجدية، ليفض إلى أمـه باعتذار مستحق بعد أن ظـل طيلـة المساء نادمًا، وكتب قصيدة أسماها «قصيـدة اعتذار» ولما لم يكن مسموحًا لهـم وقتها بـورق للكتابة، كتبها على ورقة الألمونيوم لعلبـة السجائر، وأخذها معه عند خروجه من السجن.

لتصبـح القصيدة تاجًا على رءوس كل الأمهات البسيطات اللاواتي أفنين حياتهن في خدمة أطفالهن جون انتظار شكر أو امتنان.

وقد تغنـى بهذه القصيدة الفنـان مارسيل خليفة، واشتهر بهـا، واستمرت طويلًا تصدح في كل بيت وشارع عربي،

«أحنّ إلى خبز أُمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي

وتكبرُ فيّ الطفولة

يومًا على صدر يوم

إذا متّ

أخجل من دمع أميّ

خذيني إذا عدتُ يومًا

وشاحًا أصحبك

وغطّي عظامي بعشب

تعمّد من طهر كعبك
وشدّي وثاقي
بخصلة شعر
بخيط يلّوح في ذيل ثوبكِ
عساي أصير إلهًا
إلهًا أصيرُ
إذا لمست قرارة قلبك
ضعيني إذا ما رجعت
وقودًا بتنور نارك
وحبل غسيلٍ على سطح دارك
لأني فقدت الوقوف
بدون صلاة نهارك
هرمتَ، فردّي نجوم الطفولة
حتى أشارك
صغار العصافير
درب الرجوع
لعش انتظارك

عندما توفى الشاعر محمود درويش أتت والدته السيدة حورية أم «أحمد»، التي كانت تجلس على كرسي متحرك، وأحضرت معها من القرية الجديدة ترابًا، ونثرته فوق قبر ابنها الذي أحاطت به أشجار الليمون ونقش عليه: على هذه ما يستحق الحياة.

كما كتب درويش أيضًا قصيدة «تعاليم حورية» وكذلك «أجمل الأمهات» وقد تغنى بها مارسيل خليفة.

جبران خليل جبران
ما أزال أشعُر بقربها مِنّي

✍ جاء في رسالة أرسلها جبران خليل جبران إلى ميّ زيادة:

«أنا أحب الراهبات وأباركهن في قلبي، وقد يكون حبي لهن ناتجًا من تلك الرغائب السريّة، التي كانت تشغل خيال أميّ في صباها، وإني أذكر قولها لي مرّة، وقد كنت في العشرين:

- لو دخلتُ الدير لكان ذلك أفضل لي وللناس.
- فقلت لها: لو دخلت الدير لما جئتُ أنا.
- فأجابت: أنت مقدّر يا بني.
- فقلت: نعم ولكن قد اخترتكِ أمًّالي قبل أن أجيُ بزمن بعيد.
- فقالت: لو لم تجيء لبقيت ملاكًا في السماء.
- فقلتُ: لن أزل ملاكًا!
- فتبسمت وقالت: أين جوانحك؟
- فوضعت يدها على كتفي قائلًا: هنا.
- فقالت: متكسّرة.

بعد هذا الحديث بتسعة أشهر ذهبت أمي إلى ما وراء الأفق الأزرق، أمّ كلمتها متكسّرة فظلت تتمايل في نفسي، ومن هذه الكلمة قد غزلت ونسجت حكاية الأجنحة المتكسّرة.

لا يا مّي لم أكن قط من جدود جدود أمي، لقد كانت ولا تزل أمًّا لي بالروح، وإني لأشعر اليوم بقربها منّي، وتأثيرها عليّ، ومساعدتها لي أكثر مما كنت أشعر به قبل أن تذهب، أكثر بما لا يقاس، ولكن هذا الشعور لا ينفي الروابط الأخرى الكائنة بيني

وبين أمهاتي وأخواني بالروح، وليس هناك من فرق بين شعوري نحو أمّي، وشعوري نحو أمهاتي سوى الفرق الموجود بين الذكرى الواضحة والذكرى الضئيلة،

هذا شيء من قليل عن أمّي، وإذا جمعتنا الأيام أخبرتك الشيء الكثير عنها، وأنّي لا أشك بأنك ستحبينها، ستحبينها لأنها تحبك والأرواح السابحة هناك تحب الأرواح الجميلة السائدة هنا، وأنت يا مّي روح جميلة إذًا لا تسغربي قولي: إنها تحبك.

نزار قباني

خمس رسائل إلى أمي

ولد نزار قباني في ٢١ مارس ١٩٢٣م، في حي «مئذنة الشحم» بمدينة دمشق بسوريا.

يتحدث نزار قباني عن والدته السيدة «فائزة» قائلًا:

«أمي من السيدات التي تؤمن بالتشاؤم والتفاؤل، وهي سيدة بسيطة جدًا إلى أقصى درجة، وكانت بعيدة جدًا عن أبي في المستوى الفكري»، ولم يخجل قط من ملازمة أمه له أينما ذهب، فقد كانت تخشى عليه في صغره من كل شيء، فكانت لا تتركه بمفرده أبدًا،

✍ **وقد نظم نزار قباني العديد من القصائد لأمه، ولكن اخترنا منها:**

خمس رسائل إلى أمي

صباح الخير يا حلوة

صباح الخير يا قديستي الحلوة

مضى عامان يا أمي

على الولد الذي أبحر

رحلته الخرافيّة

وخبأ في حقائبه

صباح بلاده الأخضر

وأنجمها، وأنهرها، وكل شقيقها الأحمر

وخبأ في ملابسه

طرابينًا من النعناع والزعتر

وليلة دمشقيّة.

أنا وحدي.

دخان سجائري يضجر

ومِنّي مقعدي يضجر

وأحزاني، عصافيرٌ.

تفتش (بعد) عن بيدر

عرفت نساء أوروبا.

عرفت عواطف الأسمنت والخشب

عرفت حضارة التعب.

وطفت الهند. وطفت السند. طفت العالم الأصفر

ولم أعثُر.

على امرأة تمشط شعري الأشقر

وتحمل في حقيبتها.

إلى عرائس السكر

وتكسوني إذا أعري

وتنشلني إذا أعثر

آيا أمي.

آيا أمي.

أنا الولد الذي أبحر

وما زالت بخاطره

تعيش عروسة السكر

فكيف. فكيف يا أمي

غدوت أبًا.

ولمَ أكبر؟

صباح الخير من مدريد

ما أخبارها الفلّة؟

بها أوصيك يا أمّاه.

تلك الطفلة الطفلة

فقد كانت أحب حبيبة لأبي.

يدللها كطفلته

ويدعوها إلى فنجان قهوته

ويسقيها.

ويطعمها.

ويغمرها برحمته

ومات أبي

وما زالت تعيش بحلم عودته

وتبحث عنه في أرجاء غرفته

وتسأل عن عباءته.

وتسأل عن جريدته

وتسأل حين يأتي الصيف

عن فيروز عينيه.

لتنثر فوق كفيه.

دنانيرًا من الذهب

سلاماتٌ.

سلاماتٌ.

إلى بيت سقانا الحب والرحمة

إلى أزهارك البيضاء. فرحة «ساحة النجمة»

إلى تختي.

إلى كتبي.

إلى أطفال حارتنا.

وحيطان ملأناها.

بفوضى من كتابتنا.

إلى قطط كسولاتٍ

تنام على مشارفنا

ليلكة معرشةٍ

على شباك جارتنا

مضت عامان يا أمي

ووجه دمشق

عصفور يخربش في جوانحنا

يعض على ستائرنا.

وينقرنا.

برفق من أصابعنا.

مضى عامان يا أمي

وليل دمشق

فلّ دمشق

دور دمشق

تسكن في خواطرنا

مآذنها. تضيء على مراكبنا

كأن مأذن الأموي.

قد زرعت بداخلنا.

كأن مشاتل التفاح.

تعبق في ضمائرنا

كأن الضوء والأحجار

جاءت كلها معنا

أتى أيلولًا أُمّاه.

وجاء الحزن يحمل لي هداياه

ويترك عند نافذتي

مدامعه وشكواه

أتى أيلول. أين دمشق؟

أين أبي وعيناه؟

وأين حرير نظرته؟

وأين عبير قهوته؟

وأين رحاب منزلنا الكبير

وأين نعماه؟

وأين مدارج الشمشير.
تضحك في زواياه؟
وأين طفولتي فيه؟
أجرجر ذيل قطته
وآكل من عريشته
وأقطف من بنفشاه
دمشق، دمشق.
ياشعرًا
على حدقات أعيننا كتبناه
ويا طفلًا جميلًا.
من ضفائرنا حلبناه
جثونا عند ركبته
وذبنا في محبته
إلى أن في محبّتنا قتلناه.

واسيني الأعرج
أُمّي أكبر من عيد وأوسع من قبر

باريس بـاردة، والتعب موهن، وفي يدي حزمة مـن ورود، لكل امرأة بعض الرحيق فيها، وأمي أكثر منها في عيدها -عيدهن- أُمّي يا امرأة عادية اسمها أمزار، وهو اسم أمازيغي، يعني قوس قزح أو آلهة المطر، أعتقد أنها كانت تحمل سخاء اسمها،

لم تنقش لهـا في المدينـة تماثيل، تعيـد إلى الواجهة تاريخها الشخصـي أو تاريخ عائلتها العريق، كانت فوق هذه التفاصيل كلها، تنتمي سلاليًا إلى ناس جاءوا من بعيد مـن حـواف شبه جزيرة إيبيريا لا يحملـون شيئًا إلا هزيمتهم ضـد الملوك الكاثوليك، وذاكرة ظلت مشتعلة زمنا طويلًا لا يقل عن أربعة قرون، حتى وصلتني كما في لحظتها الأولى.

أمـي ورثـت كل قصص أمها، التي ورثت بدورهـا كل قصص جدها الذي ورث هو أيضًـا مـن سابقيه، تاريـخ أجدادها المورسكـين، لا أدري لماذا كنـت الوحيد الذي ظل مصغيًا لهذا التاريخ الخفي والحزين من جدتي حنّا فاطنة،

حـزن الذي يقتلع من أرض عاشـ عليها ثمانية قرون ونصـف، قبل أن يرمي على حـواف المتوسط، في يـده كمشة من فراغ، عاش جدي الرّوخو الموريسكي الطرد كقسوة لدرجـة أن تسـاءل يومها كما تقول المرويـات: إذا لم يكن عبور طارق بين زياد أكثر من ورطـة، في كل هذا لا تملك أمي إلا كبرياءها وسخـاء قلبها، كما يقال: عندنا الخسارة والنيـف، الأنفة التي تعني كرامة الإنسان، لا أدري أن كانت أمي محقة في أشياء كثيرة في خياراتها العنيدة، لكنها ذهبت ما وراء ما آمنت به حتى النهاية.

بعـد استشهـاد والدي أحمـد في ١٩٥٩م، تحت وطـاة التعذيب لم تـرث منه شيئًا

إلا غربــة وشبابًــا أعتقــد أنها ظلت وفيّة لــه، سألتها في مرة من المــرات، ميما لماذا لم تتزوجــي؟ ضحكــت، عندنا وفــاء المرأة لزوجها جــزء من حياتهــا وسعادتها، كان من الصعب علي فهم ذلك.

قلــت لهــا: والدي سكــن باريــس وعمــره ١٦ سنة، وعــاد منها تحت ضغــط والده ليتزوجــك ويعود إلى الرومية (الأوربية) صاحبته، قالت وهي تنظر إلى مكان بعيد بلا هوية، حقه اتمتمت، هو يرى الحياة كذلك، ربما ظلمه والده بذلك الزواج، لكنه لم يكن مقصــرًا، اندهشــت، كيف لم يكن مقصرًا ـــــ انتفضت ـــــ وهــو لم يأت إلا في أوقات متفاوتة، بين كل ثلاث أو أربع سنوات ليضعنا في رحمك ثم يمضي.

قالت: ذلك قدر لسنا نحن من يتحكم فيه، مسطور يا حبيبي، أحيانًا أكاد أصرح، غــيّري من هذه الطيبة يا أمي، قســوة الحياة لم تعلمك إلا التسامح، لكني عندما أعود إلى نفسي أجدني ورثت من أُمّي وأبي لا أدري أسواء الأشياء أم أفضلها؟

حــب الناس وخوضــ مغامرة الحياة بشــكل كُلي المرأة هي مــبرر الحياة وطعمها، قالــت لي ذات مــرة يجب أن تتعلم كيف تغفر لوالدك، قلــت لها لا أعرف، قالت تعرف أهم شيء قام به والدك، أنه في لحظة من اللحظات ترك كل شيء لما في ذلك الرومية، وجاء راكضًا إلى أرضه الأولى، بات ليلة قبل أن يمضي نحو تيه الموت، كان رائعًا ومحبًا وحنونًــا، سلــم على يدي ورجلي وجبهتــي، وقال سامحيني وبكى وبكــى، بكى لأول مرة ولآخر مرة، لأني لم أره في حياته يبكي، وانطفأ في الغابات مع الثوار إلى يوم ألقى عليه القبض، وجيئي به ليظهر لهم مخبأ الأسلحة، التي كان قد أخفاها في المطمورة.

طبعًــا تقــول أمي: كنــت قد أخبرت الجنــد الذيــن زاروني ليلًا، وقلــت لهم بكلمة الســر –الزرع والقمح– طلبوا مني أن أريهــم المطمورة، ومنها أخرجوا أسلحة كثيرة، وخرجوا في جنح الليل بعد أن أعادوا كل شيء على صورته الأولى.

كان المجاهـدون أيامهـا يقامـوا التعذيـب بالكـذب ٢٤ ساعة، وبعدهـا لهم حرية الإفصاح، يكون كل شيء قد سحب أو غيرت أمكنته.

تواصـل أمي: زرته بعدها مرتين في السجن، في المرة الثالثة قال لي أحد الحراس: زوجـك يامدام قد هرب، هـرب إلى أين؟ صرخت بأعلى صوتي، قولـوا إنكم قتلتموه، أخبرني رفاقه الذين كانوا معه في الزنزانة أنهم جاءوه على ١٢ ليلًا أخذوه، من يومها لم يعـد، نعـرف جيـدًا أن كل من يخرج في ذلـك الوقت لا يعود، كيـف لا أحب والدك؟ وكيف لا أحفظ ذكراه، وكيف أتزوج من غيره؟

وجدت أمي نفسها أمام خمسة أطفال، وآخرهم في بطنها وكان عليها أن تتحمل كل شيء، وأن تعيلهم وهي التي لم تعمل في حياتها، وكان عليها أن تنفذ وصية قاسية تركها والـدي وراءه قبـل أن يترك هذه الحياة أو تتركه، أن تعلم أبناءها ولا يهم إذا كان ذلك باللغة الفرنسية، فهي الوسيلة التعليمية الوحيدة للخروج من ظلام الجهل.

والـدي أيضًـا قاوم الموت والجهل بهـذه اللغة مثله مثل كل أفـراد الحركة الوطنية الأوائـل، الذين وجـدوا أنفسهم بـلا لغتهم العربيـة، وليس في مخزونـه إلا العاميتين الأساسيتـين، العامية العربية وهي خليط بقايا الإسبانيـة، أو العامية الأمازيغية، عند الذيـن ظلوا علـى قمم الجبال ولم يدخلـوا المدن إلا قليـلًا، أو الفرنسيـة، بينما ظلت العربيـة ممنوعـة قانونًـا، في النهاية علمتنا، منحـت أمي هذه الأرض الطيبة مؤرخًا مرموقًـا ظـل وفيًا لرسالتـه التعليمية حتى نهايتـه المفجعة في عز أيـام الإرهاب، أخي وحبيبـي عزيـز مهندسًا معماريًا، ومديـر ثانوية، ورئيس بلدية أخـي حسان، وجامعيًا شاءت صدفة الأقدار أن يرث حكايا جدته، وقصص أمه ويحولها إلى قصص وروايات يكتبها وينشرها، ويحلم أن يحصل على صفة الكاتب التي اشتهاها كثيرًا، لأن مساحته الكبرى للحرية.

زليخــة حبيبتي وأختي توفت في وقت مبكر غبنًــا، سنة واحدة بعد استشهاد الوالد الذي ظلت مرتبطة به بقوة، وماتت أيضًا غُبنًا على الرجل الأسمر الذي أحبته ورفضته العائلة بعنصريتها العريقة، قالوا لها: أنت تهينين العائلة.

لا يوجـد في قبيلة تغـراو الأمازيغية سود، فكيف تدخلين علينــا عنصرًا غريبًا، في مــرة مــن المرات ونحن تحــت الشمس زوليخة في عينــي كل الألوان التــي كانت الأشعة تبرزهــا بوضــوح، ورأت في عينيهــا أيضًــا نفس الألــوان الأســود، والأزرق، والأخضر، والأصفــر، قالــت وهي تمضــغ شيئًا مرًا، ربما ســواكًا أو ربما لا شــيء، لكني أحسست بالمرارة في فمها.

يقولون أن السلالات التي عبرت تتجمع في البؤبؤ، كل واحدة مرت على هذه الأرض تترك علاماتها، لا يوجد شيء صاف إلا في أوهام البشر،

في بــلاد سكنهــا النوميديــون والأفارقــة والرومــان والونــدال والعــرب والأتراك والفرنسيــون، كيــف لك أن تحدد ما هو أصيل فيك، وما ليس أصيلًا، في عيني صديقي سالم هذه الأشعة أيضًا، يومها كان حبيتي زوليخة تلقنني درسًا في العنصرية.

وخلّفــت أمي كذلك أختين رائعتين «خيرة» و«زهــور» ورثتا قصص الجدة بإحكام، وزرعتاها على أطفالهما الكثيرين، يحبون الحياة ويمنحونها الخير والمحبة،

في قرية حدودية ملغمة في عمقها، محاطة بالأسلاك الشائكة والألغام، تحولت بعد الاستقلال إلى بؤرة التهريب لا تخرّج إلا عتاة مهربي المخدرات ومنهم بعض أبناء العمومة.

بحكمتها أبعدتنا أمي عن كل ما يكسر أحلامنا، ويختزلها في الأشياء السريعة.

فرعــون لم يأخــذ قصوره معه، كانت تقول كلما جاء مــن يغريها بمسلك التهريب، وسرنا في مسلك الدراسة الأصعب الذي حمانا من الجهل وحمانا أيضًا من الموت.

كلما زرت المقــبرة لأترحم على الوالدة أرى على مدّ البصر شواهد الشباب الذين

قتلـوا على الحدود بسبب التهريب، وقبور الشباب الذين ماتوا في حوادث سيارات وهم يحاولـون الهـرب من الجمارك، وهـم في حالة تخدير كُلي قبـل أن يسقطوا في فراغ أو يصطدمـوا بحائـط، وعندما أسأل عـن بعض من عرفت في القريـة، يجيبني أباؤهم: فلان غادر القرية خوفًا، وفلان ضبط معه طن من المخدرات فأخذ تأبيدة.

عـالم شديد القسـوة يموت في الصمـت والسكينة، عرفت أمي كيـف تنقذنا منه، أعتقد أن الأمهات في القرية فشلن، حيث نجحت أمي بحاستها الطبيعية النقية «شدق حلال ولا خبزة حرام».

تلك وصيتها التي رسخت في القلب، وحدها أمي واجهت صلابة الحياة بقوة، لهذا لم أشعر كثيرًا بغياب الوالد قبل أن تسكنني حالاته الأخيرة.

ذهب ولم يترك له قبرًا إلا في قلب أمي، بينما أنا وأخوتي الصغار بالخصوص كنا نتـوارث الكذبة الجميلة، أنه في الغربة وسيعود يومًا مـا ليمنحنا أخًا جديدًا ثم يسافر من جديد.

عملـت أمي بمشقة وربمـا كانت تلك خامس قيمـة منحّتها لي أمـي بعد السماحة والحـب والصبر والقناعة، عن العمل كقيمة وعدم الاستسلام لمصاعب اليوم وقسوته، وإبداع الحياة يوميًا كيفما كانت المعوقات.

لهـذا كلما تأملت وجه أمـي رأيت بوضوح، بين خطوط وجههـا التي عمّقها الزمن الظالم، أحزانها وخيباتها وأفراحها الصغيرة.

داخل كل دوامة الفقر التي نزلت فجأة على العائلة بعد أن كانت تعيش رخاءً نسبيًا، تضمنه حوالات الوالد، التي كان يبعثها شهريًا من فرنسا باستمرار، لم أشعر يومًا أننا كنا على الحديدة، ولم نبت يومًا بلا أكل، لا تهم الوجبة، ربما كانت كأس شاي أو بيضة مسلوقـة في المـاء، أو سلاطة طماطـم، كنا نغرسها بالقرب مـن البيت، مع قطعة خبز

من الشعير التي كانت يومها دلالة على الفقر، أخرى من القمح الذي كانت تتطحنه في رحاة يامبو الشعبية، التي حملت تاريخًا وراءها قبل أن تنطفئ مع أصحابها.

نحــن أمة للأسـف لا تعرف كيف تحفـظ تاريخها وذاكرتهـا وجراحاته، كل شيء يأتــي ثـم ينطفئ وكأنــه لم يكن قط، أبحــث أحيانًا عن تلك العلامــات التي بقيت من تاريخ صارخ، فلا أجدها إلا في رأسي كما ورّثتها لي أمي وأورثها بملامسي لابنيّ باسم وريمــا، ربما ورثتني أمي هذا أيضًا، قصصنا القديمة التي لها أصوات وطعم ورائحة، التي يجب أن تظل حية ولا تموت، ولا تفقد ألقها.

أمي عاشت ٩٣ سنة واقفة حتى النهاية، ويوم خرجت للمرة الأخيرة بشكل فجائي كمــا تمنــت تمامًا! كانت لاتــزال الحياة بالنسبة لهــا قوة دائمة، وعاشــت حتى الثانية الأخيرة تمشي، وتجيء، وتجوب الأسواق، وتطبخ، وتحب أبناءها وأحفادها، وحركة في حركتها وفي مالها، تعيش براتب والدي في فرنسا الذي رحل تاركًا لها راتب الشهيد لكي لا تحتاج لأحد، وتعيش كبرياءنا كما اشتهته وكما أرادته.

حجــت مرارًا واعتمــرت مرارًا أيضًــا، ولكنها لم تتوقف قط عــن البحث عن رفاة والــدي على مدار أكثر من نصف قرن، فقــط لتصنع شاهدة على قبر تكتب عليها هنا ينــام الطير الحر لعرج أحمــد، عاش بعيدًا ومات قريبًا، لتقــف كما يفعل جميع سكان القرية وتترحم عليه، ويوم نفذ صبرها وخانها العمر، افترضت أن روحه في كل مكان، في كل المواســم تقــف في المقبرة، وتلتفت صــوب السجن القديم وتترحــم عليه، تعرف جيدًا أين قتل وهذا يكفيها، لا يهم أين دفن؟ فروحه في كل مكان ورفاته ستنطلق يومًا من تلقاء نفسها.

ملكة الصبر وإبداع الحياة في عز الموت، ورثتها أيضًا عن أمي، لم أفعل شيئًا كبيرًا سوى أني سرت في مسلكي ببعض الوفاء لقلبها.

أن تكتــب عــن أمك معنا أن تملــك خجلًا كبـيرًا أمامها، أن تنحنــي قليلًا عندما تتحدث عنها، لأنك لن تقول في حقها أبدًا ما يجب أن يقال، هذا ما أحس به الآن، أمي هنا أبدًا، في صلب كل حكاية حكيتها أو ساحكيها،

أمي كانت شيئًا آخر لا يشبه إلا نفسه، لا مقابل له، يصعب عليّ أن أحدد إشراقها وأن أصنــع لها صورة كاملة، شمسنــا قاسية، ولا أحد يستطيع أن يواجه حرقتها مفتوح العينين، أمي كانت تفعل ذلك كلما اشتهت أن تبكي أو أن تستثير غيرة الشمس، الشيء الوحيد الذي ظل صافيًا فيها ولم تقهره الأيام عيناها.

✍ الجمهورية وأُمّي:

لم تدخــل المرحومــة أُمــيّ لأي مدرسة، ولا تعــرف الجرائد الوطنيــة إلا من خلال ألوانها، التي عنوانها أحمر هو الشعب، والتي عنوانها أسود هو المجاهد، والتي عنوانها أزرق فهــي الجمهوريــة، وما تبقى كتب تتسلــق حائط البيت العائلــي الذي كبرت فيه، وتتشبس به كما عقارب البحر بصخورها.

وأنــا من يخبر أمي عــن كل المستجدات الوطنية والدولية، لهــذا كانت أمي تخاف عندمــا يقال لها ابنك صحفــي، لأنها تعرف بفطرتها ومن خــلال الأخبار أنهم الأكثر هشاشــة وتعرضًا للمــوت، طبعًا لم أكن صحفيًا ميدانيًا إلا مــن باب الكتابة في جريدة عن حالة أكلف بها أو عن وضع، لكنني كنت سعيدًا أن أنتسب لجريدة كبيرة مرّ عبرها أناس كثيرون وكبار، كلما تذكرت الرجل ذا الشعر الأبيض أدرك الحظ الذي أوجدتني فيه صدفة الأقدار.

بفضلــه اختزلت سنوات كثيرة في المهنة، الحســين –رحمه الله– كان صديقي وهو مــن العائلــة الواسعة، صمّــم أن ينقذني من شــرور الحياة، شاءت الظــروف أن يتخذ الواحــد منــا له مسلكًا في الحياة، يختلــف جذريًا عن الآخر، وكنت أقــدره جيدًا، أهله

مــن أغنياء لالــة مغنية وتلمسان، أهله يكـدون ليل نهار في حقول الكــروم، يعملون بلا توقف، يعيشون إسلامهم بمحبة وبلا تطرف، حجّوا واعتمروا كثيرًا، لكن العمل اليومي ظـل ديانتهم الدائمة لهذا كنت أحبهم ويحبونني، بينما الحسين كان منهمكًا في حرب أيدلوجيــة غــير مثمرة مطلقًا، قسّمــت المجتمع الجزائري إلى جهتــين، جهة المؤمنين، وجهــة الكفار، كان مصابًــا بالدين في أكثر صوره تطرفًــا، كان السبب الأول في نهايته التراجيديــة، ذات يــوم كان عائــدًا إلى بيته من يــوم ثقيل، أدركــه الأذان فصلّى على حافة الطريق في عز الضباب الذي يحجب الرؤية، للأسف داسته سيارة قادمة بسرعة مجنونــة، توفى على أثرها، حزنــت عليه كثيرًا لأني في لحظة من اللحظات شعرت كأن موتــه كان حالــة انتحار، كانت أمــي تحبه لورعه، ولكنها في الوقــت نفسه لم تكن تحب تطّرفــه، زار الحسين يومًا أمي في القرية، كان رجلًا خيرًا، يعودها كلما وجد وقتًا لها، ويســأل عــن صحتها، كان يتابع كل مــا أكتبه، وكل ما ألتقيته ناقشنــي في مادة الشهر، كتبــت عن ابــن بركة؟ هذا واش وجــدت؟ ألا تعرف أنه كان شيوعيًــا؟ وأحاول عبثًا أن أقنعــه: يا رجل ابــن بركة كان مناضلًا كبــيرًا وشخصية عالمية، قاتــل من أجل الخير والعدالــة، وكان على خــلاف مع القصر الذي اغتاله في فرنســا، ومع الشيوعين الذين اعتبروه تحريفيًا، لكن الحسين الذي كنت أصغره سنًا، يصر على أن لا، وأني لا أعرف الخلفيات، يؤكد: هذه حيلة الشيوعين دائمًا، السم في العسل، ليتعددوا أكثر.

نــرى اليوم كيف يحكمون البــلاد ثقافيًا، هم ولا أحدًا غيرهــم، وكان من الصعب علــي إقناعــه بأي شيء خــارج ما في رأسه، كان يشعر دومًا أنــه لم يوفق في مهمة زجي نحو حركته، التي كانت تشتغل دينيًا باستمامة في الوسط الجامعي، قال لأمي وهو يفتح صحيفــة الجمهورية بعنوانها الأزرق: شوفي يا يمة الحاجــة اليوم تأكدت أن الشيوعين أخذوا واسيني، أغسلي يديك منه.

مـن الصعـب استعادتـه، ها هو يكتـب في جريدتهم عـن حركة التطـوع الطلابي اليساريـة، شـوفي واش كتـب وكيف رفعهم للسمـاء؟ ابنك راح يا الحاجـة، لقد أصبح شيوعيًا، لما زرت أمي قادمًا من وهران، هيأت لي شايًا منعنعًا بيديها كما العادة، صفة ثابتـة في أُمـيّ، لا تتـكل على أحد، ثم بقيـة صامتة للحظة، وهذه ليسـت عادتها، كنت أعـرف من عينيها الملونتين بألوان الشمـس، كأنما كانت تريد أن تسر لي بشيء خطير ومهـم، اقتربت مني وكأنما تخاف أن يسمعها أحد ثم وشوشت في أذني: يقولون عليك أن الشيوعيين سرقوك، وسيزوجنوك بواحدة شيوعية أو يهودية أو مسيحية، ربي يعلم، يقولون إنه ليس ليدهم دين ولا مِلة.

ضحكـت: أنا قدامك يايمـا، لم يسرقني أحد، ولم أتـزوج لا مسلمة ولا يهودية ولا مسيحية ولا واحدة بلا دين، أنا محجوز لابنة خالتي.

لازم يكون السي الحسين قد مّر من هنا، هذه لغته وما معنى شيوعي يا ميما؟ تقول أمي: يقول الحسين: أنهم فرقة جديدة من الكفار لا يؤمنون بشيء.

الجميل في ميما أميزرا أنها تسمع لي أيضًا، وتثق جدًا في ما أقوله، لا يايما تهتاي، والدي -رحمه الله- كان نقابيًا وعاملًا ومدافعًا عن حق المساكين وهو في فرنسا، الكثير من أصدقائه كانوا ينادونه: الأحمر، يعني الشيوعي بينما ظل هو يكد على أنه عامل ولا يحـب الظلم والقسوة على الفقراء، يوم اندلعت الثورة جـاء راكضًا من هناك؛ ليموت هنا على أرضه وأرض أجداده، هل خان وطنه؟ هل سرق حق النـاس؟ مع أنها كان يمكن أن يظـل هنـاك حتى الاستقلال كما فعل غيره، وأصبح الكثـير منهم يديرون البلد كله كأنـه مزرعتهم، ويبيعون ويشترون باسمه، نعم أنا مع المتطوعين يايما، كما كان والدي يرحمه اللّه مع العمال، نعم حكيت عنهم في جريدة الجمهورية، واجبي يايما، أنا مثلهم ابن هذه الأرض، وابن هؤلاء النـاس،

حكيـت لك عـن المتطوعين سابقًا، فسبقتنـي أمي إلى الرد، كأنهـا لتذكرني بأنها لـن تنسَ شيئًـا مما قلته لها: هاذوك اللـي ضحوا بعطلهم الصيفيـة والشتوية وراحوا مـع الفلاحين يعملون معهم، ويشرحون لهم القوانين التي تحررهم من العبودية يايما، الحسين يشوف العبودية يايما كانها نعمة من الله يختبرنا بها.

فليختـبر بها الآخرين لماذا نحن دائمًا مادة اختيارية لهم يايما، ويجب عدم تغيير هـذا القانـون الإلهي، بينمـا نحن نؤمـن أن الله لا يريد الظلم، هو عـادل في جوهره؟ خلـي الحسين يجيء يعيشـ نهارًا واحدًا مع الفقر الذي عشتـه، والشمس التي أحرقت وجهك، والحزن الذي أصاب قلبك، ونشوف ردة فعله، اهتزت أمي: صح يا وليدي ربي مـا يبغيش الظلم، هو يكره الجريدة ويالك (قصدها الجمهورية التي أكتب فيها) لأنه يـرى فيهـا خلية نحل شيوعية، هـذا كلامه، أجيب وأنا أفترض مـا قاله لأمي، وهذّبته هـي بحبهـا ولباقتها: هذا مش صحيح يايما، أكتب فيهـا لأنها جريدتي وتساعدنا على العيش قليـلاً، تعويضاتها المادية ليست كبيرة، لكنها تحل مشكلات كثيرة، النـاس اللي فيهـا فيهـم القبيح والمليح مثلنـا جميعًا، يايما يريدون من النـاسـ أن لا يفعلوا شيئًا ما عـدا الصلاة والصوم والحج والركض وراء الناس، هذا صلى، هذاك ما صلاش، هذا صام، هذاك فطر رمضان، هذه مؤمنة، هذيك تهدر مع الرجال.

أهل الحسين ناس طيبين، وخيرهم كبير، ومالهم وفير، ماذا اقش الفقر يايما، ربي يزيد لهم، لكنه ليحفظ دروسه عنده ويخلي الناس ترانكيل ماذا لو ربي أعطى السلكة لجماعـة الحسـين يومًا؟ مـاذا سيفعلـون في الشيوعيين؟ ولكن في كل مـن لا يشبههم، سيذبحون النـاس في النهار،

معـك حق يا وليدي تتم أمي كلامي، بعد الشاي انزويت أقرأ الجريدة التي تركتها لها كشاهد على شيوعية ابنها.

فتحــت مقالــة التطــوع، وقرأتها من جديــد، المقالة كانــت بعنــوان: ثقافة الفلاح وتجربة المتطوع، لم يكن بها ما يثير الجدل، كانت عادية جدًا، كلمة تطوع وحدها كانت تثير في الحسين الخوف والريبة والسياسة والأيديلوجيا.

حركة التطوع كانت الحائط الوحيد، الذي كان يقف في وجه التطرف الإسلاماوي وقتها، لهذا كانوا يكرهونهم، وأغلبهم أبناء فلاحين وعمال وزوالية، حقيقي لم أجد في المقالة ما يثيره من حيث الأفكار.

الأهــم من هــذا كله، هو سعــادة أُميّ وابنها لا يــزال هنا، لا يزال كمــا عرفته، لم تسرقه أي جهة، ولم يخطب لا مسيحية ولا يهودية ولا حتى مسلمة.

كنــت حرًا طليقًا كمــا الورقة، لا يحمل في قلبه إلا الخــير ولا يحقد ولا يعرف كيف يحقد حتى على الحسين.

رهانــه الأكــبر دراسته ونجاحه ليعطي لأمه فرحة الوفــاء بوعدها لزوجها، والدي قبــل استشهــاده في سجن الســواني ذات ربيع من سنــة ١٩٥٩م، عندما حررها من كل قيــد، حياتــي ستتوقف هنا، تزوجي صغــيرة ومن حقك حياة أخــرى، أوصيك بالأولاد فقط علميهم، علميهم، علميهم، قفي ورائهم حتى النجاح.

وهــو مافعلته بقلب سخي، ظلت وفية لوعدها، لم تتــزوج على الرغم من الطلبات العائليــة الكثيرة، كنت كلما نلت شهــادة تقول: واش كاين بعدها، السيزام ثم البروفي، ثــم البكالوريا، ثم الليسانس، ثم دبلوم الدراسات العليــا، ثم الماجستير ثم الدكتوراه، كان عمرهــا قد تخطى الستين، عليك الرحمة يا أمــي وحفظك الله في ملكوته الأعلى، فقــد فعلت المستحيل من أجل أن أكــون على ما أنا عليه اليوم، كنت تقولين دائمًا: النيّة تنتصر دومًا.

وبعد عامين من وفاة أمه كتب واسيني:

كانت فقط أُميّ:

من قال ماتت؟ أمي كانت هنا ثم خرجت صباحًا، تبحث عن الطير لتسقي عطشه، عـن الشجـرة اليتيمة على حافة الطـير، لتقاسمها قليلًا من الظـل والماء، خرجت من قليل لتحرف مدار الشمس بثانية نحو أمكنة لا يزورها إلا الظلام.

وتـدور في ساحات الأرض، لا تعبأ بفجيعـة الصدفة، تخيط جرحًـا هنا، وتمسح وجهـا هناك مـن حزن قديم، وتملأ قلبًـا هنا ببعض الخير، وتزيـل غشاوة النظر عن عيون هناك، وأُميّ لا تعرف مسبقًا أن القدر ينوي لا يسأل عن نوايا الآخرين.

كانت هنا ثم امتطت قبلة البحر، توجهت نحو قلبه وتطلب منه أن يقلل من غضبه، فبحارة هذا الليل لا يملكون إلا صدره وملحه.

أُميّ كانت هنا قبل قليل، لكن تيه الحياة لا يرحم، فاستراحت قليلًا قبل أن تعود.

استيقظت في القلب هذا الصباح محملة بشوق سنتين من الغياب، لقد رأيتها،

أقسم أني رأيتها تعبر ساحة البيت، تستبق الخطوة حتى لا يسبقها الفجر،

تصلـي ثم تحـط الشاي على مائـدة الأجداد، وتنقـر بابي بلطـف، أسمع خطاها ونشيـد قلب هش كنجمة هاربة، أقوم الآن لأشرب الشاي من يدها، أقبل رأسها ويدها ووهـج عينيها، وأملأ قلبي بعطر النعناع وطعم الحكاية، لكل ميت نجمته التي ترافقه، ونجمة أُميّ لا تزال هنا، كما رأيتها أول مرة منذ خمسين سنة.

سيـدة الخير والحب والنـور، آلهة البرق واللون والمطر، لم تكـن يونانية هذه المرة كان فقط أُميّ.

وقـد أشـار الكاتب الكبـير إلى بعضـ تفاصيل هذا اليـوم الأليـم في حياته (يوم وفـاة والدته)، حيـث كتب على صفحتـه الرسمية بموقع التواصـل الاجتماعي الشهير

«فيسبـوك»: الرابـع مـن ديسمبر الذي مضـى لا يختلف عن هذا اليـوم ببروده وبعض أمطـاره، كلمتـك في الهاتـف، قلـتِ احـذر أن لا تأتـي؟ سأحضّـر لك أكلـة عاشوراء بالخرشـف واللفـت المـرة، بالطريقة التي تحبـه، أن شاء الله ميما، قلتهـا وأنا أستعد للنزول إلى دروسي في جامعة الجزائر المركزية.

وعـبرت أُمـيّ الأماكن التـي تعودت عليها، البنـك، والسوق، ثم العـودة فجأة نزل الخبر بشكل أكبر من الموت ذاته.

بعدها حلّ بياض شديد القسوة لا شيء يُصدّق، كيف يسرق الموت من كان يحدثك قبـل ساعات؟ لا أدري كيف تركت ورائي طـلاب الماجستير الذين التفوا حولي بحزن؟ ولا أعرف كيف قطعت ليلًا السبعة ساعات سياقة الفاصلة بين العاصمة وتلمسان؟

مازلت هنا يا أُميّ ولا شيء تغير، شمس واحدة قد تحزن، لكنها لا تغيب أبدًا، أنتِ، كل فقـدان يبدأ كبيرًا ثـم يتضاءل إلا أنتِ، كل يوم تسكنـين خلية منسية من خلاياي، صعب أن تغمض عينيك على وجه أمك وتستيقظ بدونه.

صباح الخيريا أُميّ:

صبـاح الخـير يا أُميّ، صباح الخير يا أجمل امرأة تمـلأ القلب، اسمع الآن نقرات كئوس الشـاي. أراكِ وأنتِ تقومـين فجرًا قبـل أذان الفجر الثـاني. تصلّين، تفتحين الطاولة في باحة البيت، تأتين بالخبز الساخن والبيض وتغرفين كمشة الشاي المانتي في البراد. وتنتظرين قليلًا قيامي، أول من يقوم أنتِ، وثاني من يرافقك في فجرك الشهي أنا، قبل الجميع نشرب الشاي ونجوب أراضي الدنيا بحكايا الماضي والأجداد والناس.

صبـاح الخير يا أُميّ. مازلت مسمرًا في الشرفـة أنتظر قيامك، الذي تأخر قليلًا، انتظـر يا أُمـيّ. وأشعـر كأن غيمة الرماد التـي تلّفني أصبحت حقيقـة وليست مجرد كابوس، صباح الخير يا أنبل شوق، متأكد من أنك خرجت فقط وستعودين، انتظر في شُرفة البيت القديم.

معروف الرصافي
أوجب الواجبات إكرام أُمّي

معروف الرصافي شاعر عراقي، ولد لأب من الأكراد، وأم عربية، فجمع في أعراقه الصفات العبقرية للدم الآري والسامي، وكان أبوه فارسًا شجاعًا حضر الحرب العثمانية، التي قامت بين الأتراك والروس.

لكن أمه التي نسلتها قبيلة شمر العربية الضاربة في بادية العراق، طبعته بطابعها، وجللته بحنانها، وهو صغير، ولما شبّ لم يجد ما يملأ فكره وقلبه سواها، وقد اتفق له معها مع اتفاق لأبي العلاء المعري، ولأبي الطيب المتنبئ مع أميهما، ذلك لأنه بعد عن أمه شريدًا، وحين انتهت الحرب العالمية الأولى، عاد إلى بغداد فوجد أمه قد ماتت، فانكبَّ باكيًا، وعاش لفقدها على شجون الذكرى، مشجون الفوائد باللوعات وفيها يقول:

خليلَّي هل من بالرصافة عالم
بأني إلى من الرصافةِ شيقُ
إذا ما تذكرت العجوز بكيتها
بدمع به الأهداب تطفو وتغرق
وما شرقي بالدمع يا أمُ وحده
ولكن بروحي عند ذكراك أشرق

ومن أقواله أيضًا:

أوجب الواجبات إكرام أُمّي
أن أمي أحق بالإكرام
حملتني ثقلًا من بعد حلمي
أرضعتني إلى أوان فطامي
ورعتني في ظلمة الليل حتى
تركت نومها لأجل منامي

د. نقولا زيادة

إيقـاع على أوتـار الزمن

الزمـن الذي أتحدث عنه هو فترة تمتد واحـد وتسعين سنة وبضعة أشهر، تبدأ في الثاني من ديسمبر ١٩٠٧م، وتمتد إلى اليوم.

فأنـا أبواي من الناصرة (فلسطين)، ولكن والدي كان موظفًا في قسم الهندسة في الإدارة العامـة لسكك حديد الحجاز، التي كان مركزهـا دمشق، ولذلك فأنا مولود في الميدان التحتاني بدمشق في التاريخ المذكور.

كانـت طفولتي حلوة هنيئة في حمـى أب رءوف، وأم رءوم، وصحبـة أخت وأخوين أصغر مني سنًا.

كانت للأسرة رحلات وسيرانات في أنحاء الغوطة، والفيحاء، ودمر الغناء والهامة موحيـة الشعر والشعراء (جنينـة الحليب) الضاحكة، التي كانت تقع عند طرف شارع حلب الآن.

وأدخلت إلى مدرسة الفرير في الميدان التحتاني، مكان أول معلميّ فئة من الراهبات لا تفارهـم (الطبشة) وهي أداة العقاب، التي لم ينلني منها نصيب، ثم بحّلنا، وبيتنا، فنقلت إلى مدرسة إنجيلية كان حصتي فيها معلمات لطيفات أنيسات.

وفي هاتين المدرستين، مع عناية والدي بي، تعلمت مبادئ القراءة، الأمر الذي كان له في حياتي المبكرة أثر كبير.

لكن هذه الفترة من الطفولة الهنيئة، انتهت فجأة لما أعلنت الحرب العالمية الأولى، ودخلـت «الدولـة العلية» الحرب إلى جانب ألمانيا «١٩١٤م»، فقـد جُنّد والدي كما جُنّد

الآلاف مــن الشباب العثمانين، وحشدوا في مواقع مختلفة في دمشق، تمهيدًا لإرسالهم مع الحملة التي كان يعدها جمال باشا (الحاكم العام لبلاد الشام والقائد العام للفيلق الرابع التركي) إلى الترعة (قناة السويس).

وقد أطلق عليها اسم «السوقيات»، ولكن بدل أن يُدرّبوا على القتال، حُشروا في شبه معتقلات منظرين الأمر ب»السوق».

كان أبــي مع الذيــن حشروا في جامع المعلقة، ولأنــه كان جامعًا لم تسمح السلطات لأمي بزيارته، فكنت أقوم أنا و(أنا في الثامنة من عمري) بزيارته مرة في الأسبوع.

في أحــد الأيام ذهبت لزيارته، فقيل لي أنه مريضــ ونُقل إلى المستشفى، ولكن أي مستشفــى لم يكــن أحد يعــرف، وإذن فقد ترتّب علينــا أنا وأُميّ أن نــزور المستشفيات المختلفــة بحثًا عنــه، كنا نقوم بالزيارة متناوبين، فأخي الأصغــر «جورج» كان في أوائل الثالثة من عمره، فلم يكن من الجائز أن يُترك وحيدًا.

إن الــذي عاينته في المستشفيــات التي زرتها، والمرضى الذين شاهدتهم، وما كانوا يتألمــون منه مــن أمراض وجروح، فضلًا عــن الإهمال والقذارة أمــور لاتزال ماثلة في نفسي، بعد مرور ما يزيد على ثمانية عقود من السنين.

في مســاء أحــد الأيام عــادت أُمــي إلى البيت، ومعهــا كيس ألقت بــه إلى الأرض، وقالت: (نقولا أبوك مات، وهذه ثيابه).

وكان كل مــا تملــك يومها لــيرة عثمانية ذهبية واحدة، كان أول مــن أعاننا إلى أن يأتــي الفرج من الناصرة، غبطة البطريــك جيرجيوس حداد، بطريك أنطاكية وسائر المشــرق للروم الأرثوذكس، فقد كان خــالي إيليا مطرانًا لأبرشية صور وصيدًا وتوابعها التابعــة للبطريكية، فكانت لنا بغبطة البطريك صلــة خاصة، ولكن خالي المطران كان يومهــا غائبًا في أمريكا «الجنوبية»، وأخيرًا جاء خالي سامي من الناصرة ليحملنا إلى

بلدنا الأصلي، إلا أن أمي كانت قد أصيبت بالتيفوس (من جراء زيارتها للمستشفيات)، فكانت ضعيفة، فتأجلت عودتنا بعض الوقت.

لما عدنا إلى بيت جدي لأمي في الناصر، تعهد خالي «سامي» وخالتي «صوفيا»، وكانا الاثنان يعملان في وظيفتين لهما راتب محترم، بأن يكونا عونًا لأمي، إلا أن الحظ السيء كان بانتظارنا، فقد توفى الاثنين خلال بعض الوقت، ووقع على أمي عبء العناية بأسرة كبيرة.

أدهم شرقاوي «قس بن ساعدة»
«صباح أُميّ»

أدهــم شرقاوي كاتب فلسطينــي، ولد ونشأ في لبنان في مدينــة صور، حاصل على دبلــوم دار المعلمــين من اليونسكــو، ودبلوم تربيــة رياضية من اليونسكــو، نشر كتاباته تحــت اسم مستعــار «قس بن ساعدة» لإعجابه به لأنه كان حنيفًا على دين إبراهيم، له مجموعــة من الكتب منها: «عندما التقيت عمر بن الخطاب»، وكتاب «حديث الصباح» و«كش ملك»، و«نطفة» و«وطن من لحم ودم»، و«نبض».

صبــاح أمي تقسم في أنها أعدت القهوة مُرّة، وأقسم لها أن قهوتها حلوة كثيرًا لأن أصابعهــا سُكّــر، صباحها تقول لي: افتح النافــذة لتدخل الشمس، فأنــتِ أجمل وأدفأ ويحتاجك العالم أكثر، فتضحك بغنج وتقول لي: ياولد تأدب!

صبــاح الخير يا أمي، صباح العيد على بابك كمتســول ويسأل كعكة، كيتيم يشتهي من يدك مسحة، كمشتاق يشتهي منك ضمة، كعاشق مثلي يشتهي منك قبلة!

صباح أمي تهدِّيءُ روعَ الحبقِ في الدار، فيغارُ القرنفلُ، ويتسارعُ الياسمين لمصرعِه عنــد قدميها، صبــاح الخير أمّاه، صباح سجادة صلاتــك لم تشبع من جبهتك، صباح السبحة بين أصابعك، صباح قهوتك المُرّة ما أحلاها!

أمّاه أشتاق للسحور معك، وأغازلك كما كنت أفعل (اقسمي لي الرغيف بيديك من حق هذا الخبز أن يتسحر).

مساء قهوتك المُرّة يا أمي ما أحلاها!

عندما كنت صغيرًا كنت أتأفف حين تعقد أمي أزرار قميصي، كنت أريد أن أخرج

إلى الدنيـا بسرعــة، اليـوم أبيع الدنيا لتعقـد زرًا واحدًا، كبرت وصـرت أقطع الشارع وحدي، لكني أفتقد طعم الأمان الذي ذقته ممسكًا طرف ثوبك، أمّاه كيف جعلتني أثق بقطعــة قماش ترتدينها أكثر مما أثـق بقدمّي! أولادي جعلوني أعرف أن دمع أمي عليَّ لم يكـن دلع نساء، وأن قسوة أبي معي لم تكن خشونة رجال، منافق هو الحب كم وجهًا لديه! تعالوا لنقتسم هذا العالم، خذوا كل شيء واتركوا لي قلب أُمّي!

ويقسم لي بائع الورد أن هذه باقة تليق بأمي، وأقسم له أن عليه كفارة يمين، فأمّي أجمل وأنضر وأبهى وأنقى وأصفى وأحلى وأغلى من ورد العالم كله!

أنا الذي قلت للصيدلي يومًا: أعطني أصابع أمي! فقال لي: وما أصابع أمك؟ قلت له دواء للأرق، فقد كانت إذا أرقت تسمح على رأسي فأنام،

أُمّـاه، أن الصبـي الـذي كان يطـرق بـاب غرفتـك، ويقـول: مخيف هـذا الليل، فتحضنينه، قد كبر ويريد أن يطرق باب غرفتك، ويقول: مخيف هو الحنين!

أُمّــاه أغار من سبحتك تداعبها أصابعك، من سجــادة صلاتك تقبل جبهتك، من الصبــاح تتغزلين به: ما أجمل الصبـح، أصبحنا وأصبح الملك لله! أيصحُ صومُ الماء يا أمــي، وفي كل وضــوءٍ أراه يشرب منك؟ ذاكرتي مثقوبة، تسقـط منها كل الأماكن التي أحببتها إلا حضن أُمّي، سامحيني يا أُمّي، لأني وشيتُ بك فقد أخبرت المحقق البارحة إنــك دومًــا تحرضيني على الحياة! وحين تخرجين يا أُمّي تحـت المطر أسمع الماء يقول للمــاء: الأن بطـل التيمم! أجدني دومًـا مشدودًا إليك أتاريهم يا أُمّــي نسوا أن يقطعوا بيني وبينك الحبل السريّ! أحيانًا أحسدُ أمي فهي تنشرُ غسيلها دون أن تخشى شرطة جرائم المطبوعات!

طوق بيدك على رءوس أطفال العالم يا أُمّي، فيتيم كل طفلٍ لست أُمّه!

ظهر الشيب في رأسي يا أُمّي وهذا الطفل في داخلي لم يكبر!

حبوب دوائك يا أُمّي مريضة فتناوليها في موعدها لكي تشفى!

اللهم أنك تعلم أن أمّي هي أنا فاجمعني بها!

فـدوى طوقـان

شقـاء الأم انعكـس عليها

تقول فدوى طوقان: خرجت من ظلمات المجهول إلى عالم غير مستعد لتقّبلي، أُمّي حاولـت التخلص منّـي في الشهور الأولى من حملها بي، حاولت وكررت المحاولة ولكنها أخفقت، عشر مرات حملت أمي، خمسة بنين خرجوا إلى الحياة، وخمس بنات، ولكنها لم تحاول الإجهاض فقط إلا حين جاء دوري، هذا ما كنت أسمعها ترويه من صغري.

تاريخ ميلادها ليس معروفًا على وجه التحديد والدقة، ولا تدري عنه شيئًا، وحينما تريـد أن تتأكـد من أمها تجيبها ضاحكة، كنت يومًا أطبخ العكّوب هذه شهادة ميلادك الوحيدة التي أحملها، وفي أو تحدّ لها من أجل معرفة تاريخ ميلادها كان عام ١٩٥٠م، إذ وجـب عليها أن تستخرج جواز سفر، فقالت لها: أنا أدلك على مصدر موثوق، حيث يمكنـك التيقـن من عام ميـلادك، فحين استشهد ابـن عمّي كامل عسقـلان كنتُ في الشهـر السابع من الحمل، وكنت أحـب ابن عمّي حبًا شديدًا. طلبت فدوى من أمها أن تدلهـا علـى قبر ابن عمّها كامل، فلم يبقَ أمامـي إلا أن أستخرج شهادة ميلادي، ومن شاهـدة قبر ابن عمكِ. ضحكنا للمفارقة واتفقنا علـى أن تصطحبني في اليوم التالي إلى المقبرة الشرقية، حيث هنالك ابن عمّها الشهيد.

تعـترف فدوى طوقان بكل صراحة أن ظروفهـا الحياتية التي عاشتها منذ الصغر لم تكـن مريحة، (فإن طفولتها لسوء الحظ أو لحسن الحظ لم تكن بالطفولة السعيدة المدللـة، لقد ظللت أتلهف للحصول علـى دمية تغمض عينيها وتفتحهما. ولم أكن أحب ملابس لا قماشًا ولا تفصيلًا، فقد كانت أمّي تخيطها بنفسها، ولم تكن تتقن هذه الصنعة).

وكانـت ابنة عمّي شهيرة تلبس دائمًا أجمل ممـا ألبس بما لا يقاس، إذ كانت أمها تبعـث بملابسهـا إلى خياطة محترفة. وتتابـع قائلة: وكنت أتلهـف للحصول على حب أبوي واهتمام خاص، وتحقيق رغبات لم يحققاها لي في يوم ما. وكثيرًا ما سمعت أمي تذكر طرائف ونوادر من طفولة أخوتي، مما كان يثيرنا نحن الصغار فنضحك. وكنت دائمًـا أنتظر أن تروي شيئًا عن طفولتي، نادرة مثلًا، أو حادثة طريفة طرافة الحوادث التي ترويها عنهم، ولكن دوري الذي كنت أنتظره لم يكن ليأتي قط، فأبادرها بالسؤال بلهفـة طفوليـة: أحكي لنا يـا أُمّي شيئًا عني، مـاذا كنت أفعل؟ مـاذا كنت أقول؟ بالله أحكـي، ولكنهـا لم تكن لتبل غليلي ولو بذكر طرفة تافهـة، وأنكمش في داخلي وأحسسُّ بلا شيء. أنني لا شيئ، وليس لي مكان في ذاكرتها.

وتدلّـلِ فـدوى على فقدانها الحنان الأبوي — أم — أب — بما كانت تلقاه ابنة عمها شهـيرة من معاملة حسنة إذ تقوم أم شهيرة بتمشيط شعرها الطويل، وفي الوقت ذاته تكـون فدوى قد جلست أمـام أمّها لتمشطها، كنت وأنا في مقعدي ذلك أنظر إلى زوجة عمّـي وهي تدلل شعر شهـيرة، تمشطه على مهل، وتتهامس معهـا بحديث الأم المهتمة بإشبـاع عاطفة ابنتهـا بطريقة تلقائيـة وغريزية، وكان هذا كله يحـدث أمام بصري وسمعـي، بينمـا كنت أتلقى الضربات على ظهري من قبضتـي أمي العريضتين، بسبب ضيقهـا بتحملـي بين يديهـا، كان تمشيطها لشعـري سريعًا عصبيًا موجعًـا. فلم تكن لتتعامل مع خصلاته المعقدة الطويلة بتمهل.

رغم أنني كنت شديدة الحساسية لمعاملة أمّي التي كانت تبدو لي فظة وقاسية، غير أنني كنت في نفس الوقت شديدة الالتصاق بها نفسيًا، وأخاف أن تموت وتتركنا وحدنا، وفي لية القدر كنت أدعو الله أن يبقي ورقة حياتها خضراء عالقة على الشجرة التي في السمـاء. لم تكن أُمّي قاسية بالطبيعة، بل كانت شديدة الحساسية، سريعة الاستجابة لدواعي البكاء والحزن، كما كانت سريعة الانقياد إلى المرح والغناء والضحك.

كانــت ذات مزاج انبساطي متفتــح العلاقات البشرية، فلم تكــن تقدر على التمتع بالحياة دون التواصل مع الناس، وكانت لدي دائمًا مناعة غريبة ضد العدوى بمزاجها المرح الطليق.

الواقع المؤلم الذي عاشته الشاعرة في طفولتها لم يكن إلا انعكاسًا واضحًا وصريحًا لواقع أُمّها وعذابها وقيودها التي كانت تكبلها، قيود المجتمع والعادات والتقاليد البالية، ومــن هنا فإن الشاعرة فدوى طوقان تلتمســ العذر لأُمّها وتعلله بقولها: غير أنني كنت أحس بوجود خيط من الشقاء اللامنظور يمتد في أعماقها، وحين كبرت عرفت مصدر ذلــك الشقــاء الخفي، إنه الحصار والقهــر الاجتماعي المفروض على المــرأة في بيتنا، كمــا تأكد لي أن ذلك القهــر الذي كانت تعانيه، وعزلها عــن المجتمع خارج البيت، هو الذي نمّى فيها ملكة السخرية، والنكتة الذكية كنوع من التنفيس، فقد كانت إلى جانب جمالهــا ذي القسمــات التركية التي ورثتها عــن أُمّها، تمتاز بخفــة روح نادرة وسرعة خاطــر في التعليقات اللاذعــة، كما كانت تمتلك موهبة عجيبــة في التقليد أورثتها إلى جميع أبنائها.

ولقــد حدثتنــي أكثر من مرّة كيف كانت تفقد شهيتها للطعــام إذا سمح أبي وعمّي لنســاء العائلة بحضور مناسبة من مناسبة الأفراح لدى بعض العائلات في البلدة، كان فرحها بالخروج من البيت والالتقاء بالعالم الخارجي يبلغ حدًا يعجز عنه الوصف. كما كانت تقول. وكان هذا يحدث مرّة أو مرّتين في العام.

وقد كتبت عن أمها في قصيدتها «الأغنية الوصية»:

ويحوم هنا طيف أمي يحوم
تشعّ بعينيّ جبهة أمي
عساها تفكر بي الآن

هُــم وأُمَّهَاتُهم

تحلم قبل اعتقالي
رسمت حروفًا على دفته
جديد. عتيق
رسمت عليه ورودًا
روتها دماء العقيق
وكان بجنبي أُمّي
تبارك رسمي
أراها
على وجهها الآن صمتٌ وحدة
وفي الدار صمت ووحدة
حقيبة كتبي هناك
على رفّ مكتب
ومعطف مدرستي عالقًا
فوق مشجب
أرى يدها الآن تمتدّ
تنفض عنه الغبار
أتابع خطوات أُمّي
وأسمع تفكير أُمّي
أتوق إلى حضن أُمّي
ووجه النهار

وتعتــبر فدوى طوقان إحدى أهم شاعــرات فلسطين في القرن العشرين، حيث مثل شعرها أساسًا قويًا للتجارب الأنثوية في الحب والثورة، واحتجاج المرأة على المجتمع.

ولــدت فدوى طوقان في مدينة نابلس الفلسطينيــة، لأسرة مثقفة غنية لها حظوظ كبيرة في المجتمع الفلسطيني.

تلقــت تعليمها حتــى المرحلــة الابتدائية حيث اعتــبرت عائلتها مشاركــة المرأة في الحيــاة العامة أمرًا غير مقبــول؛ فتركت مقاعد الدراسة واستمــرت في تثقيف نفسها بنفسها، ثم درست على يد أخيها الشاعر إبراهيم طوقان، الذي نمّى مواهبها ووجهّها نحو كتابة الشعر، ثم شجعها على نشره في العديد من الصحف العربية.

محمد الماغوط

أُمّي أعطتني الحس الساخر

كان فقـره سببًـا في تركـه المدرسة باكـرًا، فبعد تعليمـه في الكتّـاب انتقل محمد أحمـد عيسى الماغـوط (١٩٣٤- ٢٠٠٦م) إلى المدرسة الزراعية بمدينة سلمية التابعة لمحافظـة حماة السورية ليكمل دراسته، سجن على أثر انتمائه للحزب السوري القومي الاجتماعـي، المتهم باغتيال عدنان المالكي رئيس الأركان العامة السورية عام ١٩٥٥م، وخلف القضبان تعمقت تجربة الماغوط الأدبية.

يتحدث الماغوط عن أمه قائلًا: (أُمّي كانت امرأة جميلة وشاعرية في طبعها، وتحب الزهور، لكن حنانها وحبها لنا لم يمنعها من أن تكون صارمة حيث يتطلب الأمر ذلك).

أمي أعطتني الحس الساخر، الصدق والسذاجة، رؤية العالم كحلم قابل للتحقق.

وحـين سجنت لأول مرة في سجن «المزة» جاءت من سلمية للبحث عني والاطمئنان علـى حياتـي، وهي لم تزر دمشق من قبل، ركبت البسطـة وجاءت إلى دمشق، تذكرني أمـي بالرسامـة التركية الرائـدة جليلة خانوم، عندمـا سجن ابنهـا ناظم حكمت في سجـن «بورصة» الرهيب، كتبت لافتة طويلة وعلّقتها أمام باب السجن مطالبة بإطلاق سراحه، ووقعتها باسمها الأول في شجاعة نادرة.

هكذا يجب أن نبحث عن الأم الشجاعة في دفاتر الرجال الأفذاذ.

نــازك الملائكــة
رائــدة الشعــر الحــر

نــازك صادق الملائكة (بغــداد ٢٣ آب-أغسطــس ١٩٢٢م – القاهرة ٢٠ حزيران –يونيو ٢٠٠٧م)، شاعرة من العراق.

ولــدت في بغــداد في بيئة ثقافيــة، وتخرجت من دار المعلمــين العالمية عام ١٩٤٤م، دخلــت معهد الفنون الجميلــة وتخرجت في قسم الموسيقى عــام ١٩٥٩م، حصلت على شهــادة ماجستير في الأدب المقارن من جامعة وسكنست في أمريكا، وعينت أستاذة في جامعة بغداد، وجامعة البصرة، ثم جامعة الكويت.

عاشت في القاهرة منذ ١٩٩٠م، في عزلة اختيارية وتوفت بها في ٢٠ يونيو ٢٠٠٧م، عــن عمر ناهز ٨٥ عامًــا، بسبب إصابتهــا بهبوط حاد في الــدورة الدموية، ودفنت في مقبرة العائلة غرب القاهرة.

يعتقــد الكثيرون أن نازك الملائكة هي أول مــن كتبت الشعر الحر في عام ١٩٧٤م، ويعتبر العض قصديتها المسماة «الكوليرا» من أوائل الشعر الحر في الأدب العربي.

وقــد بدأت الملائكــة في كتابة الشعر الحر في فترة زمنيــة مقاربة جدًا للشاعر بدر شاكــر السياب، وزميلين لها هما الشاعران شاذل طاقة، وعبدالوهاب البياتي، وهؤلاء الأربعة سجلوا في اللوائح بوصفهم رواد الشعر الحديث في العراق.

ولــدت نازك الملائكة في بغداد لأسرة مثقفة، حيث كانت والدتها سلمى عبدالرازق تنشــر الشعر في المجــلات والصحف العراقية باســم أدبي هو «أم نــزار الملائكة»، أما أبوهــا صادق الملائكة فترك مؤلفات أهمها موسوعة «دائرة معارف الناس» في عشرين

مجلـدًا، وقد اختار والدها اسم نازك تيمنًـا بالثائرة السورية نازك العابد، التي قادت الثوار السوريين في مواجهة جيش الاحتلال الفرنسي في العام الذي ولدت فيه الشاعرة.

حصلت الشاعرة نازك الملائكة على جائزة البابطين عام ١٩٩٦م، كما أقامت دار الأوبرا المصرية يوم ٢٦ مايو/إيار ١٩٩٩م، احتفالًا لتكريمها بمناسبة مرور نصف قرن علـى انطلاقة الشعر الحر في الوطن العربي، الـذي لم تحضره بسبب المرض، وحضر عوضًا عنها زوجها الدكتور عبدالهادي محبوبة، ولها ابن واحد هو البراق عبدالهادي محبوبة.

لقبها:

الملائكة لقب أطلقه على عائلة الشاعرة بعض الجيران؛ بسبب ما كان يسود البيت من هدوء ثم انتشر اللقب وسار وحملته الأجيال التالية.

أهم مجموعاتها الشعرية:

«عاشقـة الليل ١٩٤٧م»، نشر في بغداد، وهو أول أعمالها التي تم نشرها، «وشظايا الرمـاد ١٩٤٩م»، «قرارة الموجة ١٩٥٧م»، «شجرة القمر ١٩٦٨م»، «ويغير ألوانه البحر ١٩٧٠م»، «مأساة الحياة وأغنية للأنسان ١٩٧٧م»، «الصلاة والثورة ١٩٧٨م».

ونازك الملائكة إلى جانب كونها شاعرة رائدة، فإنها ناقدة متميزة، وقد صدر لها قضايا الشعر الحديث عام ١٩٦٢م، التجزيئية في المجتمع العربي ١٩٧٤م، وهي دارسة علـم الاجتماع، سايكولوجيـة الشعر عـام ١٩٩٢م، الصومعة والشرفـة الحمراء، كما صدر لها في القاهرة مجموعة قصصية عنوانها «الشمس التي وراء القمة» عام ١٩٩٧م.

وللشاعر العراقي فالح الحجية دراسة مستفيضة عنها في كتابه «موجز الشعر العربي».

الكوليرا تُبدع شعر التفعيلة:

تقـول نازك الملائكة: بعد صدور «عاشقـة الليل ١٩٧٤م»، وبأشهر قليلة انتشر وباء الكولـيرا في مصر الشقيقة، وبدأنا نسمع الإذاعة تذكـر أعداد الموتى يوميًا، وحين بلغ

العدد «٣٠٠» في اليوم انفعلت انفعالا شعريًا، وجلست أنظم قصيدة استعملت لها شكل الشطريـن المعتاد مغـيرة القافية بعد كل أربع أبيات أو نحو ذلـك، وبعد أن انتهيت من القصيـدة قرأتها فأحسست أنها لم تعبر عما في نفسي، وأن عواطفي مازالت متأججة وأهملت القصيدة، وقررت أن أعتبرها من شعري الخائب الفاشل.

بعـد أيام قليلة ارتفع عـدد الموتى بالكوليرا إلى «٦٠٠» في اليـوم، فجلست ونظمت قصيـدة شطرين ثانية أعبر فيها عن إحساسـي، واخترت لها وزنًا غير وزن القصيدة الأولى، وغـيرت أسلوب تقفيتها ظانة أنها ستروي ظمأ التعبير عن حزني، ولكنني حين انتهيـت منها شعـرت أنها لم ترسم صورة إحساسي المتأجـج، وقررت أن القصيدة قد خابت، وأحسست أنني أحتاج أسلوب آخر أعبر به عن إحساسي، وجلستُ حزينة حائرة لا أدري كيف أستطيع التعبير عن مأساة الكوليرا، التي تلتهم المئات من الناس كل يوم،

وكان يـوم الجمعـة ١٩٤٧/١٠/٢٤م، وفي مخاضـات الـولادة يأتـي يـوم ١٩٤٧/١٠/٢٧م، حاسمًا ولحظة الانفجار الشعري تقول: أفقت من النوم وتكاسلت في الفراشـ أستمع إلى المذيع، وهو يذكر أن عدد الموتى بلغ ألفًا، فاستولى عليّ حزن بالغ، وانفعـال شديد فقفزت من الفراش، وحملت دفـترًا وقلمًا وغادرت منزلنا، الذي يموج بالحركة والضجيج يوم الجمعة، وكان إلى جوارنا بيت شاهق يبنى، وقد وصل البناءون إلى سطـح طابقـه الثاني، وكان خاليًا لأنـه كان يوم عطلة العمـل، فجلستُ على سياج منخفض، وبدأت أنظم قصيدتي المعروفة الآن «الكوليرا»، وكنت قد سمعت في الإذاعة أن جثث الموتى كانت تحمل في الريف المصري مكدسة في عربات تجرها الخيل، فرحت أكتـب وأنا أتحسس صـوت أقدام الخيل: سكن الليل أصـغ إلى وقع صدى الأنّا في عمق الظلمة، تحت الصمت على الأموات، ولاحظت في سعادة أنني أعبر عن إحساسي أروع تعبـير بهذه الأشطر غير المتساوية والطول، بعد أن ثبت لي عجز الشطرين عن التعبير عن مأساة الكوليرا،

وجدتني أروي ظمأ النطق في كياني، وأنا أهتف: الموت، الموت، الموت، تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت.

وفي نحـو سـاعـة واحـدة انتهيت من القصيـدة بشكلها الأخير، ونزلـت ركضًا إلى البيت، وصحت بأختي إحسان: انظري لقد نظمت قصيدة

عجيبـة الشكل، أظنها ستثـير ضجة فظيعة، وما كادت إحســان تقرأ القصيدة – وهــي أول من قرأها– حتى تحمســت لها تحمسًا شديدًا، وركضت بها إلى أمي فتلقتها ببرودة، وقالت لي: ما هذا الوزن الغريب؟ أن الأشطر غير متساوية وموسيقاها ضعيفة يا بنتي، وغضب أبي. ثم قرأها أبي، وقامت الثورة الجامحة في البيت، فقد استنكر أبي القصيدة وسخر منها، واستهزأ بها على مختلف الأشكال، وتنبأ لها بالفشل الكامل ثم صاح بي ساخرًا: وما هذا الموت، الموت، الموت!

وراح أخوتــي يضحكون وصحت أنا بأبي: قل ما تشاء إنني واثقة أن قصيدتي، هذه ستغير خريطة الشعر العربي، وكنت مندفعة أشد الاندفاع في عباراتي هذه، وفي أمثال لها كثيرة قلتها ردًا على التحدي بالتحدي، ولكن الله –سبحانه وتعالى– كان يسبغ عليّ رحمتـه في تلك اللحظـات الحرجة من حياتي الشعرية، فكتـب لقصيدتي أن يكون لها شأن كما تمنيت وحلمت، في ذلك الصباح العجيب في بيتنا، ومنذ ذلك التاريخ انطلقت في نظم الشعر الحر، وإن كنت لم أتطرف إلى درجة نبذ شعر الشطرين نبذًا تامًا، كما فعل كثير من الزملاء المندفعين.

الأمـام الصادق المهدي
تحية في عيد الأم ٢٠١٦م
يا رحمة الله زادك الله رحمة

الصادق المهدي زعيم حزب الأمـة السوداني، وإمام الأنصار المنتخب في ديسمبر ٢٠٠٢م، انتخـب رئيسًا لوزراء السودان في الفترة من ٢٥ يوليو١٩٦٦م– مايو ١٩٦٧م، ثـم انتخب لرئاسـة وزراء السـودان مرة أخـرى في الفترة من أبريـل ١٩٨٦م- وحتى انقلاب ٣٠ يونيو ١٩٨٩م.

والدتـه هي السيدة رحمة عبدالله جاد الله (١٩٠٩ – ١٩٨٥م) متفقهة في التراث الدينـي، من رائدات النهضـة النسوية بالسودان، وقد أنشأت مـع أخريات أول جمعية نسوية، وهي جمعية نهضة المرأة، توفت في ٣١ ديسمبر ١٩٨٥م.

رسالـة لأمهـات الأنصـار خاصة، ولأمهـات السـودان وأمهات الأمـة الكبرى، بل لأمهـات الإنسانيـة عامة في يوم عيد الأم تحت عنوان «يارحمـة الله وهي صفة لكل أم زادك الله رحمة».

فكـرة عيـد الأم على سنة أعياد أخـرى فكرة حميدة ومفيدة؛ لأنهـا تتيح الفرصة لذكر فضائل الأم والحث على البر بها، على نحو ما قال النبي –عليه الصلاة والسلام– عندما سُئل: (أنت أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أبوك).

والبر بالوالدين توجيه رباني: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا)، سورة الإسراء آية ٢٣.

الأم هـي مستودع الحنـان الأول، وهي مصـدر الغذاء الأول، وهـي حضن التربية

الأول، ولطفلها هي المدرسة الأولى، عبارة أم هي اسم فعل أمر من أم بمعنى قصد، أي أقصدها تعبيرًا عن تلك المعاني الحميمة.

والدتـي رحمة الله عبدالله جادالله كانت بالإضافـة لتلك المعاني سيدة ذات ذكاء فطـري واجتماعي، ووعي بضـرورات الحياة وحكمة في التصــرف، الحكمة هي حسن التصــرف بمقتضى الحال، وهي مصدر آخر من مصــادر المعرفة، التي قال عنها الله -عز وجل-: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا).

كان تعليــم أُمّــي النظامــي محدودًا، ولكـن التعليــم النظامي وحده ليـس مقياس المعرفة، فرب أمي عليم ورب خريج جهول، قال عنه مثلنا الدارج (القلم ما بزيل بلم)، فمن غير الخريجين: الألمعي الذي يريك الرأي كأنه قدر رأي وقد سما، ومن الخريجين كالحمار يحمل أسفارًا.

كانــت الوالــدة تجسيد للرجولــة بالمعنى الأخلاقــي، لا الجنــدري للكلمة، جسدت أخلاق الإقدام – المروءة – والكرم إلى آخر.

هــذه المعاني يصفهــا التراث السائد بالرجولة مع إنها قيــم إنسانية، مثلما سميت أخلاق النجدة بالفروسية اشتقاقًا من الفرس، مع أنها صفات إنسانية محمودة، يجب ألاّ يخلــط بــين الرجولة كقيمة أخلاقية والذكورة كصفة بيولوجية، على نحو ما جاء في أبيات الشاعر السعودي غازي القصيبي:

أيها المخترع العظيم
يا من صنعت بلسمًا
قضى على مواجع الكهولة
وأنقذ الفحولة
أما لديك بلسمًا

يعيد في أمتنا الرجولة؟

ومع رجوليتها وفروسيتها الأخلاقية كانت تجسد الأنوثة في أسمى معانيها، تتساوى مـع الرجال إيمانيًا وإنسانيًـا، وتتميز منهم في دورها كأنثى، فخـورة بنوعها لا تحاول النفور عنه بالتشبه المقيت.

بعض بنات جنسها المبرزات يطرقن باب المساواة تشبهًا بالذكور أو محاكاة للوافد من الغرب، ولكنها كانت تحقق توفقها الإيماني والإنساني بأصالة الدين والوطن وبلا تشبه.

إن تقديـري لها باعتبارها أول أنثى أعرفها في حياتـي جعلني أسقط هذا التقدير علـى المـرأة، من حيث هـي فأتعامل معهن بلطـف يخالف المعهود في ثقافـة تغلب عليه «ذكورية» صماء.

واستقر في ذهني أن الذين يرون دونية المرأة، إنما يسقطون على النساء الأخريات تـدني تقديرهم لأمهاتهم، وعندمـا تفتح ذهني وجدت أحاديـث منسوبة للنبي -عليه الصـلاة والسـلام- تكرس لدونية المرأة من نحو: (لن يُفلح قـوم ولوا أمرهم امرأة)، وقـول: (مـا رأيت ناقصات عقل ودين أذهب لب الرجل الحـازم من إحداكن يا معشر النسـاء)، وقـول: (استوصوا بالنساء خـيرًا)، وقول: (لولا حواء لم تخـن أنثى زوجها الدهر)، والحديث: (إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان). إلخ

وكان أول شعـوري هـو ما في هذه المعـاني من تناقض مع صـورة أُمّي، فبحثت عن صحـة تلك الأحاديث لأن النبي -عليـه الصلاة والسلام- يقول: (إذا سمعتم الحديث عنـي تعرفه قلوبكـم وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنـه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر من أشعاركم وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه).

القرآن فيما يتعلق بكرامة المرأة واضح، قال تعالى: (إني لا أضيع عمل عامل منكم

من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض)، سورة التوبة آية ٧١.

وأمـا الخطأ الـذي وقع فإن القرآن نسبه لآدم: (وعصــى آدم ربه فغوى) سورة آل عمران الآية ١٩٥.

ومرة نسبه لآدم وحواء، قال تعالى: (فأزلهما الشيطان عنها).

أما نسبة الخطأ لحواء وحدها فتعبير توارثي، وأما قصة الخلق فالقرآن قال فيها: (هـو الـذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكـن إليها)، وأما الكيد فقد ذكـره القرآن لامـرأة العزيز، كما ذكره لإخـوة يوسف، فالكيد عيـب إنساني يمارسه الرجال والنساء.

وسلـوك النبي محمد مع المرأة لا يدل على اعتبارها ناقصة عقل ودين، لجأ النبي عليـه الصلاة والسلام للسيدة خديجة في أول دهشة لاستقبال الوحي، وأتّبع نصحها، ولجأ للسيدة أم سلمة في أول محنة حلت بالمسلمين إذ اختلفوا وخالفوا ما أمر به النبي بعد صلح الحديبية، فأشارت له السيدة أم سلمة برأي أتبعه وكان فيه ما فيه من صلاح الحال.

وخصـص السيدة عائشـة بحق الرواية عنه، وقال في حق المـرأة مقولات تكريم مثل: (أن جاهمـة -رضـي الله عنه- جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسـول الله أردت أن أغزو وقـد جئـت أستشيرك، فقال هل لك من أم؟ قال: نعم، قـال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليهـا)، وقـال: (النساء شقائـق الرجال)، هذه المعـاني في السنـة العلمية والمروية تتناقض مع مقالات دونية المرأة.

كانـت أُمّـي رحمة تمثـل نموذجًا يتناقـض تمامًا مع مفـردات دونية المـرأة كافة، وينتسـب لصـورة القانتات: آسيا امرأة فرعون التي احتضنـت موسى -عليه السلام- ومـريم ابنة عمران والـدة عيسى -عليه السلام- وخديجة بنـت خويلد التي احتضنت محمـد -عليـه الصلاة والسـلام- وفاطمة بنت محمـد التي حفظت العـترة النبوية،

ورابعــة العدوية التي كانت علمًا في أوليــاء الله الصالحين، هؤلاء القانتات كن قدوتها، وهن قدوة لكل أهل الإيمان.

آمنة أمه، وحليمة مرضعته، وبركة بنت ثعلبة احتضنته بعد وفاة أمه، وفاطمة بنت أسـد قامت بتربيته، لذلك كان النبي -عليـه الصلاة والسلام- يقول مفاخرًا بأمهاته مـن قريش وسليم وقيس واليمن: (أنــا ابن العواتك، أنا ابــن الفواطم كلهن طاهرات سيدات).

إن مسـرة الإنسانيــة الصاعـدة أثبتـت بطلان دونية المـرأة، وأكـدت استحقاقها للقضــاء على كل أنواع التمييز ضـد المرأة، فالمجتمع الإنساني لا يحلق إلا بجناحيه كما أثبتت التجربة الإنسانية: (وفي الأرض آيات للموقنين)، (وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

سلامٌ على رحمــة في العالمين، زادها الرحمن بركة وأفاض عليها وعلى ذريتها من رحمته وعنايته، وسلامٌ على رحمة في الخالدين، زادها الرحمن الرحيم رحمة.

فاكـوندو كـابرال
المُغّنِي والشاعر الجوّال

فاكوندو كابرال «٧٤ عامًا» شاعر وروائي ومطرب أرجنتيني، اشتهر في السبعينيات، وهــو واحــد من جيل خلـط المعارضــة السياسية بالفــن الأدبي، وخلق رابطًــا وثيقًا مع جمهور ثوري كافح على طول أمريكا اللاتينية، وعرضها ضد القمع والاستبداد متجولًا بين البلاد مقدمًا أغنياته للحرية.

كان كابــرال حــرًا طوال حياته بكل مــا تحمل الكلمة من معانٍ، هجــر والده البيت عندما كان طفلًا، وعندما التقى والده للمرة الأولى بعد ما أصبح كهلًا، قال له الوالد: (هــذه ثــاني هدية أمنحها لــك، الأولى عندما جئت بك إلى هذه الحيــاة، والثانية أني تركتــك تحياها بحريتــك)، وكان هذا ما فعلــه فاكوندو كابرال طــوال حياته حيث لم يخضع قط سوى لصوت روحه.

دفــع كابرال ثمــن حريته هذه عندما تــرك بلده الأرجنتين عــام ١٩٧٦م، في أثناء الديكتاتوريــة العسكريــة التي اعتبرته من الأصوات غير المرغــوب بها، ولكنــه في منفاه بالمكسيك واصل كفاحه نحو الحرية بتأليف أغانيه المعارضة والكاشفة للقمع والاستبداد إلى جانب رواياته التي بلغت «٣٣» رواية ومن بينها «بورخس وأنا» و«جدتي أنا».

كان يردد كثيرًا: (تعلمت من والدتي أن الوقت لا يفوت أبدًا عن التعلم، وعلى المرء أن يبــدأ من جديد عندما يريد أن يــترك المرأة، التي لا يحبها أو الرجل الذي لا يحبه، أو العمــل الذي يبغضه، أو أي شخص يحاول أن يتحكم في حياته، كما تعلمت منها أننا نستطيع أن نتغلب على الخوف الموروث، لأن الحياة هنا والآن).

كانت هناك حادثة هامة في طفولته تكشف ملامح مبكرة لهذه الشخصية العظيمة، حيث كان في التاسعة من عمره، ترك بلدته «لاباتا» وسافر إلى «بوينوس أيرس» واختفى لمدة أربعة أشهر، رغب أن يتعرّف إلى رئيس الأرجنتين آنذاك «خوان دومينغو بيرون» بعد أن سمع أنه سيوفر عملاً للفقراء، وبعد مشقة الطريق الطويل «٣٥٠كلم» تمكّن فاكوندو كابرال من الوصول إلى بيت الرئيس، وفي اليوم التالي استطاع التسلل من الحصار المني المفروض على الرئيس وزوجته إيفا بيرون وتحدّث معهما، وعن هذه الحادثة قال كابرال في التسعينيات أن إيفا بيرون قال آنذاك: (أخيرًا هناك من يبحث عن عمل وليس صدقة)، ولكنه كان سعيدًا لأن هذه المحادثة جعلت أمه تحصل على فرصة عمل.

ورغم فلسفته العاشقة للحياة، إلا أن هذه الحياة لم تمنحه الهناء المنشود، فقد كابرال زوجته الحبيبة وابنته في عام واحد، في حادث تصادم طائرة عام ١٩٦٨م، وهو لايزال في الأربعين، أما صحته فهي أيضًا لم تكن مشجعة على هذا التفاؤل، الذي يملؤه فقد عاشر ضعيف البصر وأوشك على العمى قبل وفاته، كما تعايش مع مرض السرطان.

قال مؤلف أغنية «لست من هنا أو هناك» التي كسرت الدنيا في السبعينيات وسُجّلت مئات المرات بعدة لغات، عن الموت: (هو المرأة التي لم أقابلها بعد، أغازلها لأنها تثيرني، تثيرني فكرة هجران الجسد، تثير فضولي لذا لا أخشى الموت، ودومًا أفكر هل هذه ليلتي الأخيرة؟).

وكانت ليلة ١٩ يوليو هي ليلته الأخيرة لاقته المرأة المرتدية السواد، وهو خارج من الفندق بمدينة «غواتيمالا»، التي ذهب إليها ضمن جولة موسيقية لبلدان أمريكا الوسطى، بعد أن أمتع معجبيه بحفل رائع، وكان في طريقه إلى المطار، هاجمه ملثمون في ثلاث سيارات، وأصيب بثماني طلقات نارية، ومات على الفور في السيارة التي أصيب هيكلها بأكثر من عشرين رصاصة.

تقول الحكومة الجواتيمالية أن سبب الحادث هو وجود كابرال برفقة رجل الأعمال ومنظـم حفلتـه الموسيقية هـنري فارنياس، الـذي أصيب في الحادث أيضًـا، ولم يُفلح الحراس السائرون خلفهما في الحيلولة دون مصيرهما الأليم.

اجتمع مئات الجواتيماليين مرتدين السواد بميدان «لاكونستيتوسيون» وهم يرددون أغاني كابرال ويهتفون «نعتذر للأرجنتين» و«نطلب العفو من العالم على مقتل فاكوندو».

لست من هنا أو من هناك:

أعشق البحر والمرأة حين تبكي
والسنونو والنساء العابثات
والقفز من الشرفات وفتح النوافذ
والصبايا في إبريل
أعشق الخمر والورد
والعشاق وليس الأسياد
أحب أن أكون صديق اللصوص
كما أن أعشق الأغاني الفرنسية
لست من هنا، لست من هناك
لا عمر لي، ولا مستقبل
ولون هويتي هو أن أكون سعيدًا
أحب أن أستلقي على الرمل
وأن أطارد مانويلا على الدراجة
وأمضي الوقت أراقب النجوم
مع ماريا في حقل القمح
لست من هنا، أو من هناك
لا عمر لي، ولا مستقبل
ولون هويتي هو أن أكون سعيدًا

صلاح أحمد إبراهيم
لك يا أُمّ السلام والتحية

ولـد الشاعـر صـلاح أحمد إبراهيـم في ٢٧ ديسمـبر ١٩٣٣م، بمدينـة أم درمان بالسـودان، تخـرج في كليـة الآداب بجامعـة الخرطـوم عـام ١٩٥٤م، عمـل بالسلـك الدبلوماسـي بـوزارة الخارجيـة السودانيـة، وانتـدب للعمـل في بعثـة الأمم المتحـدة بنيويـورك، له عدة دواوين شعرية «غابـة الأبنوس» و«عضبة الهبباي» وديوان «محاكمة الشاعر للسطان الجائر».

تقلد منصب سفير السودان لدى الجزائر، وترك المنصب مستقيلًا احتجاجًا على سياسة نظام جعفر النميري.

انتقـل إلى باريس وكتب لعدة صحف ومجلات تصدر بفرنسا، كان مناضلًا شرسًا مـن أجل الحقيقة، وقضايا التحرر الوطني والديمقراطية في إفريقيا والعالم، ومدافعًا مستميتًا عن شعب السودان ضد دكتاتورية جعفر النميري، كذلك عمل خبيرًا مستشارًا لدى سفارة دولة قطر بباريس حتى وفاته في ١٧ مايو ١٩٩٣م.

والدتـه هي السيدة عائشة محمـد أحمد فضل وكانت تلقب ب«بنـت الناظر»، لأن والدهـا كان ناظـرًا لأول مدرسة أولية للبنين بمدينة الخرطـوم ولكل السودان، وكانت سيدة متفتحة الذهن راجحة العقل.

يحكي صلاح أحمد إبراهيم إحدى ذكرياته مع والدته قائلًا: (قادتني أمي في وقار وجَلَـد ممسكة بسبحة تستعين بهـا على الصبر الجميل والسلـوان، يقينًا منها أن غير لائـق بها أن تبـدي أمام ربها إلا الرضا والحمد في هـذا الامتحان، يعلمُ العلام وحده،

أيّ حجَـرٍ عصرت به مهجتها، وأية نـيرانٍ حاشتها في حشاها، كي يبدو وجهها على ما بـدأ عليه، وكأنه قُدّ من صُوّان، تنزهًا منهـا أن تشي قسماتها بأقل امتعاضٍ أو ضعفٍ، لأن الله أخـذ منهـا وليدها، همست لي بحنوٍ شديدٍ بمثلما فعلـت مع إخواتي: عال قبّلْ أخـاك قبلة الوداع الأخـير، في الغرفة الموصدة أبوابها ونوافذُهـا كغرفة الموتِ المُعتمة، كان «حسـن» مُسَجّي بطوله على السرير، مغمضًا جفنيه كالنائم، جميلًا ونضرًا بأكثر مما كان عليه حيًا، وعلى محيّاه سكينةٌ مطلقةٌ هي سكينة الموتِ.

انحنيـت ألثم جبينهُ البـارد في تؤدةٍ وتساؤل داخلـي، لم أزدْ ولم أُطِلْ، ثم أخذوني عنـه في الصمت المشبّع بالرهبة، بعدها أدرجـوه الكفن، وحملوه إلى أين لا أدري حيث دُفن، هكذا انقلبتْ الفرحةُ ترحةً، والضوضاء الضاحكة همسًا وخفوتًا وبكاءً مكبوتًا.

كنـت مختونًـا، أتمشّى بلاي، أجر قدمّي جرًّا خُطوة خُطـوة فالجرح جديد، عاريًا إلا من قميص طويل أشده بعيدًا عن وسطي بأطراف أصابعي المخضوبة حنّاء، ورسغي الذي يتدلى منه «الجرتق الأحمر» متماشيًا بالمسابح والقلائد، التي على صدري ببطء شديـد وحذر، بجرحين طازجـين أكبرهُما وأكثرهُما إيلامًا ذلـك الذي في صميمي لا يبرأ قط ما حييت.

وقد ذكر صلاح أحمد إبراهيم والدته في قصيدته نَحْنُ والرَّدى قائلًا:

لك يا أُمّ السلام:

بالخشوع المحضِ والتقديسِ المُقيم

واتّضاعٍ كاملٍ في حضرة الروح السماويّ الكريمْ

التحيات لها.

وبعشقٍ أبديّ عارم ينزفُ من جرحِ أليم

وأمتنانٍ لا يفيه قدرةُ قولٌ ولا فعلٌ حديثًا أو قديم

التحياتُ لها.

ليتَ لي في الجمرِ والنيران وقفة

وأنا أشدو بأشعاري لها

ليت لي في الشوكِ والأحجار والظُلمة زحفة

وأنا أسعى بأشواقي لها

ليت لي في زمهرير الموتِ رجْفة

وأنا ألفظ أنفاسي لها

ليتَ لي من ألم طاغ مَحفّة

وأنا أحملُ قُرباناً لها. وهدية

فأنادي باسمها الحلو بلهفة

لك يا أُمّ السلام.

والتحية

وجبيني في الرّغام

التحياتُ الزكياتُ لها، نفسٌ زكية

رسمُها في القلبِ كالروض الوسيم

صنعتنا من معانيها السنية

وستبقى منبعَ النورِ العظيم

محمد القيسي
الطريق إلى الوالدة

ولـد محمد خليل القيس في قرية كفرعانــة الفلسطينية العام١٩٤٤م، لكنه لم يقم طويــلًا في تلك القرية الغافية على أهداب مدينة يافا، فقد احتضنته وعائلته مخيمات اللاجئـين في الضفــة الغربية بعد نكبــة العام ١٩٤٨م، ثم استقـرت العائلة في الأردن، وقـد درس اللغة العربيــة وآدابها حيث حصل على الشهادة الجامعية الأولى من جامعة بيروت العربية العام ١٩٧١م،

كتب الشعر ونشره مبكرًا، وتنقل بين دول عدة، للعمل حتى أنه وصف بالمُغني الجوال.

توفى محمد القيسي بالأردن أثر سكتة دماغية، دهمته في اليوم الأول من أغسطس العــام ٢٠٠٣م، تــرك وراءه ما يربو عن الخمسة والعشرين كتابًــا شعريًا، مثلت مجمل تجربتــه الشعرية التي بــدأت على صعيد النشر العام ١٩٦٨م، بكتــاب «راية في الريح» ثــم توالى صــدور مجموعات شعريــة ومسرحيات وكتــب أخرى منهــا «خماسية الموت والحيــاة»، و«رياح عزالدين القسّــام»، و«الحداد يليق بحيفا»، و«إنــا لأزهار سارا زعتر لأيتامهــا»، و«اشتعالات عبــد الله وأيامه»، ولا كــم يلزم من موت لنكــون معًا»، و«أغاني المعمورة»، و«أرخبيل المسرات الميتة»، و«كل ما هنالك»، و«كتاب حمدة»، و«عائلة المشاة»، و«صداقة الريح»، و«كتاب الابن»، و«نأي على أيامنا»، وغيرها من العناوين الأخرى.

مثلت أغاني أمــه الفلكورية الحزينة حينًا، والحماسية أحيانًا والتي كانت تلتقطها طفولتــه الرابضة في أحضانها زاده الإبداعي الأول، ومصدره الشعري الذي لا ينضب، فقــد ظل القيسي دائمًا يتذكر تلــك الأغاني الشعبية، ويحــاول محاكاتها شعريًا متكئًا علــى ذاكرته المتخمة، بكل ما هو حي من القسوة والألم تحت هيمنة المحتل الصهيوني،

وكل مـا هو حي من الجمـال والبهاء تحت وطأة الإحساس بالوطـن والأمومة معًا، وقد ظهـرت أطياف تلك الأغـاني الشعبية التي كان يستمع إليها الشاعر، وكان اسم والدته «حمدة» يلمع كنصل سكين حاد في ظلمة الزمن وليالي القصيدة الكالحة السواد.

كانـت ولادة الشاعر قبل النكبـة بأربع سنين ١٩٤٤م، ولمـا كان استشهاد والده قد جـرى في العـام ١٩٤٨م، وهو ابن اربـع، فإن من الطبيعي لابن الرابعـة ألا ينسى ذلك المشهـد، وقد عـاد والده جريحًا والدمُ ينـزف منه بغزارة في «الحوش» وأمه حمدة لا تستطيـع إسعافـه، أو إنقاذه من المـوت الحتمي، وهذا هو ما عانـاهُ في إحدى قصائده المبّكرة، إذ يقول:

ربطت حول إصبعي الخيطان

وقلت: لا. لن يقدر النسيان

أن يسرق الهموم من قصائدي والذاكرة

لأنني مُذ كنت لا أجيد حرفة النسيان

تيّتـم محمد القيسي مبكرًا، وترملت أمه. ولم تتـزوج بعد رحيل والده خليل، وربتّه هو وأخته برموش عينيها حتى كبرا وتزوجا، وعنت من بعد بزوجته وأطفاله، فهو ترّحل وتشرّد وسعى بعيدًا في بلاد العرب.

في كتـاب «حمدة» الذي هو الجزء الأول من «ثلاثية حمدة» استعار المؤلف أسطورة «ممنـون» وأمـه «أورورا»، لكنه عكس الدوار فيها، فبدل أن يموت «ممنون» فتبكيه أمه، ماتـت هي فبكاها ليستردها بالبكاء، أن عكس الأسطورة هو عكس للواقع أيضًا، فرثاء «حمـدة» التي هي «أورورا»، هو في حقيقته رثاء للابـن. رثاء الذات التي توازي مسيحًا رفع ولم يمت وتحول بالمنطلق إلى ابن أبدي تراجيدي.

والحقيقـة أن «مأساة الابن الأبـدي» هي واحدة من المآسـي الأساسية، التي تميز

بهـا تاريـخ الفلسطيني بطريقـة أو بأخرى، لقد تفـكك ثالوثه المقدّس، ولم يعد لديه سـوى صليبه ودمـه، ودرب الأمة الطويـل، ولقد تمكن محمد القيسـي في ثلاثيته هذه مـن الإضاءة، لأعلـى مأساته ومأساة شعبـه فقط، بل على التناظـر العميق أيضًا بين الواقـع والميثولوجـي، ذلـك التناظر الذي ندرك عمقـه حين ننتبـه إلى أن العدو الذي واجهه الابن الميثولوجي هو نفسه العدو الذي يواجهه الابن الواقعي، وأن الأم الأرض في الحالـين واحدة، أن سيرة الفلسطينيين التي تكتبهـا «ثلاثية حمدة» ليست سيرة آلامه ونكساتـه، بل هي سيرة هذا الامتـداد المؤبد في الزمان والمكان، والفكـرة التي تلمع فوقهما كسماء مضاءة.

تعتـبر كتابات محمـد القيسي عن أمه الخالـدة «حمدة» آية في الإبـداع، والوفاء، وآية في القص والحكي، واستعادة زمنية طفولية لاهثًا خلف أمه العظيمة، التي عاركت الزمـن والمحـن والعذاب، وتعالـت رائعة رقيقة وجبّـارة في آن، من أجـل ابنها الوحيد محمد، وبناتها اللواتي عرفن الموت مبكرًا من إملاق وقلة ذات اليد ومرض.

يقـول صديقـه يوسف عبدالعزيز: (في الأول من شهـر آب من العام ٢٠٠٣م، مات القيسـي، وشيعنـاه إلى مقبرة الرصيفة، لنضعـه هناك بجوار قبر أمّـه حمدة، مثلما أوصانا ذات مرّة).

فقـد كتب القيسي لأمه عمـلاً شعريًا لا يضاهيه أي عمل شعـري عن «الأم» في كل الشعر العربي.

الطريق إلى الوالدة:

لاسمك رائحة الحزن والياسمين

ورائحة الأمم البائدة

فهل أتوقف حينًا

وألغي الفراقا
وأعقد مع صمتك الكارثي اتفاقا
ونهوي على شرفات البكاء قليلا
ونجمع أيامنا الشاردة
لاسمك رائحة الموت أيتها المرأة الماردة
فماذا عن الطقس، والحالة الباردة!
تعوّدت.
- لماذا أراك تموتين؟ لا
أنتِ لا يعرف الموت دربًا إليك،
ولكن لماذا أراك تنامين
مكشوفة في العراء
تنامين وحدك كالشاهدة
وكيف تبيعين نفسك للغرباء
وترضين صكّ انتدابك للقبّعات
وللعملة الوافدة؟
وتنسين ابنك في مهرجان البكاء
ولا تمنحين سوى السحنة الجامدة؟
فهل أنتِ ماواي،
هل أنتِ أُمّي التي أرضعتني الحليب،
وأفرحها برق أيامنا الواعدة؟
وما الفائدة

إذا كنت تسقينني الآن، مرّ العذاب
تدعينني نحو كلّ المنافي
وأنتِ على إرثنا قاعدة؟
لمن أقرأ الآن من دفت الجوع،
آخر ما سطر الفقراء
وما جرّع القلب أو كابده؟
وكنت أسير غيابك،
سجلّت أسماء كلّ المقاهي التي رفضتني،
وكل النساء اللواتي عرفت
وأحببت،
خليني للتسكع في حدقات الشوارع،
والمدن الجاحدة
تبارك هذا الشجى والحضور
تبارك هذا البعاد وحذر المرور
تبارك هذا الطريق الجديد إلى الوالدة

إحسان عبدالقدوس
أُمّي صنعت مني هذا الرجل

في مقدمته لكتاب والدته «فاطمة اليوسف»، «ذكريات» كتب إحسان عبدالقدوس:

هذه الذكريات ناقصة. ناقصة إلى حد كبير!

إن والدتي السيدة فاطمة اليوسف لم تحدثنا في هذه الذكريات عن المشكلة الكبرى التي استطاعت وحدها أن تحلها، والتي لايزال المجتمع المصري كله حائرًا أمامها: كيف استطاعت أن تجمع بين جهادها الشاق المضني، الذي بدأته وهي في السابعة من عمرها، وبين واجبها كزوجة وكأم؟!

أنا عن نفسي لا أدري!

لا أدري كيف استطاعت أن تحملني تسعة شهور وهي واقفة على خشبة المسرح، تعتصر الفن من دمها وأعصابها لتكون يومها أعظم ممثلة في الشرق؟

ولا أدري كيف استطاعت أن تطرد عني الموت، الذي طاف بي مرات خلال طفولتي وصباي؟ في حين أنها كانت دائمًا بعيدة عني، تسعى في طريق مجدها.

ولا أدري كيف استطاعت أن تنشئني هذه النشأة، وأن تغرس فيّ هذه المبادئ وهذا العناد، وأن تقودني كطفل وكشاب في مدارج النجاح؟ في حين أني لم ألتق بها قط إلا وفي رأسها مشروع وبين يديها عمل.

كيف استطاعت أن تجمع في شخصها كل هذا؟

وإذا كانت قد استطاعته فكيف تستطيعه أي سيدة أخرى تريد أن تسعى سعيها؟

إنها لم تكن غنية يوم ولدتني ويوم نشأت في رعايتها، ولا كان أب غنيًا. فلم يكن لنا قدرة على استئجار مربية لتعهد بي إليها، ولم تكن الحياة قد سهلت إلى هذا الحد،

الذي نراه الآن لتيسر تربية الأطفال. إنما هي التي صنعتني بيديها، هي التي أرضعتني، وهــي التي أعدت طعامي، وهــي التي بدلت ثيابي، وهي التي قامــت على مرضي، وهي التي وضعتني في فراشي، وهي التي علمتني كيف أخطو، ولقنتني كيف أنطق.

صنعتني بيديها، كما صنعت مجدها بيديها، كل يوم من أيام هذا المجد، وكل حرف فيه، وكل خطوة من خطواتها. هي وحدها صاحبة الفضل فيه، وليس لأحد فضل عليها.

هــي التي التقطت دروس الفن وجعلت مــن نفسها «سارة برنارد الشرق» كما أطلق عليها نقاد ذلك الجيل.

هــي التي دخلت ميدان الصحافة وفي يدها خمســة جنيهات، وأنشأت مجلة تحمل اسمًا يكاد يكون اسمًا أجنبيًا –وهو الاسم الذي اشتهرت به على المسرح– فاستطاعت أن تجعل من هذه المجلة أقوى المجلات نفوذًا في الشرق.

وأن ترســم بهــا مستقبل مصر، واستطاعــت أن تجعل من هذا الاســم الذي يكاد يكون أجنبيًا علمًا يضم تحته كل الكتاب، وأنضج الآراء، ويثير عجبًا في مصر كما يثير الأهرام أو أبو الهول عجبًا بين بني مصر.

وهــي التي لقنت نفسهــا أصول الوطنية والمبادئ السياسيــة، إلى أن استطاعت أن تملــي أدق الآراء، وأن تتنبأ أصدق التنبؤات. وفي تاريخ «روز اليوسف» الطويل، أي منذ ثمانيــة وعشريــن عامًا إلى اليوم، لم يسقط رأي من آرائها، ولم تخطُ مصر خطوة من تاريخها إلا وكانت هي الداعية لها.

وهــي السيدة التــي لا تحمل شهادة مدرسيــة ولا مؤهلًا علميًا، هــي التي أخرجت جيلًا كامــلًا من الكتاب السياسين ومن الصحفيين، وهي التي أرشدت أقلامهم، وهي التي وجهتهم، وهي التي بثت الروح فيهم، وهي التي انتقتهم ورشحتهم لمستقبلهم، ولا تزال إلى اليوم تُخَرِّج منهم فوجًا بعد فوج، وهي السيدة اليتيمة التي واجهت مسئوليات

الحيــاة، وهي في السابعة من عمرها، وهي التي استطاعت يومًا أن تتحدى كل سلطات الدولة: الإنجليز والملك والأحزاب كلها، وتألبوا عليها جميعًا يحاولون هدمها ويحاولون القضــاء على هذه الصفحات الثائـرة التي تحمل اسمها، ولكنهــم لم يستطيعوا إلا أن يجعلوهــا فقيرة أحيانًــا، وأن يسجنوها حينًا، وأن يصادروها عشـرات المرات. وأن... وأن. ولكن الصفحات الثائرة ظلت تصدر دائمًا وبانتظام لم يستطع أحد أن يحني هذا الرأس العنيد القوي، ولم يستطع أحد منهم أن يكون أقوى من هذه الوحيدة اليتيمة السيدة!

كيف حدث هذا؟

أنا عن نفسي لا أدري؟

وكنــت أحيانًا أضع نفسي بعيــدًا عنها وأجرد نفسي من عاطفتي نحوها، ثم أحاول أن أدرسهــا كما يدرسها أي غريب عنها، لعلّني أجد مفتاحًا لشخصيتها، ولعلّني أخرج مــن دراستي بقاعدة عامة لحياتها أطبقها على بنات جنسها. ولكني كنت أخرج دائمًا بمجموعة من المتناقضات لا يمكن أن تجتمع في إنسان واحد.

إنهــا هادئة رقيقة تــكاد تذوب رقة. يحمر وجهها خجلًا إذا مــا سمعت كلمة ثناء. ويــكاد صوتها الناعم الخفيض الرفيع المنغــم يشبه صوت فتاة في الرابعة عشرة. وهي تفضل العزلة، ولها دنيا خاصة تعيش فيها، وليس لها كثير من الأصدقاء الخصوصيين، رجالًا أو نساء، وأغلب من يعرفونها لا تعرفهم، وهي تكره المجتمعات وتكره أن تقيم في بيتهــا حفــلًا، أو مأدبة، بل إنها في بعدها عن النــاس يفوتها كثير من المجاملات، حتى المجاملات التي يتطلبها العمل. وهي بعد كل هذا قلب طيب ينشر الحب والسلام حوله، حتــى تبدو ساذجة تستطيــع أن تضحك عليها بكلمة، ويد سخية تعطي باستمرار وتأبى أن نأخذ نظير ما تعطي.

هــذا وجه من أوجه شخصيتها. وجه تراه في بيتها، وهي واقفة في المطبخ تعد طبق

ورق العنب، كزوجة مثالية ثم تدور بين الغرف ترتب قطع الأثاث، أو تنمق أواني الزهر، أو تراها في مكتبها وكل شيء هادئ من حولها، والعمل يسير في نظامه الرتيب.

وفجـأة يتغير هذا الوجه، فـإذا به أعنف من العاصفـة، وإذا بهذا الصوت الرفيع يرتفع ليزلزل مكاتب المحررين، وعنابر المطبعة من حوله. وإذا بها قوية إلى حد القسوة، جريئة إلى حد التهور، لا تخفي رأيًا صريحًا ولا تصون مصلحة من مصالحها، جريئة إلى حـد أن تقول لكريم ثابت عندما جاءها ليبلغهـا تهنئة فاروق بمرور عام من أعوام مجلتها: (قل لمولاك أني أرفض تهنئته)، وجريئة إلى حد أن تقول لإبراهيم عبد الهادي وهو في سطوة نفوذه: (يا إبراهيم استقل). وجريئة إلى حد أن تتحدى وحدها مظاهرة ضخمة أطلقها الوفد عليها ليحطم دارها.

وإذا بهـا مختلطـة بالنـاس إلى حـد أن تـتردد علـى دور الأحـزاب، وتشترك في الاجتماعات السياسية، وتدعو الزعماء إلى بيتها.

وإذا بهـا قاسية إلى حد أن تطردني من العمل أو تستغنى عن خدمات محرر آخر، ربمـا لم يمضِ على منحه مكافأة أسبوع واحد، وبخيلة إلى حد أن ترفض قرضًا لعامل قد تكون وهبته أمس إعانة من جيبها الخاص،

وتبحـث كل هـذه المتناقضات. فـإذا بها كانت محقة في هدوئهـا، وكانت محقة في ثورتها، وكانت محقة في طيبتها، وكانت محقة في قسوتها، وكانت محقة في كرمها، وإن وكانت محقة في بخلها.

ولكن ما هي الشخصية الواحدة التي تملي عليها كل هذه التصرفات؟

هل يكفي أن نقول أنها ذكية؟

هل يكفي أن نقول إنها قوية؟

هل يكفي أن نقول إنها صادقة الإحساس، وإن تصرفاتها كلها تصدر من هذا الإحساس؟

أنا نفسي لا أدري!

فإذا اقتربت منها وحاولت أن أدرسها بإحساسي كابن لها، ازددت حيرة وواجهتني نفس المتناقضات، فهي أم حنون مرهفة بالعاطفة، إلى حد أنها لا تزال أحيانًا تبكي وهي تقبلني، بل أن عاطفتها تغلبها أحيانًا، فتقبلني أمام زملائي المحررين، وأذوب أنا خجلًا منهم! بل إنها تفرح باليوم الذي أقضيه في بيتها كأنها أم ريفية تستقبل ولدها بعد غياب طويل، وتكاد تشعرني بأنها ابنتي أكثر منها أمي، فأضمها بين ذراعي وأسند رأسها على صدري، وأربت عليها وأغمر جبينها الطاهر بقبلاتي، كأنها طفلة تحتمي بي، ويبلغ من حنانها، أنها –قبل أن أشترك معها في العمل- كانت تخفي عني كل ما يصيبها من نكبات، وحدث أن خسرت كل ما تملك؛ نتيجة حملة اضطهاد سلطته عليها حكومة الوفد، حتى إنها لم تستطع أن تدفع رواتب الخدم والسائق، فتركوها جميعًا وكل منهم يترك دموعه فوق يدها وهو يقبلها. واستطاعت أن تستخلص القليل مما بقى لتضمن للمجلة استمرار ظهورها، ثم مرت أيام لم تكن تجد فيها ثمن الطعام الذي تأكله. وكنت في ذلك الحين أقيم مع أبي، وأتردد عليها كل أسبوع فتعطيني عشرة قروش للذهاب إلى السينما.

وفي وسط هذه الظروف القاسية التي تمر بها، حرصت على أن تعد لي دائمًا هذه العشرة قروش، وهي في حاجة إلى خمسة منها لتأكل بها، كل ذلك حتى لا أدري وحتى لا أشاركها همَّها فيصيبني اليأس قبل أن يشتد ساعدي، وفي خلال الحرب الأخيرة مرت بها أزمة أخرى، واضطرت أن تبيع سيارتها في الوقت الذي كان فيه كل أصحاب الصحف يبنون الثروات. كانت تضطر أن تسير على قدميها كل صباح ساعة كاملة، من بيتها في الزيتونة إلى سراي القبة؛ لتركب الأتوبيس الذي يوصلها إلى مكتبها ثم كانت تقول لي أن الطبيب أوصاها بالسير الطويل محافظة على صحتها! حتى لا أدري ولا أشاركها همَّها.

كل هذا الحنان الذي لا تستطيعه كل أم، كان يقابله قسوة لا أعتقد أيضًا أن كل أم تستطيـع أن تقسو بها على ابنها، فقد طردتني مرة –كما قلت– من العمل، وأنا متزوج وصاحب أولاد أو على الأصح تركتني أخرج من العمل، وظلت عامًا كاملًا لا تخاطبني، وقـد تلتقـي بي فتتجاهلني، وأمد يدي لأقبل يدها فترفضهـا. بل إنها ضربتني يومًا في مكتبي وبين زملائي عقب تخرجي في الجامعة، وهي إلى اليوم لا تزال تقسو أحيانًا عليّ وعلى شقيقتي، ويبلغ من قسوتها إننا لا نعرف لها سببًا ولكننا دائمًا نعرف السبب بعد أن نثوب إلى الطريق الصحيح.

وإني أعـترف بأن هذه القسوة كانت من الأحجار القوية في بنائي، وإعدادي للعمل الذي أقوم به.

لكن كيف تستطيع هذه الأم الحنون إلى هذا الحد، أن تقسو إلى هذا الحد؟

كيف تستطيع أن تجمع بين هذه المتناقضات في شخصية واحدة؟

كيـف نستخلص من هذه الحياة ومن هذه الشخصية قاعدة تتبعها كل سيدة تريد أن يكون لها هذا الجهاد؟

هذا ما كنت أنتظره –مع القراء– مع هذه الذكريات

لكنها ذكريات ناقصة

رغم ذلك فإني أريد من دنياي شيئًا إلا أن يكون لي بعض هذه الذكريات، مستحيل.

فإنها في كل سطر من ذكرياتها تقول: أنا صنعت من نفسي هذه السيدة،

إما أنا فمهما كانت ذكرياتي، فلا أستطيع إلا أن أقول: أُمّي صنعت منّي هذا الرجل.

أنيس منصور

«أمــي، ابنهــا»

هو أنيس محمد منصور، كاتب صحفي وأديب، ولد في قرية بجوار مدينة المنصورة محافظة الدهقلية – مصر في ١٨ آب ١٩٢٤م، ودخل كلية الآداب جامعة القاهرة، قسم الفلسفــة وحصل على ليسانس في كلية الآداب، عمــل أستاذًا في القسم ذاته في جامعة عين شمس، ثم تفرغ للكتابة والعمل الصحفي في مؤسسة أخبار اليوم.

ويعتــبر من الكتاب العرب، فقــد ذكر أنيس منصور قبل سنــوات أن عدد كتبه بلغ مئة وستين كتابًا.

علاقة الرجل الذي شاكس المرأة تارة وهاجمها أخرى، والدته كانت من نوع خاص، فقــد أحبها حبًا شديدًا تعذب معه وشقى بــه، وقال عن حبه لأمه في مقال تحت عنوان «كرهــت الحب»، ضمــه كتابه «وداعًا أيها الملل»: (حب أمــي يعذبني فعلًا، إنها سلبتني أعــز ما أملــك، سلبتني حريتي، إنني أصبحت أشعر بأننــي حارس لابنها الذي هو أنا، بأننــي حاميه، بأنني أمانة في عنقي، بأنني «عُهدة» يجب أن أسلمها إلى صاحبتها وهي والدتي، بأنني يجب أن أصون نفسي، ألا أتعب، ألا أتقلّب في فراشي).

إن حبــي لأمــي جعلني أتحول مــن صاحب مال إلى حارس لهــذا المال، من صاحب عمارة إلى بوّاب إلى خفير، من ابن إلى كلب يحرس هذا الابن،

فأمــي لا تتصــور أبدًا أنني من الممكن أن أمرض أو أتعب أو أتعذب، إنها تحزن في عجز، فكل ما تملك أمي هو بضعة ملايين من الدموع، ومثلها من الدعوات ثلاثة مرات في اليوم.

لقـد كرهت حبي، كرهت حبـي لأمي لأنه يعذبني، لأنه يحرمني متعة المرض، متعة الصـراخ بأعلى صوتي وقـول: أه متعة تبديد نفسي، إهدار صحتـي، ممارسة حريتي، فإنها المرض الغريزي. المرض الذي أوصت به السماء في كل دين.

بكـى أنيسـ منصور أمه بعد وفاتهـا بحرارة، وقال: (كم أحببـت هذه الأم وبكيت ومازلـت أبكـي فراقها فقد دفعتني للتفوق والقراءة، وحفـظ القرآن في طفولتي، كانت أمي وصديقتي في طفولتي وصباي).

وقبـل رحيله بعام واحد انتهـى أنيس منصور من آخر كتاب لـه يحمل اسم «أمي، ابنها» الذي يؤرخ على صفحاته أحداث حياته التي شاركتها أمه، ويصب فيها مشاعره تجـاه مـأواه الأسمـى ورفيقـه الأول، ولكنه لحقها قبل خـروج هذه المذكـرات من بين متعلقاته الشخصية.

وبنـاءً علـى وصيته التـي أوصى بها من علـى فراش الموت، تم دفـن أنيس منصور بجوار والدته بمدافن العائلة بمدينة نصر في العام ٢٠١١م.

مويس كيـن

قميص خاص للأم

اسمه بالكامل هو مويس Bioty كين، مويس كين كما هو معروف شعبيًا ولد في ٢٨ فبراير العام ٢٠٠٠م، إلى والدته إيزابيل ديهي والأب بيوروجان كين في فرشيلي إيطاليا.

على الرغم من أن جنسية مويس كين إيطالية، لكن بالنظر إلى والديه، ستعرف أنه من أصل إفريقي، كلا الوالدين من ساحل العاج.

✍ معجزة الولادة:

اعتـبرت ولادة مويس كين معجزة، حسب والدته: (أخبرني الأطباء أنني لن أنجب أطفالًا آخرين، بكيت وصلّيت عن سماع ذلك، وذلك لأن جيوفاني «شقيق مويس الأكبر» كان وحيـدًا، وسألنـي عن أخ صغـير، ثم في الليلة الماضية حلمـت بطفلي الذي لم يولد بعد، وبَعد أربعة أشهر كنت حاملًا مرة أخرى.

عند ولادته، عينت إيزابيل ابنها مويس وهو اسم مراد في الكتاب المقدس «موسى»، كان هذا بمثابة شهادة على الديانة المسيحية الكاثوليكية للعائلة.

نشـأ مويس كين المولود في الألفية الجديدة في أسرة مـن الطبقة المتوسطة الدنيا، إلى جانب شقيقه جيوفاني الذي يبلغ من العمر سبع سنوات، كان والديه من المهاجرين الذين غادروا ساحل العاج إلى إيطاليا لتسحين حياتهم.

✍ انفصال الآباء:

شهـد مويس كين خلال سنواته الأولى علاقة متناقضة بـين والديه، بدأت المور في الانهيار، وأصبحت حامضة لدرجة أن والد مويس انفصل عن والدته، كان على الفقراء مويس كين ووالدته البقاء على قيد الحياة بأنفسهم، وبالكاد يكون لديهم أي أموال.

أي طفل عانى من تفكك الوالدين لن يعرف سوى الألم العاطفي العميق، والعواقب النفسية الضارة التي يمكن أن تحدثه،

مويس كين هو واحد من بين العديد من لاعبي كرة القدم، وهم «دومينك سولانك، وممفيس ديباي، وغيرهم» الذين عانوا من رؤية والديهم ينهارون في سنواتهم الأولى، مـن الواضـح أن تأثيرات انفصال والديـه كان لها تأثير على حياتـه، والتطورات التي يعاني منها حتى يومنا هذا.

علـى حد سواء نشأ مويس وشقيقه جيوفاني علـى يد والدتهما، التي عملت خادمة بعـد طلاقهـا وهرب زوجها، وكانت امرأة متدينة جـدًا، وكان كل من مويس وجيوفاني من الأطفال الذين يحترمون دائمًا القواعد في المنزل.

حصـل مويس كين في سن مبكرة على اهتمامه بكـرة القدم، وطمح إلى أن يصبح لاعبًا محترفًا، دعم إنترميلان بسبب المهاجم النيجري السابق أوبافيمي مارتينز، كان مويسـ كين في حـب النيجري، لدرجة أنه كان يصرخ باستمرار على أمه للحصول على قميص إنتر ميلان.

بـدأ مويس كـين مشـواره بالتسجيل في النـادي المحلـي لمدينته أستـي، وهو نادي كـرة القـدم الإيطالي الرائد في مدينة أستي الإيطالية، ثـم انتقل إلى نادي تورينو بعد الحصـول علـى الترقية من خـلال الفئات العمريـة في تورينو، شعر كـين بالطموح في الحاجة إلى التقدم أكثر في حياته المهنية.

في العـام ٢٠١٠م، بـدلًا من تجديد عقده مـع تورينو قرر كين مغـادرة النادي، ثم حصل على توقيع من قبل يوفنتوس منافس تورينو في المدينة،

وفي اليـوم الرابـع مـن أغسطس مـن العـام ٢٠١٩م، انتقل مويس كـين إلى نادي إيفرتـون الإنجليـزي، الذي قام بتصميـم قميص خاص لوالدة اللاعـب كين، تقديرًا لدورها الكبير في مسيرته.

أغاني الأُم

تعتبر تعاليم حوريّة هي الأكثر مساسًا لشغاف القلب من قصائد وطنية كثيرة لدرويش:

تعاليم حوريّة

- كلمات: محمود درويش
- غناء: مارسيل خليفة
- حوريّة: هي السيدة حوريّة أحمد والدة الشاعر محمود درويش

فَكَّرت يَومًا بالرحيل، فحطّ حَسُّونٌ على يدها ونام
وكان يكِفي أن أُداعِبَ غُصْنَ داليةٍ على عَجَلِ
لتُدْرك أن كأس نبيذِي امتلأت
ويكفي ًان أنامَ لَيْلَتَها لتحرسَهُ،
ويكفي أن تجيئ رسالةً منّي
لتعرف أن عنواني تغيّر، فوق قَارعَة السجون
وأَن أَيَّامي تُحوِّمُ حَوْلَها، وحيالَهَا

***

أُمّي تَعُدُّ أصابِعِي العشرينَ عن بُعْد،
تمشطني بخصلة شعرها الذهبي،
تبحث في ثيابي الداخلية عن نساءٍ
أجنبيات وترفو جوربي المقطوع
لم أكبر على يدها كما شئنا:
أنا وهي، افترقنا عند منحدر الرخام،

وأوَّحت سُحُبَ لنا، ولماعز يرث المكان،

وأنشأ المنفى لنا لغتين:

دراجة، ليفهمها

الحمامُ ويحفظ الذكرى، وفُصْحى

كي أفسر للظلال ظلالها!

ست الحبايب

- كلمات: حسين السيد
- ألحان: محمد عبدالوهاب
- غناء: فائزة أحمد

ست الحبايب ياحبيبة
يا أغلى من روحي ودمي
يا حنينة وكلك طيبة
يارب يخليك يا أمي
زمان سهرت وتعبت وشلت.
من عمري ليالي ولسه برضه دلوقتي
بتحملي الهم بدالي
أنام وتسهري. وتباتي تفكري
وتصحي من الأدان وتيجي تشقري
تعيشي لي يا حبيبتي يا أمي
ويدوم رضاك
أنا روحي من روحك أنت
وعايشة من سر دعاك
بتحسي بفرحتي قبل الهنا بسنة
وتحسي بشكوتي قبل أحس أنا
يارب يخليك يا أمي،

هُــم وأُمَّهَاتُهم

لو عشت طول عمري أو في جمايلك الغالية عليّ

أجيب منين عمر يكفي

وألاقي فين أغلى هدية

نور عيني ومهجتي وحياتي ودنيتي

لو ترضي تقبليهم.

دول هم هديتي

يارب يخليك يا أمي

ست الحبايب ياحبيبة

أمــي يــا ملاكي

- كلمات: سعيد عقيل
- ألحان: الأخوين رحباني
- غناء: فيروز

أمي يا ملاكي يا حبي الباقي إلى الأبد
ولا تزل يداك أرجوحتي ولا أزل ولد
يرنو إليّ شهر وينطوي ربيع
أمي وأنت زهرٌ في عطره أضيع
وإذ أقول أمي أفتن بي أطير
يرف فوق همّي جناح عندليب
أمي يانبض قلبي نداي أن وجعت
وقبلتي وحبي أمي أن ولعت
عيناك ما عيناك أجمل ما كوكب في الجلد
أمي يا ملاكي يا حبي الباقي إلى الأبد

أمي الحبيبة

• غناء: السيدة فيروز

أمي يا أمي الحبيبة نفح الرياحين والورد
أين ابتساماتك الرطيبة، تسمو بإشراقة الوجود
ولاسم أمي الجميل لحن في القلب أحلى من النسيم
لا وجه قد لاح فيه حسن يرقى إلى وجهها الكريم
هل لي سوى حبك العظيم أحبابه الوعد بالنعيم
روحًا بأرجائه أهيم طفلًا لأحضانه أعود
أمي، وهل لي سوى يديك أرجوهما من
السماء أبوابها تحت راحتيك
أن تسألها يسمع النداء
يا من حلا باسمها النداء
يا من تسامى بها العطاء
إن رمت جودًا من السماء
من غير نعماك لا تجود
ألقاك في نجمة الصباح
في مبسم الزنبق الرطيب
في زرقة البحر. في الأقاح
أمي وفي دمعة الغريب
والشمس تدنو من الغروب
كأنها وجهك الحبيب
يا وجه أمي لا تغيب
أماه أنشودة الخلود

ربـي سألتك باسمهن

- كلمات: رشيد معلوف
- ألحان: الأخوين رحباني
- غناء: السيدة فيروز

ربي سألتك باسمهن
أن تفرش الدنيا لهن
بالورد أن سمحت يداك
وبالنفسج بعدهن
حب الحياة بمنّتين
وحبهن بغير مِنّة
نمشي على أجفانهن
ونهتدي بقلوبهن
فردوسهن وبؤسهن
ببسمة منا وأنّة
سمارنا في غربة الدنيا
وصفوة كل جنــة
ربي سألتك رحمة
وجه السماء ووجهن
فأمسح بأنملك الجراح
وردّ أطراف الأسنة
لتطل شمسك في الصباح
وكل أم مطمئنة،

أجمل الأمهات

- كلمات: محمود درويش
- غناء: مارسيل خليفة

أجمل الأمهات التي انتظرت ابنها.
أجمل الأمهات التي انتظرتهُ وعاد.
عاد مستشهدًا،
فبكت دمعتين ووردة
ولم تنزو في ثياب الحداد
لم تثنه الحرب
لكنَّهُ عادَ
ذابلةٌ بندقيته
ويداه محايدتان،
أجمل الأمهات التي عينها لا تنام
تظل تراقبُ نجمًا يحوم على جثةٍ.
في الظلام،
لن نتراجع عن دمه المتقدّم في الأرض،
لن نتراجع عن حبنا للجبال التي.
شربت روحه
فاكتست شجرًا جاريًا نحو صيف الحقول
صامدون هنا

(صامدون هنا)
قرب هذا الدمار العظيم،
وفي يدنا يلمع الرعب
في يدنا.
في القلب.
غصنُ الوفاء النضير
صامدون هنا
(صامدون هنا)،
باتجاه الجدار الأخير.

غارثيا لوركـا

كـل شيء عن أمـي

فيديريكـو غارثيـا لوركا شاعـر إسبـاني وكاتب مسرحـي ورسام وعـازف بيانو، كمـا كان مؤلفًـا موسيقيًا، ولـد في فوينتي فاغودس بغرناطـة في ٥ يونيو ١٨٩٨ م، وقد عانـى في بداية حياته صعوبـات في النطق والمشي والتكوين، ومـن أهم أعماله (عرس الدم)، و(شاعر في نيويورك)، أعدم من قبل الثوار القوميين وهو في الثامنة والثلاثين مـن عمـره، في بدايات الحـرب الأهليـة الإسبانيـة في ١٩ أغسطس ١٩٣٦ م، والدته اسمهـا بيثنتـا لوركا روميرو، شابة يتيمـة تعود أصول عائلتهـا إلى مدينة لوركا جنوب شـرق إسبانيـا، ستتمكن في أواخر القـرن التاسع عشر، رغم صعوبـة الظروف وضيق الحريـات، من الحصول على دبلـوم في التعليم، لتجد عملًا في قرية فوينتي باكيروس، غـير بعيد عـن غرناطة، حيث كانت تقطن مـع أمها، في تلك القريـة تلتقي بفيديريكو غارثيـا رودريغـث، الذي سيصبح زوجها وهو المزارع المتواضـع، الذي صار مالك ثروة وأرض شاسعة بعد أن ورث زوجته الأولى، ماتيلدا دي بلاثيوس.

مجموعـة «رسائـل بيثنتا إلى ابنهـا فيدريكي» التي صدرت عـن RBA بمناسبة مضي ٧٢ عامًـا على مقتل "لوركا" (١٨٩٨ -١٩٣٦م)، تبـدو فرصة مناسبة للاطلاع علـى العلاقـة الحميمة بين الشاعر الشهير وأمه، هي مراسـلات ١٣ عامًا (بين ١٩٢٠ – ١٩٣٣م)، تـدون فيهـا بيثنتا كثيرًا من التفاصيل عن حياة لـوركا بوضوح وبساطة، لا يخلـوان مـن حساسية أم معجبة بموهبة ابنها، وفضول ربـة بيت لا تزال شخصيتها المستقلة تستظل بالماضي.

كانـت بيثنتـا مولعة بالثقافة والموسيقى، وأول ما ستضعـه من أثاث في بيت العائلة ستكون رفوف الكتب، وبيانو، كانت تحض لوركا وأخاه الأصغر فرانشيسكو، على قراءة فيكتور هوغو، وتقديره، ويتذكر فرانشيسكو أن الأعمال الكاملة للكاتب الفرنسي الكبير كانـت أول ما قـرأه هو ولوركا في طفولتهما، في إحـدى مراسلاته مع كارلوس مارتينث باربيتـو، كتب لـوركا: "كانت قـراءة مسرحية (هيرنـاني) لفيكتور هوغـو واحدة من أعذب ذكريات طفولتي، كانت أمي تقرأها بأسلوب مثير للإعجاب، بينما كنت أشاهد بذهـول الخادمات يبكين، وتلـك الصرخة: "دونيا سول! دونيا سـول"، التي تسمع في الفصل الأخير، تركت تأثيرًا غير قابل للشك في تكويني الحالي ككاتب مسرحي"،

اضطـرت بيثنتا إلى ترك عملها في المدرسة بعـد تزوجها لكنها رغم ذلك "علمت مئات الفلاحين القراءة وكانت تقرأ في الليالي بصوت مرتفع للجميع" كما يعقب لوركا في رسالته إلى باربيتو.

بدرجـة العطـاء نفسها ستساهـم الأم، مع العمة إيزابيل التـي كانت حينها تسكن معهم، في غرس الشغف بالموسيقى مبكرًا في نفس لوركا الطفل.

تـروي بيثنتا لرفائيل مارتينث نادل، صديق ابنهـا: أن لوركا قبل تعلمه النطق كان يدنـدن أغان شعبية، ويفرح ويتحمس لدى سماع عمته تعزف الغيتار وتغني، فيما بعد، ستنقـل بيثنتا إلى أولادها معرفتها واعتنائها بالطقوس الكنائسية، وهي تتغاضى عن الذكـرى الأليمـة التي بقيت تسكنها جـراء ما عانته من خلال سنـوات خمس أمضتها عندمـا كانـت صغـيرة في غرناطـة، في ديـر للبنـات كانت تتـولاه راهبـات فرنسيات ومكسيكيات كُن قاسيات معها هي وزميلاتها.

هكذا سيُفتن لوركا بالشعائر الدينية بفضل أمه،

تحكـي إيزابيل الأخت الصغرى للشاعر، في مذكراتها: "كان فيديريكو معجبًا إلى حدٍ كبير بالطقوس الدينية، فأمي كانـت تشرحها لنا بصورة رائعة، الطقس هو تأدية أدوار مسرحية وغموض، كلمات، مفاتيح سينقلها إلى أعماله فيما بعد، جميعنا يعرف أنه من المذبح يود المسرح".

تتابـع الأم محطـات ابنها طـوال إقامته الطويلة في مدريد، ومن ثـم سكنه المؤقت في نيويـورك البعيدة البـاردة، التي صنعـت لقصائده ذلك الانعطـاف اللامع، تطلب منـه أن يحضر في زياراتـه آخر ما كتبه، معبرة عن شوقهـا "المجنون" للاطلاع على إنجازاتـه، وتقـف إلى جانبه لتخفف عنه بعـد فشل عرض مسرحيتـه "رقية الفراش المؤذية" ،١٩٢٠م ، التي خيبت ردود الفعل عليها لوركا وكسرته، ستتابع بيثنتا عن كثب، كذلـك ولادة ديـوان ابنها الأول، "كتـاب الأشعار" ١٩٢١م، وتـوالى نجاحاته الأدبية وعروض مسرحياته في إسبانيا وخارجها.

في رسائـل أخرى، لا تخفي... على إهماله، في بعضـ الأحيان مراسلتها هي وبقية أفـراد العائلـة، تسأله بجدية أن يكرس بضع دقائق ليكتـب أسطرًا قليلة يخبرهم فيها عن أحواله.

هكـذا تُلتمسـ علاقة الشاعر الحميمـة بأمه، إذ تكشف الرسائـل عن مناخ عائلة أندلسية متحررة، سيقول لوركا إنه محظوظ بكونه أحد أفرادها.

في إحدى المرات ستعرض الأم على ابنها، بالسّر أن يكتب إليها وحدها عن أخباره الأدبيـة، ضامنـة له جهدها الدائـم لإخماد قلق والـده، حيال عدم إكتراثـه بدراسته الجامعيـة، في القسـم الأخـير مـن الرسائل،تُعرج بيثنتـا بحذر شديد علـى الأحداث السياسيـة في البلاد، التي كانـت تتهيأ آنذاك لحرب أهليّة دمويّـة، هكذا ستوصيه في

إحدى المراسلات، بزيارةعائلة أحد أصدقائه الذين أُعتقلوا في أعقاب محاولة انقلاب فاشلة للجمهوريين عام ١٩٣٠م.

مراسلات لـوركا وأمه مساهمة توثيقية من زاوية مختلفة، في بيبلوغرافيا الشاعر والمسرحي الشهير يُرى من خلالها تأثيرها فيه،

السيدة الوقورة ذات الشخصية الباعثة للاحترام، صاحبة دور محوري في مسيرة ابنها الأدبية، دور أدّته بأناةٍ وحنان منذ طفولته، حتى التاسع عشر من آب / أغسطس سنة ١٩٣٦ م، يوم بلغها نبأ مقتله الذي كسر قلبها.

ألكسندر فليمنج
الأم تنقذ مستقبل الأسرة

ولد "فليمنج" في مزرعة "لوشفيلد" بدارفيل، بمقاطعة (آيرشاير) الأسكتلندية في ٦ أغسطس سنة ١٨٨١ م، وكان أصغر إخـوة ثمانية، أنجبهم مزارع أسكتلندي من زوجتـين، خلفـت ثانيتهما الأولى بعد وفاتهـا، وكان ألكسندر بطبيعة هـذا الوضع آخر مـن أنجبتهم هذه الثانية، وقد بلغ من حـب أبيه إياه أنه كان يحرص أن يستبقيه× إلى جواره، وقد راوده الأمل في أن يجعل منه مزارعًا ومربيًا للأغنام مثله.

وآلت شئون المزرعة إلى "هيو" الأخ الأكبر لألكسندر، وكان أخوه الثاني "توماس" قد اتجه إلى دراسة الطب في حياة أبيه، وتخصص في أمراض العيون، ولم تنصب نكبة وفـاة الأب إلا علـى صغار أولاده، إذ لم يكن ثمة مالًا كافًا للإنفاق على تعليمهم، بيد أن القـدر كان قد حباهم بـأم مكافحة، ذات عقليـة عملية وإرادة فولاذيـة، فأقبلت على إدارة المزرعة مع "هيو" وعلى تهيئة حياة طيبة للأسرة التي خلفها زوجها، وكانت أمًا حكيمـة لطيفة، أسبغت على الجميع عطفها ورعايتها، حتى إنها كانت تلاعب الصغار، وتنمـي ميولهم وتعنى بهم، وقد لاحظـت أن أهم ميل لدى "ألكسندر" تمثل في دراسة الطبيعة، فكانت أسعد الساعات لديه، هي تلك التي يسوق فيها الأغنام إلى المراعي الجبلية.

ولكنها كانت تريد له أن يتعلم، فما لبثت أن ألحقته بمدرسة بلدة "دارفيل"، التي كانـت تقع على مسافة أربعة أميال مـن المزرعة، فكان هذا الصبي الصغير يقطع هذه المسافـة مرتـين في الصباح المبكـر، وفي الأصيل سيرًا على قدميـه في الأحوال الجوية كافة، لكنه لم يشك أو يتذمر، بل كان يجد في السير على قدميه متعة وصفها فيما بعد، بقولـه أن المشـي "كان يتيـح لي الفرصة لكي ألتقط كثيرًا مـن المعلومات الطريفة عن الطبيعة ما كنت لألم بها بطريقة أخرى"!

وبعـد أن قضى أربعة أعـوام في "دارفيل" انتقل إلى معهد كليمارنوك، حيث مكث عامـين آخرين، وقد اضطر في سبيل ذلك إلى الإقامة في "كليمارنوك"، فلم يعد يرى المزرعـة ولا الأهل إلا في العطلات الأسبوعية، وفي هذا المعهد الذي تعلم فيه قبله فريق من نوابغ الشعر والأدب في إنجلترا. مثل "روبرت بيرنر" و"روبرت لويس ستيفنسون" أبـدى "ألكسنـدر" من التفوق ما حـدا× بأمه إلى أن تقرر إيفـاده×، حيث بلغ الرابعة عشـر من عمـره إلى لنـدن، ليستكمـل الدراسة في معهـد العلوم التطبيقيـة في شارع "ريجنت" وتخرج بعد سنتين.

ثـم درس الطـب حيث ظفـر ببكالريوس الطـب، وبكالريوس العلوم مـن جامعة لنـدن، مع درجة الشرف في خمسة موضوعات، ومُنـح "الميدالية الذهبية" التي كانت مخصصـة لأحسـن طالـب في اثنتا عشـر مدرسة طبيـة في لندن، ذلك هـو ألكسندر فليمنـج الـذي اكتشف عقـار "البنسلـين" السحري، والـذي أصبح أهـم عقار تمس الحاجة بالدنيا إليه، وبدأ فليمنج يحظى بالتقدير والمجد، فعين في سنة ١٩٤٣م زميلًا في الجمعيـة الملكية ببريطانيـا، وأنعم عليه في العام التالي بلقب "سير" كما كوفئ مع الدكتورين فلوري وتشين بجائزة نوبل في سنة ١٩٤٥م.

ولقـد انهالت عليه مظاهـر التكريم: فعين زميـلًا ورئيسًا في كثـير من الجمعيات العلميـة، وانتخـب مديرًا لجامعـة إدنبرة، ومنح حريـة مدينة (بادينجتـون)، وحرية (شيلزيـا) التـي كان يقيـم فيها منـذ سنة ١٩٢١م. وبلـدة (دارفيل) التـي تلقى فيها دراستـه وهو صغير، كما كرمته مدينة (فيرونـا) الإيطالية، ومدينة (أثينا) وعدد من المدن اليونانية، بل ومنح لقب (الزعيم الفخري) لإحدى قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

د، هـ، لورنس
ابــن المــرأة!

الأديب الذي صادرت إنجلترا كتابه المشهور "عشيق الليدي تشارلي" بدعوى أنه (أدب مكشوف)! ثم عادت فسمحت بتداوله، ورفعته إلى القمة، بل مجّدت مؤلفه، حين فهمت دعوته على حقيقتها، على إنها حملة ضد النفاق والرجعية، ودعوة إلى أن يكون الأدب مرآة النفس البشرية، مرآة واقعية صافية، لا مرآة زائفة، مقعرة أو محدبة، مثل مرايا "لونابارك"!

إن أدب (د، هـ، لورنس) لهو خير حجة يرد بها على القائلين، في مجال المناظرة والجدل بأن الأدب ترف لا جدوى منه!

فلقد استطاع هذا الأديب العظيم أن يجعل من مأساته الخاصة –الجنسية- عظة لبني البشر، وعبرة للأمهات اللواتي يدفعهن الجهل والأنانية، إلى التعلق بأبنائهن تعلقًا يبلغ درجة (المرض) الذي يتلف شخصيتهم، ويفسد حياتهم، ويقوض سعادتهم!

وفي سبيل إنقاذ أبناء الأجيال القادمة من هذا المصير الأليم، كشف (لورنس) حياته الخاصة للملأ، في صراحة "نبيلة"، بلغت درجة التضحية بالسمعة، وبكرامة الرجولة، بل بلغت درجة "الاستشهاد"!

ولد لورنس في اليوم الحادي عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٨٥ م في "إيستوود" بمقاطعة "نوتنجهام شاير"، وكان الولد الرابع لأب يعمل في مناجم الفحم، ولأم برجوازية تكدح هي الأخرى من أجل أسرتها الصغيرة، وكان والده صورة مجسمة للإنسان "الحيوان"، بالمعنى الصالح، والمعنى الطالح، لهذه الكلمة! فقد كان مشبوب الغرائز، سريع الاحتداد، يألف الإهمال في كل شيء، ولا يفقه معنى المسئولية كوالد

ورب أسـرة، فهو لا يحيـا إلا للحظة التي يعيش فيها، ولا يمد أنظاره إلى أبعد من أرنبة أنفـه! وبجانـب هذا كله كان رجـلًا كذوبًا، يحـب أن يجعل من حياته كلهـا "أكذوبة" كبيرة ترضي فيه غريزة السخرية بكل شيء، والاستهانة بجميع القيم!

أما الأم فكانت رقيقة ذكية، صافية النفس تقدر المسئولية، التي ألقتها أعباء البيت والأمومة على كاهلهـا، خطورتها وقدسيتها، وكانت إلى جانب هذا كله شجاعة النفس كريمـة، صابـرة، وفي قصة (أبناء وعشـاق) نجد لورنس يحـاول، في جهد صادق، أن يعقـد مقارنـة عادلة بين أبيه وأمه، لكنه انتهى إلى أن هـذه المقارنة أو الموازنة أمر من الصعب تحقيقه، على النحو الذي يرضي الحقيقة الفنية عنده، ويرضي ضميره كابن! فمـع كل ما لاقت الأسرة على يد الوالد من ويلات، كان لورنس أميل في هذه القصة أن يلتمس لوالده بعض الأعذار، وأن لم يستطع ذلك بالنسبة لأمه، التي بدأ في ثنايا قصته أن يحملهـا جانبًـا من اللوم على مـا آل إليه حال "رب الأسرة" مـن انحلال وضياع، جرّت الأسرة إلى هوتها الرهيبة بلادة الأب، وعناد الأم!

يقـول لورنس في هذه القصــة: "أن المأساة كل المأساة هـي أن طباعها -أي الأم- كانـت تبـدو على النقيض تمامًا من طباع الزوج، ولم تكن قادرة على أن ترضى أو تقنع بأن تكون على وفاق -ولو وهمي- مع شخصية الزوج على علاتها، ذلك أنها كانت تود له -صادقة مخلصة- أن يكون أعظم مما كان! ومن أجل أن تخلق منه إنسانًا أنبل خلالًا وأسمـى نفسًا نسيـت إمكانياته، وحدود شخصيته، وما يستطيـع وما لا يستطيع! فكان أن أضاعته وحطمته، وتركت المعركة في نفسها جراحًا غائرة لم تندمل بقية أيام حياتها!"

"والحق أنها لم تحطمه وحده، ولا أساءت إلى نفسها بما فعلت فحسب، بل حطمت أيضًـا في محاولتهـا تلـك أولادهـا! وللأسف أنها لم تكـن معتديـة ولا متجنية في هذه المحاولـة، من جانبها حاولـت أن تجعل من زوجها المتبلد رجـلًا يفهم معنى المسئولية،

ويضطلـع بتبعاتـه نحـو أسرته، بـل أنها عدت ذلـك واجبًـا ضروريًا يقتضـي وضعها كزوجـة وأم، أن تؤديـه نحو زوجها الـذي لا يريد أن يفهمها سواء لأجـل نفسه، أو من أجـل أولادهما التعساء، ولا شك أنها لو كانت أقـل قسوة عليه، وأقرب إلى فهمه، وإلى التجـاوب مع بعض النواحـي الطيبة فيه، لعانت أقل مما عانت من متاعب وآلام، ولكن بناء الأسرة عندئذ كان أن ينقض من أساسه على رأس الجميع!"

ومـع ذلك، لم يملك لورنس في قصة "فانتازيا" إلا أن يعود إلى مقاييس العدل في نفسه، فيحمل والده تبعة ما حدث، أو الجانب الأكبر من التبعة، تاركًا للزوجة الجانب الباقـي، فلـم تملـك الأم إلا أن تنسحب من الميـدان، وتنفصل عن الـزوج! وقد وقعت مأساة الانفصال هذه، ولورنس في طريقه إلى الدنيا، ولم تكن الأم في محنتها القاسية تتمنـى أن تكتحـل عيناها برؤية هـذا الجنين، الذي كان يتحـرك في أحشائها وقت أن عقـدت أمرها على أن تحيا منفصلة عن جـو المأساة، ومن ثم لم تفرح لمجيئه إلى دنيا العـذاب والآلام، كما فرحت من قبل لمجـيء أخويه، حيث لم تكن قد بلغت أمور الأسرة من التعقيد والسوء ما بلغته قبيل مولده هو.

ولكن بعد أن جاء، بعد أن صافحت آذان الدنيا صرخته الأولى، ماذا كان شعورهما نحوه؟ هل تبدل؟ هل تلون بلون نفسي جديد؟ هل أملت أن تعيش لهدف جديد عزيز؟

إن لورنـس يقص ذلـك أيضًا في نفس قصته "أبناء وعشـاق"، فلنستمع إليه وهو يصـف بأسلوبه اللماح عن مشاعر الأم في تلك اللحظات القاسية الرحيمة معًا: "وبين ذراعيهـا، وعلى وسادة صدرهـا الخانق، كان يرقد الطفل الضئيـل الرقيق، أن عينيه الزرقاوتـين العميقتـين، كانتا دائمتي التطلـع، في فضول الطفولة العـذب، إلى وجهها الشاحب وعينيها الجامدتين اللتين لا يختلج لهما جفن".

إنـه في تطلعه الحالم يحاول أن يتشف من عينيها أسرار نفسها المعذبة، ويستخرج

مــن أعمق أعماقها كل ما يعــترك هنالك من خواطر وأفكار وأحزان، إنها لم تعد تحب بطبيعة الحال زوجها الذي نفضّت يديها من أمره إلى الأبد.

ثم هي لم تكن تريد هذا الطفل الذي يدري بعد من سر المأساة شيئًا، مع ذلك فها هو ذا راقد في سلام جميل بين ذراعيها الحانيتين، وكأن وصلة سحرية تشدّه إلى قلبها بروابط خفية لا تنفصم.

إنها تحس كأن هذا "الحبل السري"، الذي كان يربط هذا الجسم الضئيل النحيل بجسمها، لم ينقطع بعد! وبين الفينة والفينة، تلفحها موجة حارة دافقة من حب متوحد يزيــد صلتهــا بطفلها، فلا تملــك في استجابتهــا اللاشعورية لهــا إلا أن تلصق بوجهه الصغير وجهها، وبصدره الضئيل صدرها، وهي تجتذبه إليها في ضغطة حنون ولهانة، إنهــا موزعة النفســ بين حبها لهذا الوليد الاعب× بين أحضانهــا في براءة واستسلام، وبين خشيتها الدائمة عليه من دنيا هي في الغدر أفعى، لها في كل يوم إهاب وناب. ولكن حبهــا له يزداد على مر الأيام، بل الساعات، بل اللحظات، حتى لتحلق في جو بعيد عن هــذه الدنيا، وتحس أنها تحملــه معها على أجنحة حبها المسحــورة، لتكون على الدوام معــه ويكون على الدوام معهــا. كل منهما لاصق بالآخر، لا يغيــب طرفة عين عنه، إنها لتنظــر إلى عينيه الصافيتين الذكيتين، فتحس أنهما تشعان مع بريق الطفولة الحالم، بــالألم والخوف. ترى أيحس هذا الرضيــع بآلامها الدفينة التي تنهش صدرها؟ هل في نظــرة هذا الطفــل لوم أو عتاب؟ إنها حيث يسرح بها الخيال، وتطوح بها الخواطر إلى مرمى بعيد، تحس مع ذلك أن نخاع عظامها يذوب مع وطأئة الخوف والألم، وقد يكون هــذا الوصف العميق البليغ من قبيل الخيال الروائــي الممتع، ولكنه خيال واقعي صادق كل الصــدق، بحيــث يجوز لنــا أن نثق فيه ونطمئن إليه، إذ لا بــد أن عناصر كثيرة من الحقيقــة، الحقيقة القاسية المرة التي عاشها لورنس الطفل، ولورنس الصبي المراهق.

قــد انعكست على أسلوب تفكيره الروائي، وطريقة ربطه للحوادث و"العقدة". أن حب أمه التعسة، هذا الحب اليتيم المخنوق، الذي لم يجد من يعاطفه، بعد أن أخفق زواجها وتحطـم حلـم سعادتها كزوجة، قـد انبعث مرة أخـرى في قوة مشبوبة، هـي أضعاف أضعـاف قوته الأولى، انبعـث في صدرها وقلبها وجوارحها جميعًـا، ليتركز في عاطفة جارفة ملتهبة، تحسها نحو شخص حبيب عزيز، هو شخص ابنها "دايفيد" هذا.

وقـد انفعـل الطفل، والفتى، والشـاب والرجل فيما بعد ـ بإشاعـات هذه العاطفة، واستجـاب لها بـكل نابضة فيه، وبادل أمـه حبًا جارفًا بحبٍ جـارف، لكنه دفع الثمن الرهيـب من ذوبان روحه وأعصابه ودمه، فقـد غدا الفتى حساسًا مفرط الحساسية، بعـد أن نمت حواسه وطباعـه في ظل هذا الجو الدافئ الحـالم، الغني بعواطف أمومة محبة حانية، أسرفت في حبها إلى مدى جاوز أي حد معقول! على أن حساسيته البالغة هذه قد قوّت فيه.

قدرته علـى التجربة، التجربة الحساسة العميقة الواعية، بنفس النسبة التي قوّت بها ميله على الانطواء على نفسه والهروب منها حالمًا، يحس أن التجربة ستكون قاسية عليــه، في غير ما جدوى! على أن لورنس الـذي اكتوى× حتى قراراته بلهب المأساة التي عاشت فيها أمه، عاش أيضًا ينقل في وعيه الباطن –عن أبيه– حقيقة أخرى رهيبة هي حقيقة إلحاده وتجديفه وكفرانه المر بالقيم الإنسانية والسماوية جميعًا! فلقد كان هذا الرجل العجيب، في كل أفكاره وتصرفاته، صورة "ممسوخة".

وعندمـا كان في السابعة من عمره، كانـت تعذبه فكرة انتظامه لأول مرة في حياته الأولى، فيحسّ هذا الفنان أن ثمة ضربًا من "الصدمة الخفية" لحسه تهز كل الأشياء، مـن كل شـيء يلتقـي به في طريـق حياته لأول مرة، ففـي هذا اللقـاء في سلك مدرسة مـن المدارس كانت تعذبه عذابًـا قاسيًا، وتكاد تعصف برأسه فكـرة عفنة لهذه القيم

الإنسانية العليا التي ترمز لها كلمة "أب"! صورة عاشت في خيال لورنس الصبي، وفي ذهن لورنس الأديب، الشاعر، القصاص. بل لورنس الفيلسوف حيث يسلط على الحياة والأحياء والوجود، نظرات ثاقبات متمهلات. فأراد أن يعكس تلك الصورة في ألوان فنه الصريح المكشوف، يستعد لها من ناحية الشكل أسماء أشخاص رمزيين، ومن ناحية الموضوع النابض الحي حقائق وتجارب ومشاعر، عاشها هو، وانفعل بكل وهجها ولهبها، ونفضها على الصفحات، في أشعاره وقصصه، صرخات وانتفاضات ستعيش مدوية في الآذان، ما عاش على وجه الأرض هذا الجنس الإنساني العريق، الذي يزداد تهجمه للحقائق بقدر ما تزداد الصراحة والمرارة فيها!

وماتت أمه، وهو في السادسة والعشرين من عمره، فما الذي يذكره لها؟ بماذا ودعها، وماذا كانت أفكاره وخواطره في تلك الفترة؟ وهل كان يحبها حقًا، حبًا أفقده أثمن الأشياء: حريته واستقلاله كرجل؟

وكيف عاشت هي في خياله بعد موتها الذي سلبه منها وسلبها منه؟!

إن الواقع المر الذي عاشه لورنس بعد وفاتها يكشف لنا حقيقة مشاعره، دون أن يحوجنا الأمر إلى تفسير أو إيضاح ننتظرهما منه، لقد كانت مشاعره مشاعر رجل تحرر فجأة من قيده، فالموت وحده -موتها- حطم وثاقه ليطلق من القمقم× "إنسانًا" آخر، غير ذلك الذي عرفه -هو نفسه- في طفولته وصباه ومطلع شبابه.

ولكن هل خرج بنفسه وبقلبه "سليمين"؟ نعم، ولا! فقد خرج بهما سالمين لغرض الشعر ومواصلة الكتابة فحسب، لكنهما لم يكونا سليمين كقلب، ونفس لرجل يريد أن يحيا الحياة على مألوف ما يحيا الناس حياتهم، فثمة رواسب كئيبة ومريرة، من ذكريات النشأة الأولى جعلت تظلل بالسواد هذه النفس الشاعرة، وتغلق بالضباب الحالك هذا القلب الحساس، ولم تلبث هذه الرواسب والظلال أن انعكست على

خواطره، التي أرسلها في شعره يلهث من فرط عذابه وحريته، ترنم وعيه الباطن به في أعقاب الشهر الذي رحلت فيه أمه.

لكنه في الوقت الذي يخص فيه ذكراها باللوعة والإعزاز، لكنه لا يستطيع أن ينسى -على الأيام- أن أمومتها كانت من نوع شاذ رهيب، استنزفه واستهلك من عمره خير سنواته طرا! أن شذوذ هذه "الأمومة" قد جنى عليه، إذ ابتلاه بشذوذ الطباع، وغرابة الأطوار، وسوداوية المزاج حتى مات! إنه في بداية الأمر يبكيها أحر بكاء ويسمعها -من وراء القبر- صدى فجيعته فيها، وولولة قلبه الذي ناح عليها بهذه الأبيات:

ها هنا تحت هذه الثرى، ترقد "حبيبتي"،

ووجهها المعبر ما زال شاخصًا إليّ يناديني!

وشفتاها، يا إلهي! ما زالتا متشبستين .

بتلك القبلة الطويلة، الأخيرة.

التي أنهت على إثر حياتها، هذه الحياة.

التي ارتبطت أبدًا بحياتي،

أصيب لورنس بنزلة صدرية حادة لفظ على إرثها أنفاسه الأخيرة، كان ذلك في ليلة الثاني من شهر مارس عام ١٩٣٠م.

توماس أديسون
اكتشف الحقيقة بعد سنوات من موتها

ولد توماس أديسون في يوم ١١ شباط / فبراير من العام ١٨٤٧م، في مدينة ميلانو الواقعة في ولاية أوهايو، حيث كان الطفل السابع والأخير لعائلته.

عندما بدأ بالنمو لاحظ أبويه عليه أنه يكثر من طرح الأسئلة، وكان يحب تجريب كل ما هو جديد، ويحب أن يعرف كل شيء من حوله، ورأى البعض أن تصرفاته كانت جنونية بالنسبة لعمره.

في عمر السبع سنوات أصيب أديسون بالحمى القرمزية، التي تسببت فيما بعد بفقدان سمعه تدريجيًا، كانت التركيبة النفسية والمثابرة لوالدة هذا العالم عاملًا أساسيًا في تشكيل قدراته الابتكارية، التي أفاد بها البشرية فيما بعد في أحد الأيام، عندما كان أديسون في الثامنة من عمره، عاد من المدرسة إلى البيت وهو يشعر بالأسف، لأن معلمه كلفه بتسليم مذكرة إلى والديه -قرأتها أمه- نانسي إليوت (١٨١٠- ١٨٧١م)، أمام نظرات ابنها المترقبة لمحتوى المذكرة، سألها قائلًا: "ماذا كتبوا في الرسالة يا أمي؟"، بدموع في عينيها قرأت نانسي لابنها محتويات تلك الرسالة المقتضبة:

-«أن ابنك عبقري، والمدرسة صغيرة عليه وعلى قدراته، عليك أن تعلميه في البيت!»

عانقت نانسي توماس وأخبرته ألا يقلق، وأنها من تلك اللحظة ستهتم بتعليمها بنفسها، وهذا ما حدث فعلًا، بدأت والدة أديسون تعليمه في البيت، وبدأت بتثقيفه وتشجيعه، فساعدته على مطالعة تاريخ الرومان واليونان وقاموس العلوم، كما درسته الكتاب المقدس، والتاريخ الإنجليزي، ونيوتن وروايات شكسبير وقصة حياة العالم

الإيطـالي جاليلـو، وكانت أمه هـي صديقته ودنياه كلها، ولم تمـتْ إلا بعد أن رأته ينير هذا العالم بمصابيحه.

بعـد وفاتها بسنـوات كان توماس أديسون يبحث في أغراضهـا، فعثر على الرسالة التي أعطته إياه إدارة المدرسة ليوصلها إلى أمه، فإذا مكتوب فيها:

السيدة أديسون، تحية وبعد

إن ابنـك غبـي جدًا اعتبارًا من صبـاح الغد لن نسمح له بالحضـور إلى المدرسة، أعذرينا!

وقتهـا فقط عرف توماس لماذا بكت أمه في ذلك اليـوم! بكى أديسون بمرارة، بعد ما قرأ الكلمات الحقيقية في المذكرة، ولاحقًا، كتب في مذكراته: "توماس ألفا أديسون، كان طفلًا مريضًا عقليًا، ولكن بفضل أم بطلة أصبح عبقري القرن".

لقـد كان أديسـون صنيعة أمه، آمنت بـه، وجعلته مشروع عمرهـا، بذرته في تربة الجد، وسقته ماء الاهتمام، فحصدته واحدًا من أشهر مخترعي العالم!

لم يكتسـب أديسون من أمه القراءة والكتابة ومهـارات التفكير فقط، لقد اكتسب طبعها الشرس في المقاومة وعـدم الاستسلام، لهذا قبل أن يخترع المصباح الكهربائي كان قـد جرب ألف طريقة فاشلة، ولكنه قال عن تجربته هذه: "أنا لم أفشل ألف مرة، لقد اكتشفت ألف طريقة لا يمكن اختراع مصباح كهربائي من خلالها".

بلــزاك
الرجل صنيعة أمّــه

«الرجل صنيعة أمّه، والبيوت بلا أمهات صالحات قبور»

أونوريه دي بلزاك

يقــال بأن الكاتــب الأنثروبولوجي كلود ليفي ستروس قــرأ رواياته أربعين مرة دون أي كلل أو ملل!

فمن هو هذا الكاتب الذي لا يتردد البعض عن وصفه بأنه أكبر محلل للكوميديا البشرية؟

ولــد هنري دو بلزاك، وهذا هو اسمه الكامل، في مدينة تور الواقعة على نهر اللوار وســط فرنسا، في واحدة مــن أجمل المناطق ذات الطبيعة الساحــرة، والقصور الملكية الشهيرة، كان ذلك في العشرين من شهر مايو/ آيار عام ١٦٩٩م، وهذا يعني أنه ولد في آخر عام من القرن الثامن عشر، وقبل بضعة أشهر من قيام نابليون بونابرت بانقلابه الشهير، الذي أدّى إلى إغلاق مرحلة الثورة الفرنسية، وبداية عهد إمبراطوري جديد بقيادته.

وكان الولــد البكر لعائلــة تجسد الطفرة النوعيــة والاجتماعية، التــي طرأت على فرنسا في ظل الثورة الفرنسية والنظام الإمبراطوري البونابارتي.

فوالــده كان في البداية مــن أصل فلّاحي، وكان سيبقى فلاحًــا إلى أبد الدهر لولا حدوث الثورة الفرنسية، التي قضت على الاقطاع والارستقراطية، وأتاحت للفلاحين أو لبعضهم أن يصبحوا برجوازيين، ويحلوا محل الطبقات العليا التي كانت مسيطرة سابقًا.

ثم تزوج والده متأخرًا، وهو في الخمسين من بنت أحد التجار الباريسيين الأثرياء، وعندئــذ ارتفعــت قيمته أكــثر، واستطــاع أن يمحو آثــار أصوله الفلاحيــة المتواضعة، لكــي يلتحق بركب الطبقــة الصاعدة آنــذاك: أيّ طبقة البورجوازيــة، ثم عرف والده

بذكائه ودهائه كيف يصبح تاجرًا يقدم المعونة لجيوش نابليون، قبل أن يلتحق بالإدارة العسكرية ويصبح موظفًا محترمًا.

ليس غريبًا إذًا أن الروائي قد وصف في روايته هذه الانقلابات الاجتماعية، التي طرأت على فرنسا في أثناء الانتقال من العهد الملكي القديم أي العهد الثوري، أو الجمهوري الجديد.

فالكوميديا البشرية التي أعلنها بونابرت مليئة بالشخصيات التي تشبه والده. إنها شخصيات انتهازية طموحة، عرفت كيف تصعد السلم الاجتماعي لكي تصعد في المراتب، وتنسى أصولها الأولى التي لم تعد تليق بها، يكفي أن تقرأ رواية «يوجيني غرانديه» أو «الأب غوريو» لكي نتأكد من ذلك، وبالتالي فبلزاك وصف في رواياته قصة حياة عائلته الشخصية في الواقع، ولكن من خلال التحدث عن عائلات أخرى من صنع الخيال.

وهنا تكمن عبقرية العمل الروائي الذي يصهر الخاص بالعام، ويخلق عالمًا آخر موازيًا لعالم الواقع، وبعيدًا عنه في الوقت ذاته.

والآن نطرح السؤال: ما العقدة النفسية التي صنعت بلزاك؟

من المعلوم أن كل كاتب عبقري يعاني عقدة ما، وكل ذي عاهة جبار، فلولا العمى لما تفجرت عبقرية عميد الأدب العربي طه حسين بمثل هذا الشكل، والأمر ذاته عند أبي العلاء المعري، أما بيتهوفن فقد كان أطرش، وأما دوستيوفيسكي فكان مصابًا بالصرع وقس على ذلك، لقد عانى بلزاك في طفولته من إهمال أمه له، وعدم محبتها له، لقد شعر بنقص عاطفي كبير، ولم يعرف معنى حب الأمومة الضروري لأي طفل، لكي ينمو وينشأ بطريقة طبيعية، والواقع أن عائلته وضعته منذ سنه الأولى في مدرسة خاصة لكي يبقى بعيدًا عن البيت.

في العـادة كانت الأمهات في العائـلات البرجوازيات يزرن أطفالهن من وقت لآخر في المدارس، لكن أم بلزاك لم تكن تشعر بالحاجة إلى زيارة طفلها إلا نادرًا.

شعـر الطفـل عندئذٍ أنـه مهجور من قبل أعـز الناس إليه، لماذا فعلـت أمه ذلك؟ لأنهـا بحسـب ما تقـول الروايات الموثوقة، كانـت واقعة في غرام شـاب أصغر سنًا من زوجها بكثير، وقد حملت منه وأنجبت ولدًا خلعت عليه كل حبها، ونسيت ابنها الشرعي بلـزاك، فبلزاك لم يولد عن حب على عكس اخيه غـير الشرعي، والغريب في الأمر أن الطفل الذي حظى برعاية أمه ومحبتها إلى أقصى حد ممكن أصبح فيما بعد شخصًا تافهًـا لا معنـى له، هذا في حين أن بلزاك الذي حُرم من عطف الأمومة وحنانها أصبح أكبر روائي في تاريخ فرنسا، والتالي تنطبق على بلزاك مقولة التحليل النفسي الشهير لفرويـد، وهـي أن الإبـداع تعويض عن نقص أو عقـدة نقص عميقة تعـود إلى مرحلة الطفولة الأولى، لماذا كانت ريلكة× ذو طبيعة قلقة، بل جنونية إلى أقصى الحدود؟ ومع ذلك فهذا لم يمنعه من أن يصبح أكبر شاعر ألماني في القرن العشرين.

الواقـع أن بلزاك حُرم من حنان العائلـة طيلة السنوات اللأولى من طفولته، حيث وضعـوه عند المرضة، لأن أمه رفضـت الاهتمام به كما ذكرنا، ثم نقلوه بعدئذٍ وهو في الثامنة إلى مدرسة الرهبان اليسوعيين، وهناك عاش ست سنوات في ظل نظام قاسٍ، وتعرض للقمع والتخويف، بل وحتى الضرب من قبل رجال الدين المتزمتين المتشددين.

وعندمـا خرج مـن المدرسة بعد ست سنـوات وجدته عائلته هزيـلًا ضعيفًا خائفًا كالشبح، وبدأ وكأنه طفل غبي لم يتعلم شيئًا، وعندئذٍ شعرت أمه بمدى الإجحاف الذي لحـق به، وحاولت مواساته قليلًا، ولكن بعد فـوات الأوان، لقد صور بلزاك مطولًا هذه الطفولة الشقية في اثنين من رواياته الخالدة، وهما «لويس لامبيرو» و«زنابق في الوادي»، ولا تزال هاتان الروايتان تقرآن حتى الآن من قبل أجيال متلاحقة من الفرنسيين.

عندما عاد بلزاك إلى مدينة «تور» اهتمت به أخته «لورا» الأصغر منه بسنة واحدة أو سنتـين، وعوضتـه عن فقدان حنـان الأم، ولذلك أصبحت الأثـيرة لديه من بين كل أفـراد العائلة، وسيكتب لها الرسائل بالعشرات والمئـات، وسيكتبها بدموع حرى× عند موتها المفاجئ بعد الزواج غير الموفق، هنا أيضًا ينبغي أن نتوقف قليلًا ونقول: المصائب والمحن تصنع الكتاب الكبار، لا يوجد كاتب له معنى إلا ووراءه مصائب عدة لا مصيبة واحـدة، أما أبنـاء العائلات والسهولة والـثروة فنادرًا ما أن يصبحـوا شيئًا له معنى، وبعدئـذٍ انتقلـت العائلـة إلي؛ لأن أعمال والـده تدهورت بسبب سقـوط نابليون وعودة النظـام الملكـي إلى الحكم في فرنسا، وما كان والده بقادر علـى قلب سترته بين عشية وضحاهـا، لكي يصبح من أنصـار النظام الجديد، لأن النـاس في مدينة تور يعرفونه ويعرفـون ولاءه لنابلوين، فانتقـل إلى باريس، حيث لا يعرفه أحـد، وحيث يستطيع أن يقدم ولاءه للنظام الجديد، لكي يستطيع الاستمرار في العيش، وكسب الرزق.

وهكـذا كان، وعندئـذٍ دخل بلـزاك إلى مدارس العاصمة وتخـرج فيها ، ثم قررت العائلة أن يدخل ابنها إلى كلية الحقوق لكي يصبح كاتب عدل، ويكسب عيشه بسهولة، ووافـق بلـزاك على الأمر، لكنه قـال لهم: أريـد أن أتفرغ للكتابة! وجـن جنون العائلة مـن هذا الخبر، ففـي ذلك الوقت ما كان أحـد من الكتاب يستطيـع العيش من قلمه، كانـت مهنة الكتابة تقود إلى الفقر المدقع، والبؤس المادي المؤكد، وقديمًا قالت العرب: أدركتنا حرفة الأدب.

لكـن العائلـة وافقت بعدئذٍ علـى مضض، وهـذا شيء مستغرب مـن طرف عائلة برجوازيـة لا تؤمن إلا بالعمـل المأجور والمضمون والربح والإدخـار، وكل القيم القائمة علـى تجميع المـال والتباهي به، وعندئذٍ كتب بلـزاك رسالة إلى أختـه: لا أرغب إلا في شيئين: الحب والمجد، وحتى الآن لم أشبع لا من هذا ولا من ذاك.

في ذلـك الوقـت، أي عـام ١٨٢٢م، لم يكن أي كاتب فرنسي يعيشـ من قلمه، بمن فيهـم الكبار مـن أمثال شاتو بريان وفكتـور هوغو، كان معظم الكتـاب إما أنهم ورثوا ثـروة عن عائلاتهم تكفيهم مدى حياتهم، وتجعلهم قادريـن على التفرغ للكتابة، وإما أنهـم كانوا يحظون براتب شهري من الملك، ينبغي العلـم بأن شاتو بريان كان سفيرًا، وألفريـد دو فيني ضابطًا في الجيش الفرنسـي، وفيكتور هوغو مقربًا من الملك ويستلم راتبًا شهريًا، ولذلك استطاع التفرغ للكتابة والإبداع.

أمـا بلزاك فلم يكن يحظى بأي شيء من هـذا القبيل، ومع ذلك فقد استطاع بعد أن اشتهـر وكتـب أعظـم الروايات أن يعيش مـن قلمه في نهاية المطـاف، ولكن بعد أن وصـل إلى الشهـرة والمجد والحب وحقق كل أمانيه غدر بـه الزمان، وانطبق عليه المثل العربـي «توقـع زوالًا إذا قيل تم» فقد سقط صريع المرض، بعـد أن كان قد اشترى للتو بيتًـا جميلًا في باريس، وتزوج بالمرأة التي يحبهـا بعد سنوات طويلة، لكن لم يتح له أن يهنأ أو يستمتع بكل ذلك، فمات بعد احتضار طويل وصعب، وهو في الواحدة والخمسين من عمره، وقد رثاه فيكتور هوغو في أثناء الدفن في المقبرة.

شارلي شابلن
أمي التي أطلقت عبقريتي

ولـد شارلي شابلـن في السادس عشر من أبريل سنــة ١٨٨٩م، في الشارع الشرقي بحـي والورث بلندن، أشد مناطق لندن فقرًا وبؤسًـا لأب يدعى تشارلز سبنسر شابلن يعمل في جوقة موسيقية، وأم تدعى هانا شابلن كانت تعرف باسم ليلى هارلي تعمل في مسرح متواضع بلندن.

ارتبط شابلن بأمه ارتباطًا روحيًا فاق ارتباطه بأبيه كثيرًا، حيث تكشف الصفحات الأولى مــن مذكراتــه عن سطور دلت عن هــذا الارتباط عندما يقــول عنها: «مخلوقة لطيفة تقارب الثلاثين من العمر مع بشرة صافية، وعينين زرقاوين بنفسجيتين، وشعر كستنائــي طويل يمكنها الجلوس فوقه، وقيل لي فيما بعد ممن سبــق أن عرفوها إنها كانت رقيقة وساحــرة، وأن الفتنة كانت تفيض منها، كانت تناضل ضد ظروف معيشة صعبة ومريعة في ذلك العصر الفيكتوري».

لكــن الأمر يختلف عندما تطالعنا كلماته الأولى عــن والده: «أما أبي فبالكاد كنت أعرف أن لي أبدًا وأنا لا أتذكر أنها عاش معنا يومًا ما، هو أيضًا كان ممثلًا في مسرح المنوعــات، رجل صامت وكئيب، عيناه قائمتان. كانت أمه تقول أنه يشبهه نابليون، كان لديه صوت باريتــون خفيف، وكان الناس يعتبرونه فنانًا مرموقًا، ولكن المأساة أنه كان مدمنًا على الشرب، وذلك كان السبب وراء الانفصال بينه وبين أمي حسبما × كانت تقول».

ويضيــق في موقــع آخر من سيرتــه أنه التقى والــده مرتين، قبــل أن يقيم معه بعد إصابــة أمــه بالجنون: (المــرة الأولى على المســرح، والثانية عندمــا كان يجتاز حديقة منزل مع إحــدى السيدات فاقتربت منه، ولما سألني عن اسمي أجبت متصنعًا البراءة (شارلي شابلن) فأعطاني نصف كورون×).

ورغـم أن تشـارلي عاش مع أمه ويـلات الفقر، التي سببها انفصـال والده عنها، لكنـه لم يضمر لـه الكراهية، ولم يذكـره بسوء في مذكراته، وتكشـف المصادمات بين شابلـن وأخيه غير الشقيـق سيدني من زوجة الأب، من ناحية أخـرى أن والدهما كان ينتصر لهما ويساندهما، فشابلن لم يخف إعجابه به حتى وأن رجحت كفة أمه، وتمثل هـذا الإعجاب عندما يصرح بوضوح: «كان يسحرني، فخـلال الطعام كنت أراقب كل حركاتـه وطريقته في الأكل، وفي الإمساك بسكينـه لقطع اللحم كما لو كانت قلم حبر، وبقيـت أقلـده على مدى سنـوات»، وأصيبت أم شـارلي شابلن بالجنـون، وأرسلت إلى مـأوى المجانين في كاين هيل، وقررت المحكمـة أن يتولى أبوه رعايته وإخوته، نعم عاش شابلن مع أمه بعد الانفصال عن أبيه، وعانى معها ويلات الفقر والحاجة، وكانت تبيع أغراضهـا لسد الرمق، عاشـ حياة قاسية مع أمه وأخيه سيـدني، وصلت حد الإملاق الشديد الذي ترك آثار ظلت تلاحقه وتثير فيه الشجون والألم.

ربما كان الشيء الوحيد الذي اتفق عليه والدا شابلن بعد انفصالهما هو دفع الابن ناحيـة الفن وتدعيمه، فلـن ينسيا في ذروة القطيعة هوسهما الفني، الذي لمحا إشارات واضحة له في طفلها الصغير.

لقـد ساهمـت الأم بالنصيـب الأكبر في إعـداده، ولكن الأب رغـم المسافات التي أبعـدت بينه وبـين شابلن ساهـم في الوقوف بجانبـه، عندما اقترح علـى أمه إلحاقه بفرقـة فنانين لانكشير الثمانية Eight Lancashire Lads التي كان يريدها مسـتر جاكسون صديق والده، الذي نجـح في إقناع مطلقته بانضمـام شارلي شابلن، مدعمًـا بمبرراته بأن ما سيحصل عليه سيكـون عونًا لها في مواجهة متطلبات الحياة، شارحًا مزايا أخرى تتمثل في الإقامة والطعام، وافقت الأم بعد إجراء مقابلة مع مستر جاكسون، الذي أخبرها بأن الأجر سيكون نصف كورن × أسبوعيًا وأنه سيهتم به.

تأثـر شــارلي شابلن بعد ذلك بشخوص ديكنز الروائي العظيـم، ووجد فيها ثراء جعله يقوم بمحاكاتها، وفطن مستر جاكسون لذلك، وقام بدفعه إلى المسرح لتقديمها، وللأسـف قوبلـت بالفشل من قبل الجمهور، وماتت المحاولـة في يوم ولادتها ولم ييأس، وحملـت معظم مشاهد شابلن السينمائية خصائص ديكنزية، وقطعت نوبة ربو قاسية خيط الأحلام من الامتداد بعد أن أصيب به شابلن، وتبخرت أحلام العودة مرة أخرى، للفرقـة فعاد يعاني البؤس والشقاء ليصبح شابلن يتيم الأب فقير الحال، وألحقت أمه بالمستشفى واسودت الدنيا أمام عينيه، ليبدأ رحلة التسكع والتشرد، وعمل خادمًا وبقي وحيـدًا يتصعلـك في ضواحي لندن، باحثًا عن العمل أو بعض لقيمات يسد بها جوعه، حتـى عمل في فرقة مسرحية ثم في سيرك؛ لتقديم فقرات تمثيلية لكسب قوته، وتأليف استكشافـات تمثيلية، ومع تزايد ليالي العرض كانت شعبية شابلن تزيد يومًا بعد يوم، واستجابـت السمـاء لدعوات شارلي بغرض الذهاب إلى أمـيركا، فالحلم يبدأ هناك، فاكتشـف أن للجمهور الأميركـي مزاجًا خاصًا يتفق مع إيقـاع الحياة السريعة هناك، فهضـم المجتمـع الأميركـي وحقق نجاحًــا ليعود ثانيــة إلى إنجلترا بشخصيــة شارلو الصعلوك، والمتشرد واستطاع أن يديرها بحرفية عالية، وبدأت العجلة تدور، وتتنقل إلى أماكـن أكثر رحابة وتوهجًا، واصطفت الجماهير هنا وهناك يلوحون بأياديهم لمعجزة الزمــان، الذي أصبح ملء الأسماع وتوالت نجاحاتـه، وعاش حياة المشاهير بانطلاقة سينمائية شهدت ٣٤ فيلمًا في عام ١٩١٤م، ساهمت في انتشاره وصقل موهبته، وأصبح معلمًــا من معالم هوليوود، وطافت شهرته كل أرجاء الكون، وسيحل أجره رقمًا قياسيًا لم يقـترب مـن نجم، وهــو الأمر الذي جعـل سيدة تتـبرع بعشرين ألـف دولار آنذاك للصليـب الأحمر، لتحصل علـى مقعد بالقرب منه في عشاء خـيري، وقد تبنى شابلن موقفًــا مؤيدًا للفلسطينيــين ضد الكيان اليهودي، وضد الحضــارة البريطانية القائمة

على الاحتلال، وعلى ما فعلوه في فلسطين من عار تحكي عنه البشرية مدى الحياة.

وفي ديسمبر سنة ١٩٧٧م توقف قلبه ليستريح للأبد.

في أحـدث كتـاب للطبيب النفسـي المعروف الدكتـور "ستيفن وايزمـان" قال أن مصـدر الحزن الحقيقـي لشابلن لم يكـن لفقدان والـده فقط بل في فقدانـه لوالدته بالدرجـة الأولى، لأن الذي فقده في "هانـا×" لا يعوض، وقد زعم وايزمان أن "هانا" ونتيجـة للفقر الذي عانت منه عملت كمومس× في شبابها، وتحملت نتيجة ذلك عواقب مأساويـة علـى المدى البعيـد، وقد أصيبت بالزهـري وهو مرض لا يمكـن الشفاء منه بسهولـة في أواخر القرن التاسع عشر، وأدى إلى جنونها كما يشهد ذلك شابلن نفسه، عندما كان في التاسعة عشر من العمر، ولم يكن قادرًا على نسيانها.

شابلـين في سيرته الذاتية الخاصة التي نشرت عـام ١٩٦٤ م، كان قد ضم فصلًا مؤثرًا عن عذابات طفولته في جنوب لندن، حيث نسب أن الاضمحلال العقلي لوالدته، والسجن لاحقًا ناتج عن سوء التغذية، لأنها حرمت على نفسها الكثير من المواد الغذائية مـن أجل إطعام أطفالها، وهناك الكثير من التفاصيل لم يكشف عنها في سيرته، وكما يقـول شابلين يخجل عن ذكرها، ونتيجـة لذلك حاولت الابنة الكـبرى لشابلين الممثلة المشهورة "جيرالديـن" أن تحظر نشر السيرة، وذلك لم تضمنته من تفاصيل محزنة لحيـاة جدتها، ولكنها أدركت أن المعلومـات الجديدة التي اكتشفها وايزمان من شأنها أن تلقي الضوء على مصدر لا يقدر بثمن لعبقرية شارلي شابلن.

"هانـا" ابنة الاسـكافي المنحدرة من أصول غجرية قالت عـن نفسها: أنها هربت مـن المنزل لتعمل في إحدى المسارح باسم فيكتوريـا، فتعرفت على شارلي شابلين الأب وهـو نجل جـزار ، فعاشت معه قصة حـب وكان كلاهما يلعبـان أدوار هزيلة في بعض الأوبـرات الشعبية، شارلي الأب كان دائمًا حالمًـا مسحورًا حتى أن "هانا" كانت تقول

عنه أنه يشبه الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت، بينما كنت أحلم أن أكون جوزفين زوجتــه، لكــن بعد ثلاث سنوات تخلــت عنه لأنه لا يزال مراهقــًا حسب زعمها، ولاذت بالفــرار إلى جنوب إفريقيا مع عاشــق آخر هو "سيدني هوكس" محتال إدعى أنه من الطبقــة الأرستقراطيــة الغنية، ولــه أراض شاسعة هناك، لكنــه في الحقيقة كما يقول وايزمان كان قوادًا يقود الفتيات إلى تلك البلاد الإفريقية المستعمرة من قبل بريطانيا آنذاك، وخاصة أنها مزدهرة× بمناجم الذهب، ويجبر العديد من أمثالها من الفتيات البسيطــات للعمــل في الدعــارة، وقاعــات الرقص خدمة لعمــال المناجــم المتعطشين للجنــس، فكانــت الحيــاة بين الباحثــين عن الحظ الذيــن هرعوا إلى تلــك البقعة من الشراب الممزوج بالذهب، مقصدًا لفتيات عديدات من جميع أنحاء العالم، إلا أن تلك الحياة كانت صعبة وخطيرة لا ترحم.

"هانــا" بعد أن جربــت تلك الحياة القاسية عادت إلى موطنها إنكلترا عام ١٨٨٤ م، بعد أن فاض بها الكيل، باحثة في الوقت نفسه عن حبيبها القديم شابلن الأب، الذي التقت به مرة ثانية، وعمل معًا على المسرح في لندن، وما أن حلّ العام ١٨٨٦م إلا وكانا قــد تزوجا، وبعد مضي ثلاث سنوات ولد عبقــري الكوميديا شارلي شابلن، الذي ورث عــن والدته الفانتازيــا ووالده القوة الدافعة لفنه، ولكنه عشــق والدته فكان يقول عنها أنها لذيــذة وجميلة بعيون ساحرة، وشعر يتوهج بألــوان الشمس عند الأصيل، ويتذكر أدوارهــا باعتزاز علــى المسرح بملابسها المخملية، وكيف كانــت تجسد مشاهد خيالية لواحــدة من بطلات القرن السابع عشر "جوين" عشيقة "تشارلز الثاني" لكنها ومع كل ذلك الحب الذي يكنه لها شابلن الابن لم تكن زوجة وفية كما كان يقول، إذ سرعان مــا تركــت والده مرة أخرى مع شخصــ أكثر شهرة هو "ليو درايــدن" بعد أن أنجبت ابنــًا ثالثــًا، "هانا" لديها الآن ثلاثــة أولاد من ثلاثة رجال، وبعــد أنا هجرها درايدن

اضطـرت لقبول وظائف صغيرة في المسارح؛ لإطعـام طفليها حتى أنها باعت ملابسها لدفـع إيجار الشقة، التي كانت تسكنهـا، وتفاقمت عليها الأمراض حتى داهمها صداع نصفـي سبب لها العمى المؤقت، رافقته هلوسات مرعبة واستمر حالها هذا قرابة شهر كامل، جعل من المستحيل بالنسبة لها الاعتناء بهؤلاء الفتيان فنقلتهم إلى ملجأ للأيتام، ولما تعافت عادت إليهم لتأخذهم من ذلك الملجأ، الذي قال عنه شارلي إنه يكرهه أشد الكـره، لكنه لاحظ تغيرًا قد طرأ علـى والدته، فبدت أكثر هدوءًا وكياسة عن ذي قبل، فعكفـت علـى قراءة الكتاب المقدس في محاولة منها على محـو ذنوبها، وتناولها للدين كمخـرج من أمراضها واعتلال صحتها، شارلي بطبيعة الحال لم تكن لديه فكرة، وهو في السابعـة مـن عمره عن هذه المرحلة المهمة التي تمر بها والدته، ووفقًا لكاتب سيرته الذاتيـة فقد حاولـت "هانا" أن تخفي سـر مرضها، الذي كشفتـه السجلات الطبية المعاصـرة حيـث تم في عام ١٨٩٨م تشخيص حالتها على أنـه "السفلس"، تصاحبه نوبات من شرود الذهن خاصة في مرحلته الثالثة كما تؤكد هذه السجلات.

وايزمـان قال إن الزهري من شأنه أيضًا أن يكون قد سبب لها صداعًا رهيبًا، لأنه هـو أيضًا من أعراض المرض، ولأن "هانـا" تركت نفسها دون علاج، فإن هذا المرض مـن شأنه أن يحدث خسائـر كبيرة لديها، إلا أنها ناضلت من أجـل أطفالها، وأرسلت رسالـة إلى شارلي الأب تبلغه بحالها فأحس بتقصـيره، وخصص لها ولأولادها غرفة علويـة رخيصة، بجوار المسلخ في لنـدن كيننجتون، هذا إلى جانب شارلي الشاب الذي كان يساهم في دخل الأسرة عن طريق ما كان يقدمه من أعمال.

غـي، دي، موباسـان
غـرام أُمِّــه بالأدب

كان سيـد الأقصوصة والرواية القصيرة الواقعتين في الأدب الفرنسي، عاش حياة قصـيرة جـدًا، لكنها مكنته من أن يعرف ويقرر، أن العمل الفني لا يكون متفوقًا إلا إذا كان في الوقـت نفســه رمزًا وتعبـيرًا صحيحًا عن حقيقة، فارق الحيـاة التي لم تتجاوز سنواتـه فيها الثلاثة والأربعين عامًا، إلا أنه تمكن من إثارة الكثير من الجدل خلالها، ومـن أن يمنح الأدب والبشريـة أروع القصص، التي ترجمـت إلى العديد من اللغات، وازدانت بها كبرى مكتبات العالم، التي حققت له في حياته الكثير من الشهرة.

✍ من هو موباسان؟

هـو ذلـك الصغير الذي احتضـن العالم يوم مولـده في العـام ١٨٥٠ م في منطقة النورماندي الفرنسية، لأب ينتمي لأسرة أرستقراطية وأم من عامة الشعب.

إلا أنــه لم ينشأ في مناخ عائلي يتميز بالاستقرار، فقد انعكست عليه على حد كبير منــذ الصغر الخلافات الدائمة بـين أمه وأبيه، وقد ظهر هذا فيما بعد في كتاباته التي كانت عدائية بطريقة ملحوظة تجاه الحياة الأرستقراطية، بينما تميل إلى التعاطف مع الفقراء والمنبوذين في المجتمع.

وعندمـا بلـغ السادسة من عمـره، انتقلت الأسـرة إلى القصر الأبيض "شاتون بلان" بالقرب من قرية (أتريتا)، وهو أول مكان وعته ذاكرته، وأشار إليه في كثير من قصصــه، وفي هذه الفترة بدأت العلاقة الزوجية بـين والديه تتزعزع بسبب مغامرات الأب النسائيــة، وقد بدأ الصغير الذكي يلحظ ذلـك، ولم يكن الأمر يخلو من تعليقاته السليطـة التي ترضي والدتـه، ومن الأمثلة الطريفة على ذلك أنــه بينما كانت الأسرة

تقضـي الشتـاء في باريـس كتـب الصبـي إلى والدته يقـول: "كنـت الأول في الإنشاء، ووعدتنـي المعلمة بأن تكافئني، ثم أخذتنـا إلى السيرك ومعنا والدي، ويبدو أنها كانت تكافئه كذلك على شيء لا أعرفه!"

وعندنـا بلغ الثالثة عشـر من عمره، وقع له حادث غير نظرتـه للحياة، وقد وصفه بقوله: "كان يومًا عاصفًا لا أنساه، يوم كنت ألعب في أحد المتنزهات، فشاهدت والدايّ آتيان من بعيـد، وتقدمت نحوهما أسترق الخطى كي أفاجئهما. لكن الفزع سمرني في مـكاني، وأنـا أسمع أبي يصيـح بوالدتي: إنني في حاجة إلى نقـود، وأريدك أن توقعي، فأجابته والدتي قائلة في حدة: لن أوقع فهذه نقودي ×× وسوف أحتفظ له بها، ولا أحب أن أراك تبعثرهـا على الخادمات، ونساءك الأخريات بنفس الطريقة، التي بعثرت بها أموالك، وكان أبي يرتعد بالغضب كقصبة في الهواء، فاستدار وأطبق على عنق والدتي، ثم أخذ يضربها على وجهها، وعبثًا حاولت أن تدرأ ضرباته المتلاحقة المحمومة، وكأنه جُـن جنونـه فصار يضرب ويضـرب حتى هوت علـى الأرض، وهي تخفـي وجهها بين ذراعيهـا، وعندئـذٍ لوى ذراعها وعاد يضربهـا مرة أخرى، وخُيّـل إلي أن نهاية العالم قـد حلت، وأن القوانين والشرائع الخالدة قـد تبدلت وتغيرت، ومنذ ذلك اليوم اختلف كل شيء في عيني، ولمحت الجانب الآخر من الأشياء، الجانب السيء، ولم أر منذ ذلك الحـين للجانب الآخر أثرًا! ويبدو بجلاء أن هذا الحادث الذي حُفر في ذهن موباسان قـد انعكس على رواياته القصصية. فقصصه واقعية وكثيرًا ما تعكس موقفه التهكمي اللاذع المتشائم تجاه الناس، وتعاطفه الجلي مع الفقراء والمنبوذين في المجتمع،

✍ غرام أُمّه بالأدب:

كمـا أسلفنا فقـد كان أبـوه أرستقراطيًا بالنشأة، فهـو سليل أسـرة أرستقراطية أفلست، وأمه كانت من العامة، لكنها كانت تعيش على أمل أن يعيد ابنها تشكيل حياتها،

بعـد أن فقدت أخيهـا الذي كانت تطمح لأن يكـون أديبًا مشهـورًا، كان شقيقها يدعى ألفريـدو كان مغرمًا بدراسـة الأدب والفلسفة، وقد تذوقـت الآداب القديمة والحديثة على يديه، وعلى يد صديق له من كبار الأدباء وهو غوستاف فلوبير.

وبعـد رحيل أخيها المفاجئ، كانـت تراسل فلوبير، الذي حصـل على سمعة سيئة، ومجـد أدبي خالد بعـد أن اضطهدت قصته (مدام بوفـاري) سنة ١٨٥٧م، وقد كتبت إليـه قائلـة: "لي طفلان أحبهما مـن كل قلبي وروحي، وآمل أن يمنحـاني أيامًا أهنأ× وأسعـد، أصغرهما ليس أكثر مـن مزارع صغير، بادئي× الغبـاء، وأكبرهما شاب جاد في الخامسـة عشـرة، رأى وأدرك أشياء كثيرة فنضج قبل سنه، وسوف يذكرك ألفريد الـذي يشبهـه في أمور كثـيرة، حتى في حبـه للأدب، ولذلـك فأنا واثقة أنـك ستحبه، "لقـد كانت أمه تريـد أن يعوضها ابنها عن أخيها الذي فقدتـه، خاصة أنه يشبهه في الشـكل والاهتمام بالأدب، وكانت تريد لابنها أن يكون أديبًا شهيرًا، لذلك دفعته دفعًا! إلى الدراسـة، لكنـه كان يميـل إلى حياة اللهو، فـكان يهرب ويذهـب إلى التسكع على شاطئ البحر مخالطًا الصيادين والبحارة، أو في السهول مشاركًا الفلاحين مباهجهم وحلقات سمرهم.

كانت أمه قد ألحقته بالكنيسة، وأخذت تقرأ له مسرحيات شكسبير، ولما بلغ الثالثة عشر، وحان وقت تلقي المزيد من التعليم، أرسلته إلى معهد ديني، حيث كانت "الموضة" وقتها هي إرسال أبناء النبلاء والأرستقراطيين إلى مثل ذلك المعهد، الذي تتميز نظمه بصرامة "إسبرطة" ورقَّة "أثينا"، لكن حين × طرد من المعهد لسوء سلوكه في نهاية السنـة السابقـة لتقدمه لإمتحان البكالوريا، فقـررت الأم إلحاقه بمدرسة في "روان" ومـا أن حصل على البكالوريا، وبـدأ يتلقى دروسه في القانون، التحق بقسم الإمدادات بالجيش الفرنسي، وكان يقضي أوقات فراغه في القراءة وكتابة القصائد الغزلية.

ثـم انتقل إلى باريـس والتحق بوظيفة كتابية بسيطـة في إدارة المستخدمين بوزارة التربيـة والتعليـم، وعاش في باريـس وحيدًا يقرأ ويكتـب ويتسكع في الشـوارع ليلًا، أو يذهـب إلى نهر السين الذي يذكره بالبحر النورمندي، وقال في ذلك: "لقد كبرت على شواطئ بحر الشمال الرمادي والبارد".

✍ عرابه إلى عالم الأدب:

و جـاءت اللحظة الفارقة عندمـا تعرف موباسان إلى فلوبير، هـذا الكاتب الذائع الصيـت، الذي كان يُعرف بأنه أشد الرجال عزلة في أوروبا كلها، ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن الأقدار كانت تخطط لجمعهم معًا، فقد كان فلوبير يبحث عن حواري مخلص، وكان جـي الـذي انحاز للأدب تمامًا، يبحث هو الآخر عـن معلم محنك يقود خطاه في عـالم الأدب المعقد، حتى أنـه ظل سبع سنوات يذهب إليه أيـام الأحد حاملًا قصائده وقصصـه ومسرحياتـه، ولم يتخلّ فلوبير عن موباسان على الإطـلاق، ليس فقط بناء علـى تنفيذ رغبة والدتـه ولمن، لأنه وجد في موهبة حقيقية جديـرة بالرعاية، كما رأى موباسـان في فلوبـير ضالته التـي كان يبحث عنها، فاتخذه معلمًـا خاصًا له، بعد ذلك تعـرف موباسان إلى الأديـب الكبير أميل زولا، الذي كتب عنه يقول: "عرفت موباسان في صالـون فلوبير الأدبـي حوالي سنة ١٨٧٤ م، بعد تخرجـه مباشرة من الكلية، وكان يتردد على أستاذه كل أسبوع مرة، ليقرأ له ما كتب فيصحح له فلوبير عباراته، ويسدد خطاه"، وفي هذه الفترة أصدر موباسان قصته (كرة الشحم) تلا ذلك صدور الديوان الوحيد له في عام ١٨٨٠ م، وأهداه إلى أستاذه فلوبير، الذي توفى بالسكتة القلبية بعد صدور الديوان بما يقرب من أسبوعين، مما أدى إلى شعور موباسان بالحزن الشديد.

عاش موباسـان ليكتب حتى انهالت أعمالـه على الساحة الأدبيـة، وازداد إنتاجه الأدبـي، حتـى أن موباسان ترك للمكتبة العالمية عقب وفاتـه إرثًا أدبيًا هائلًا، ومتنوعًا

مـا بين القصة القصيرة التي أبدع فيها، وروايات وأشعار، وهنالك ما يقرب من مئتين وخمسـين قصة قصـيرة، وست روايات، وديـوان شعر، ومن أشهرهـا (حياة امرأة)، (الصديقـة الجميلة)، (بيير وجان)، (إيفيـت)، (الغوريلا)، (مس هارييت)، (كرة الشحـم)، (العقـد الماسـي)، (المظلـة)، (قطعة الخيـط)، (ضوء القمـر)، (تاريخ الأزمنة القديمة)، (رحلة إلى الجزائر).

وقبـل أن يغادر عالمنا بعد رحلة قصيرة مـن السنوات، بدأ يعاني المرض لفترة من الزمـن، وقاده مرضه إلى الجنون، كان واضحًا تمامًا أن إرهاصات موت مبدع مدهش قـد بـدأت بالفعل، وليس غريبًا أن يكون أول من يشهد بهـذا هو المبدع العبقري نفسه، كمـا يتضـح مـن رسائله في هذه الفـترة، أما الآخـرون فقد تأكد هـذا عندهم بعد أن نقـل إلى باريس في قميص المجانين، ولم تقو أمه على زيارتـه؛ خشية أن تنهار عندما تـراه في هذا الحال، وكل يـوم يمر كانت حالته تزداد سـوءًا، إلى أن وافته المنية يوم ٦ مـن يوليـو ١٩٨٣ م، ليرحـل عن هذه الدنيا كاتـب كان قد شغل مكانـة كبيرة في قلوب الفرنسيين، وظلت الصحف ترثيه وتشيد بمؤلفاته، رحل إذًا جي دي موباسان بطريقة مؤثـرة كقصصه - بعـد أن قاسى من المرض الشرس الذي ألقـاه في عالم الجنون ثم أسلمه ببرود إلى الموت.

بعد وفاتـه مباشرة قال عنه الكاتب الكبير إميل زولا الذي شهد وفاته: "لقد تقبل القـراء كل ما كتبـه، إذ أشبع كل الطاقات الفكرية، والأحاسيـس الإنسانية، وتجسدت الموهبـة، التـي لم تتخل أبدًا عـن أقل قدر مـن سموّها، ومع ذلك كانـت تستحوذ على إعجاب وتعاطف جمهور القراء على الفور".

آرثر شوبنهاور
صـراع دائـم مع الأم

آرثور شوبنهاور ١٧٨٨ – ١٨٦٠م فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية، فما يراه في الحياة فما هو إلا شر مطلق، كان ولا يزال فيلسوفًا من الطراز الخاص، وأهم كتبه (العالم كإرادة وفكرة)، كان يعيش الطفل الصغير شوبنهاور مع أمه، وكانت الأم أديبة مشهورة، وفي يوم من الأيام أخبرها أحد العرافين بأن ابنها سيكون له شهرة كبيرة ومكانة عالية، كان ينبغي للأم أن تفرح بابنها، لكن لم يحدث هذا فقد خشيت الأم على شهرتها، ورأت أنه لا توجد شهرتان في أسرة واحدة.

كانت دائمة الغيرة من ابنها إلى أن حدثت تلك الواقعة، التي لا تقبلها غريزة الأمومة، لقد حاولت الأم التخلص من الفتى الصغير، الذي لم يتجاوز العشر سنوات، فقد قذفته من أعلى السلم في ذلك البيت، الذي غاب عنه حنان الأم، لكن هذا الطفل الصغير قال تلك الكلمة التي تؤكد أنه سوف يصبح ذا مكانة وشهرة، قال لأمه: مهما فعلتِ فلن يذكرك التاريخ إلا أنك كنت أم شوبنهاور.

كان شوبنهاور يحب والده كثيرًا وكان متعلقًا به، وفي مراهقته سقط والده من أعلى السطح في محاولة للانتحار، وترك فيه إعاقة، وكانت والدته عديمة الاهتمام بهما، بل كانت مشغولة بفساتينها وعشاقها ولياليها الحمراء، مهملة زوجها المسكين الوحيد وابنها الصغير!

يقول آرثر شوبنهاور: "كانت أمي تقيم السهرات في المنزل، فيما كان والدي غارقًا في الوحدة، وكانت تتسلى فيها هو × يقاوم المعاناة غير المحتملة"، ولما مات

والــده ترك ذلك أثرًا عميقًا في نفسه وولــد انتقامًا من أمه وكرهًا للعالم ومن فيه، ولّد في نفسيته التشاؤم الأسود والإلحاد.

كتـب شـوبنهاور في مذكراتـه : "تتأرجح الحياة كساعـة الحائط، من اليمين إلى الشمـال، مـن الألم إلى الضجر"، كما أن محيطـه العائلي لم يساعده على تحقيق السعـادة، فقد أدخل عمـاه إلى مصحة الأمراض النفسية، وعلـى الرغم من أن والده كان ناجحًـا في أعمالـه، إلا أنـه كان شديد الغضـب والتوتر، مات سنــة ١٨٠٦ م، بعد سقوطه من أعلى البيت، ولا يعرف إذا كان الأمر مجرد حادثة أم عملية انتحار، والدته (جوهنا) وعلى الرغم من كونها روائية ناجحة، إلا أنها لم تكن تختلف عن باقي أفراد العائلـة، حيـث طبع الـبرود علاقتهـا بأبنائها، وفي غمـرة نزاع عائلي قـررت الرحيل مفضلـة عشيقها على ابنها، أما أختــه (أدل) فقد كانت ضحية للقلق والهوس، وانتهى بها المطاف منتحرة عام ١٨٤٩ م.

هذا ما يعرفه الكثيرون عن شوبنهاور، لكن ما لا يعرفونه عنه أنه فيلسوف التحدي بامتياز.

وبالعـودة إلى حياتــه نجد هــذا التحدي واضحًا جـدًا، كانت البدايـة من الأسرة كالعــادة: توفى شوبنهاور الوالد، فاتجهت الأم اتجاهًا تحرريًا باحثة عن الشهرة داخل الصالونـات الفنيــة، بعد أن حصلت الثروة والجاه نتيجـة زواجها من شوبنهاور الأب، كان الابــن دائـم الاعتراض والتذمر من تصرفات أمه، التـي كانت تحتقره وتحط من شأنــه، مــا أدى إلى صراع دائم بينهما، انتهى بابتعـاد الابن الذي رفع التحدي في وجه والدته قائلًا: غدًا لن يتذكرك الناس إلا لأنك أم شوبنهاور.

شـارل بودلير
هل كان مريضًا بحب أمـه؟

ولـد الشاعـر الفرنسي شارل بودلير في باريس عام ١٨٢١ م، وعُمّد بعد شهرين في كنيسـة سان سولبيس× الكاثولوكية الرومانيـة، والده فرانسو بودلير أحد كبار موظفي الخدمـة المدنية، وكان يكبر والدة بودلير (كارولـين) بأربعة وثلاثين عامًا، توفى والده فرانسـو عـام ١٨٢٧ م، عندمـا كان عمر بودلـير ٦ سنوات، وبعدها بعـام تزوجت أمه الجنرال أوبيك.

أخرج بودلير ديوانه "أزهار الشر" عام ١٨٥٧ م، وأحدث ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية، وصودرت بعض قصائده ومنها "النساء اللعينات".

في الأربعـين مـن عمره، ومن قلـب انشغاله بإصـدار النسخة الثانية مـن "أزهار الشـر" وعدد آخـر من الأعمال النقدية التـي أنجزها في ذلك العـام ١٨٦١ م، يكتب شـارل بودلير هذه الرسالة إلى والدته التي أحبها بشغف وعلى طريقته الخاصة، بقدر مـا كان بينها من مشكلات ومسافات جغرافية حرمته من أمومتها في طفولته وشبابه، إنها إحدى شهاداته الشخصية على حياته، التي عرف فيها ما عرف من معاناة وعذاب وحرمان، هذه مقتطفات منها:

السادس من آيار ١٨٦١م

أمي العزيزة:

إذا كنـت حقًـا تمتلكين روح الأمومـة ولم تكوني مرهقة، تعـالِ إلى باريس لتربيني ولتبحثي عن أنا، ولألف سبب رهيب، لا أستطيع الذهاب إلى أونفلور (Honfluer)، ملتمسًـا ما طالما بحثت عنه: قليلًا من الجرأة والحنيـة، في نهاية آذار كتبت لك: "لن

نلتقي مرة أخرى" ، وكنت في واحدة من تلك الأزمات التي نعيش فيها الحقيقة الرهيبة، ولكـن الآن، سأفعل ما في وسعي لقضـاء بضعة أيام، ثمانية أيام أو ثلاثة، أو حتى بضع ساعات قربك، أنت الكائن الوحيد الذي تبقى حياتي معلقة به، في كل مرة أمسك فيها الريشـة لأكتب إليك عـن حالي، أخاف أخاف أن أقتلك، أن أدمـر جسدك الهش وأنا، أنا دائمًا كما تعرفين على مشارف الانتحار أعتقد بأنك تحبيني بشغف، وبروح عمياء، أنت التـي تمتلكين شخصية قوية، وأنا أنا أحببتك بشغف في طفولتي، لكن لاحقًا، على وقع ظلمك، بدأت أفقد احترامي كما لو كان ظلم الأم أبناءها يشرعن × ظلمهم إياها، غـير أنني، كعادتي تراجعت عن ذلك في كثير من الأحيان، لم أعد ذلك الطفل العنيف وناكـر الجميل، ساعدتني التأملات الطويلة بمصيري وكذلك شخصيتك على فهم كل أخطائي وكل كرمك، لكن على أي حال، ما وقع من سوء بيننا قد وقع، بسبب استهتارك وبسبـب أخطائي، مقـدر لنا بكل تأكيد أن نحب بعضنا بعضًا، أن يعيش أحدنا من أجل الآخر، أن نقضي قدر الاستطاعة حياتنا الأكثر صدقًا ورِقَّة، مع ذلك وفي هذه الظروف الرهيبة التي أعيشها، بت مقتنعًا أن أحدًا من سيقتل الآخر، وأننا في المحصلة، سنقتل بعضنا بعضًا، لم تستطيعي العيش بعد موتي، هذا أكيد، أنا الشيء الوحيد الذي يجعلك تحبين، وبعد موتك خصوصًا إذا مت بصدمة أنا سببها؛ سأقتل نفسي بلا شك، موتك الـذي غالبًـا ما تتحدثين عنـه بكثير من الخضـوع لم يصلح شيئًا في حـالي، سيجتمع المجلس القضائي ولن يدفع شيء ما (من الإرث)، وسأعيش علاوة على الألم، إحساس العزلة المطلقة، وداعًا، أنا منهك! وفيما يخص تفاصيل صحتي فأنا لم أنم ولم آكل منذ ثلاثة أيام تقريبًا، وأحس بضيق تنفس، كما يجب أن أعمل!

لا، لا أقول لك وداعًا، لأنني أرغب في رؤيتك!

آه! اقرأ بيني بتأن وحاولي أن تفهميني!

أعـرف أن هذه الرسالة ستؤلمك، لكنـك ستسمعين فيها بكل تأكيد الرقة والحنان، وحتى الأمل، أشياء نادرًا ما عرفتها،

وأحبك!

ش، ب

كما كتب لها خطاب آخر قبل هذا الخطاب في عام ١٨٦٠ م يقول فيه: "تلك كانت أيام سعادتي، أيام حزنك، أيام ترملك"، فقد أصبحت أمه له وحده حيث توفى والده، فأصبح الطفل المدلل الوحيد والسيد المطلع بدون منازع ويضيف: "عندي اشتهاء مبكر للنسـاء، وطالما خلطت رائحة الفراء × برائحة المـرأة، وأذكر أني أحببت أمي من أجل أناقتهـا لقـد كنـت عاشقًا قبل الأوان"، وقـد صرح في أحد خطاباتـه إلى أمه بالقول: "إني أحبك هكذا، أي بدموعك"، وكتب يقول: "رب لا تعاقبني من أجل أمي ولا تعاقب أمي من أجلي".

أحـب بودلير أمه وأراد امتلاكها، وكان ينكر وجود أبيه وينكر وجود علاقة بين أمه ووأبيـه، وينكـر الحب على الإطلاق، فـكان عليه أن يعوض هـذه المفقودات بموجودات أخـرى، فـكان يعوضها بالتفكيـر القوي أو الشقاء كـي يستأثر باهتمـام أمه، وينتصر علـى أبيه، ويصور لنا بودلـير رأيه في الحب باعتباره فارغًـا وخادعًا في نظره ويكتب: "إني أعتقـد أم كل مسـرات الحب هي في ارتكاب هذا السـوء، والحب في نظري يشبه التعذيـب، أو عملية جراحيـة، وعندما يجتمع عاشقان في عناق، فـإن أحدهما سيكون جراحًا للآخر".

كانت أمه كارولين مشغولة بحبه، وتغار عليه حتى من مربيته مارييت، وكان بودلير يبادلها حبًا بحب، مات والده وهو في السادسة من عمره، وتزوجت والدته من الجنرال أوبيك، وشكل هذا الزواج سهمًا مسمومًا أصاب قلب الشاعر فقد اعتبرها خيانة، وقد

شعر بالغيرة عندما وجد رجلًا غريبًا يشترك معه في حبه لأمه، وكان في بعض الأحيان يستفـزه علنًـا تنفيسًا لحقده، ولكي يحصل على العقـاب، وقامت بين بودلير وزوج أمه مناوشـات عدة، فكان يقـوم الشاعر بإهانة زوج أمه بألفاظ شتـى على مسمع الناس، ليعوض ما يشعر به من نقص.

يقول الكاتب فرانسو بورشيه في كتابه "حياة بودلير الحزينة" أن شارل غضب من أبيه عندما سمع عمه الصغير ينادي أمه كارولين بأمي.

وهذا رأيه في أمه حين تزوجت من الجنرال أوبيك: "بعض الناس كوشاح الليجرون دونيل" قفازات "لا يريد الإنسان أن يمسه لأنه قد لوثه كثيرون، ولذلك فإني لا أرتدي بنطلون رجل أجرب".

إن أسوأ ما في الحب أنه جريمة يشترك فيها اثنان.

كينزا بــورو أوي
أمه اعتبرته من عائلة تكتب نفسها باستمرار

ولــد كينــزا بــورو أوي في عــام ١٩٣٥ م، في قريــة شيكوكــو، من مقاطعــة إينهايم باليابــان، وحصــل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٤ م، وهو واحد من الشخصيات الأكثر نشاطًا ثقافيًا وأدبيًا وسياسيًا.

ولد كينزا بورو أوي في جزيرة صغيرة من إحدى جزر الأرخبيل الياباني، كان ذلك في ٣١ ينايــر ١٩٣٥ م، وهــو يتذكر جيدًا أنــه كان في السادسة من عمــره عندما بدأت الحرب بين الولايات المتحدة واليابان، التي سيشهد نهايتها وهو في العاشرة من العمر، ويقــول حول ذلك: "هكذا، فقد بــدأت تلك الحرب عندما كنت طفلًا صغيرًا، وقد كان لذلك أثر كبير وأهمية قصوى علي".

واستنــادًا إلى ما كان يقول أوي، نرى أن تلــك المرحلة هي مرحلة دقيقة إلى درجة قصــوى، فعائلته تعيش في تلــك الجزيرة منذ أكثر من مئتي عــام، وقد عمل الكثيرون مــن أسلافه في مجال الصحافة غير أنهم لحسن الحظ أو لسوءه. فأنا لست أعلم، لم ينشروا أعمالهم، كما يقول أوي كذلك، كنت أنا أول من ينشر ما كتبه، إلا أن أمي كانت تقول دائمًا: أنتم رجال عائلتنا، تكتبون الشيء نفسه باستمرار".

قبــل أن يبلــغ التاسعــة من عمره لم يقــرأ أوي أي كتــاب، كانت تذهلــه بشدة تلك الحكايــات التي كانت ترويها جدتــه، خاصة× عندما كانت تحدثه عــن كل شيء يتعلق بالعائلــة وبالمقاطعــة التي يعيشــ فيها، وقد كان يعتــبر ذلك كافيًا لــه بحيث لم "يكن بحاجة" إلى أية كتب في ذلك الوقت.

لكن في يوم من الأيام، حدث هناك نوع من النقاش وصل إلى حد المشادة الكلامية بـين أمه وجدته، بعدما ذهبت والدته إلى السوق لتعـود مساءً، وقد اشترت كيلوجرامًا أرزًا "لقد كان عشاؤنا أرزًا ذلك المساء"، ويقول كينزا بورو أوي: "ثم ذهبت الأم إلى مدينـة صغيرة بالقرب من الجزيـرة، لتعود في وقت متأخـر وفي حوزتها دمية صغيرة لأختـه الصغرى، وبعض من قطع الكيك لأخيه الأصغر، أما ما كان نصيب أوي في تلك الليلـة فهو نسختـان مصغرتان عن (توم سوبر) و(هاكليري فـن)"، يقول كينزا بورو أوي: "لم أكـن قـد سمعت بمـارك توين، وقد كان ذلك أول حديـث بيني وبين أمي عن الأدب، وربمـا كان ذلـك أيضًا آخر حديث"، وأضاف أنها قالـت له أن هذين الكتابين هما أفضل روايتين يمكن أن يقرأهما طفل أو شاب، لكن الجدة تدخلت في تلك اللحظة قائلة: "أن المؤلف هو رجل أمريكي، ونحن الآن في حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية، فإذا سألك المدرس في المدرسة عنه، فإن عليك أن تقول أن مارك توين هو اسم مستعار لكاتب ألماني".

حصـل كينزا بورو أوي علـى جائزة نوبل للآداب في العـام ١٩٩٤م بعد ذلك أعلن توقفه عن الكتابة معلنًا بأن ابنه من ذوي الاحتياجات الخاصة.

الأم تيـريـزا
والدتهـا غرست فيها حب الخير

قبل أن تبدأ الأم "تيريزا" رسالتها بمساعدة أفقر الفقراء في الهند، كانت تعيش في كنف عائلة ألبانية في أوروبا الوسطى، ومن هناك بدأت قصة الأم تيريزا،

ولـدت الأم "تيريـزا" الراهبـة الكاثوليكية، في ٢٦ أغسطـس ١٩١٠ م، في مدينة سكوبية، العاصمة الحالية لجمهورية مقدونيا، وفي اليوم التالي تم تعميدها باسم "أجنيس".

كان والداهـا، (نيكـول) و(درانافيل)، ينحدران من أصـول ألبانية، وكان والدها رجـل أعمال، عمل مقاولًا للبناء، وتاجرًا للأدويـة والسلع الأخرى، وتنحدر الأم تيريزا مـن عائلة كاثوليكية متدينة، وقد شارك والداها في أعمال الكنيسة والسياسة المحلية، بالإضافة إلى أنه من مؤيدي استقلال ألبانيا.

توفـى والدها وهي في سن الثامنة، في عام ١٩١٩ م، ولا يزال سر وفاته حتى يومنا هذا مجهولًا، إلا أن الشائعات ترجح موته بالسم من قبل أعدائه السياسيين،

كانـت والـدة الأم (تيريزا) نيكول تحرص على تقديم دعـوة مفتوحة لأي جائع في المنطقـة، كي ينضـم إلى مائدة طعام العائلـة، وبذلك غرست فيهـا منذ صغرها حب الخـير، وكانـت تقول لها: "يـا ابنتي، لا تأكلـي أي لقمـة طعـام دون أن تشاركيها مع الآخريـن"، كلام الوالـدة وأفعالهـا كانت مثابة درس محبة حملتـه الطفلة أجنيس في قلبها طيلة أيام حياتها.

هذا ولم توفر الأم تيريزا أي فرصة لترجمة كلام والدتها إلى أفعال أرض الواقع، قامـت بالتدريس في الهند لمدة ١٧ عامًـا، قبل أن تكرس حياتهـا لرعاية المرضى

والفقراء، كمــا قامت بتأسيس دور رعاية للمرضى، ومراكــز للمكفوفين، وكبار السن، وذوي الإعاقــة، ومستعمرة للجذام من خلال مؤسســة الإرساليات الخيرية، وفي العام ١٩٧٩ م وعقــب تلقي الأم تيريزا جائزة نوبل للسلام، كان من المفترض أن تقام مأدبة طعــام فاخرة على شرفهــا، إلا أن الأم تيريــزا رفضت حضور المأدبــة، وطلبت أن يتم إعطائهــا نقــودًا مقابل هــذه الوليمة، ومن خلال هــذه النقود تمكنــت الأم تيريزا من مشاركــة الطعام مع نحو ١٥٠٠٠ جائع، وفي حادثــة أخرى وفيما كانت الأم تيريزا على مــتن الطائرة، قدمت لها المضيفة وجبة طعــام، إلا أن الأم طلبت منها أن تعطيها ثمن الوجبة، وأقنعت المسافرين بالقيام بالمثل، وبذلك تمكنت من جمع مبلغ ١٢٩ دولارًا أمريكيًا.

الأمــر لم ينتــه هنا حيث أقنعــت الأم تيريزا شركــة الطيران بــأن تعطيها وجبات الطعام، التي استرجعتها من المسافرين مع شاحنة صغيرة، لنقلها إلى حي فقير بهدف توزيع الطعام والمال على الجياع.

وحــدث أيضًــا أن مــرت الأم تيريــزا بفــرن يبيع الخبــز لعلّها تحصل علــى ما قد تطعمــه للأطفال في الميتم، مــدّت الأم يدها باتجاه الخباز آملــة أن يعطيها الخبز من دون مقابــل، إلا أن الأخــير بصق في يدها بكل احتقار، الأم تيريزا قابلت قساوة الرجل بالقــول: "سأبقــي البصقة لنفسي، ولكــن أريد الخبز لإطعــام أولادي"، من الصعب تكهن ما الذي دار بوجدان الرجل عند سماعه هذا الرد، إلا أنه أصبح منذ ذلك اليوم المانــح الأساسي للخبز في الميتم، كآمن الأم تيريزا إنسانة رائعة بحق، وتعد واحدة من أعظم الشخصيات الإنسانية في القرن العشرين، تم منحها لقب تيريزا قديسة كالكوتا في عام ٢٠١٦ م.

ماريـو فارغاس يوسا، في خطبة نوبل
ما أشوقني لوجود أمي هنا بيننا

تعلمـت القراءة في سـن الخامسة، في صـف الراهب جوستنيانـو، بكوليج لاسال، كوشبامبـا (بوليفيـا)، هذا أهم ما حصـل لي في حياتي، وهآنذا، بعـد حوالي سبعين عامًـا ما زلـت أتذكر بضوح تـام كيف أن هذا السحـر، الذي هو أن تترجـم صور إلى كلمات الكتب، قد أغنى وجودي وكسر حواجز الفضاء والزمن، بأن سمح لي بأن أقطع مع القبطان نيمو في غواصته عشرين ألف مكان تحت البحار (رواية جول فيرن)، وأن أصـارع إلى جانب أرثنيان، أتوس، وبورتوس، وأرامـس، ضد المكائد التي هددت الملكة زمـن الداهية ريشيلـو، وأن أتسلل في أحشـاء باريس، وقد صرت جـان فالجان (بطل رواية البؤساء لفيكتور هوغو) حاملًا على ظهره جسد ماريوس الهامد.

لقد حولت القراءة الحلم إلى حياة، والحياة إلى تهيؤ، لما وضعت عالم الأدب في يد الولـد الذي كنت، وقد حكت لي أمي أن الأشياء الأولى التي كتبت هي تتمات الحكايات التـي كنت أقرأها، لأنني كنت أحزن بانتهائهـا، وأنني أريد تصحيح النهاية، ربما كان هـذا مـا فعلته طيلة حياتها من غـير أن أعلم: أن أمدد في الزمـن، وأنا أكبر، وأنضج، وأشيخ الحكايات التي غمرت طفولتي بالحماس والمغامرات.

ما أشوقني لوجود أمي بيننـا، هي التي كانت شديدة التأثر، وتبكي وهي تقرأ أشعار أمـادو نيرقـو (الشاعر المكسيكـي) وبابلو نـيرودا (الشاعر التشيلـي)، وكذلك جدي بيـدرو، الـذي لطالما احتفى بأشعـاري، والعم لوشو، من شجعني كثـيرًا على الانهماك جسـدًا وروحًا في الكتابة، رغم أن الأدب في هـذه الفترة، وهذا المكان، ولم يكن ليطعم محبيه إلا بالنزر اليسير.

كانــت الكتابة لعبة تصفق لها عائلتي، وتحتفــي بي، أنا الحفيد، الابن بلا أب، لأن أبــي كان قد رحل عن هذا العالم، أتذكره: رجــل ذو قامة عالية، ووجه حسن، وبهندام بحار، الذي صورته منصوبة عند حافة سريري أقبلها بعد أداء صلاتي، وقبل النوم.

ذات صبــاح في بيــورا، لم أتعاف قط ممــا صدمته أسرت لي أمــي أن هذا الرجل حــي يــرزق، وأننا من هذا اليوم سنذهب إلى ليمــا للعيش معه، كنت في الحادية عشرة مــن عمــري، وعندئذٍ تغير كل شيء عنــدي، فقدت براءتي واكتشفــت الوحدة والحياة الراشدة والخوف، ونجوت بالقراءة، قراءة الكتب الجيدة.

حينما كنت طفلًا في سروالي القصير هناك في كشاكومبا في بوليفيا، حيث قضيت السنــوات العشر الأولى من حياتي، كانت أمي تحتفظ في خزانتها بكتاب مرشوش ببقع زرقــاء، ونهر من النجوم البيضــاء عنوانه: عشرون قصيدة حب وأغنيــة يائسة لبابلو نيرودا، كنت أقرأ الكتاب وأعيد قراءته، وكنت حديث العهد بالقراءة وكان منع أمي لي مــن قراءته بدعــوى أنه ليس موجهًا للأطفال، يزيد على نحــو هائل من جاذبيته تلك، ويضفي عليه إكليلًا من السحر والفتنة.

رسالة ريحانة جباري إلى أمها قبل إعدامها
لا أريد لقلبي الشاب أن يتحول ترابًا

ريحانــة جباري، فتــاة إيرانية شريفة، عمرها ١٩ سنة، قــام أحد ضباط الشرطة بمحاولة إغتصابها عام ٢٠٠٧ م، فقاومته وأردته قتيلًا بعد أن اضطرت لطعنه بسكين كانــت طعنتها نافــذة، فحققت بذلك عدالــة السماء به، وفي هذه الحالــة فإن العدالة والمنطق والقانون يقف إلى جانبها ويواسيها ويشجع كل فتاة بحذو حذوها إذا تعرضت لمثل هذه الحالة الإجرامية المستنكرة، خاصة مع وجود آثار على جسمها أثناء مقاومتها للقتيل الذي حاول إغتصابها.

ولكــن هرم العدالــة مقلوب من أساسه فلا عدالــة، ولا منطق، ولا قانون، فحكمت المحكمة الإيرانية عليها بالإعدام.

ماذا قالت ريحانة للقاضي؟

- سأل القاضي ريحانة جباري: لماذا قتلتيه؟
- فأجابت: دفاعًا عن شرفي.
- قال لها: ذلك ليس مبررًا؟
- فقالت: لأنك بلا شرف،

التالي نص رسالة الإيرانية ريحانة جباري إلى أمها قبل إعدامها:

أعدمت ريحانة في يوم السبت ٢٥ أكتوبر ٢٠١٤ م، وسجلت ريحانة الرسالة بصوتها في أبريل ٢٠١٤ م، ونشر نشطاء إيرانيون النص مفرغًا بعد تنفيذ حكم الإعدام.

عزيزتي شعلة،

عملــت اليوم أنه قد جاء دوري لمواجهة القصاص، أشعر بالأسى لأنك لم تخبريني

بنفسك، أني قد وصلت إلى نهاية رحلتي في الحياة، ألا تعتقدين أنه من حقي أن أعرف؟ أتعلمين؟ أشعر بالخزي لأنك حزينة، لماذا لم تعطيني الفرصة لأقبل يدك ويد أبي؟

لقد عشت ١٩ سنة في هذا العالم، في تلك الليلة المشئومة كان يجب أن أكون أنا القتيلة، كان جسدي ليلقى في إحدى زوايا المدينة، وبعد أيام كانت الشرطة ستأخذك إلى مكتب الطبيب الشرعي، لتتعرفي على الجثة، وكنت ستعرفين حينها أنني أُغتصبت، لم يكن أحد ليتوصل إلى هوية القاتل، لأننا لا نملك أموالهم ولا نفوذهم عندئذٍ كنت ستكملين بقية حياتك في معاناة وعار، وكنت ستموتين كهدًا بعد بضع سنين، وكانت القصة ستنتهي.

لكن قصتي تغيرت بضربة ملعونة، لم يلق جسدي جانبًا، بل أودع في قبر سجن "أوبن" بعنابره الانفرادية، والآن في سجن "شهرري" الذي يشبه القبر استسلمي للقدر ولا تشتكي، أنتِ تعلمين أكثر مني أن الموت ليس نهاية الحياة.

تعلمت منك أن المرء يولد في هذا العالم ليكتسب خبرات ويتعلم دروسًا، وأن كل امرء بما كسب رهينة منذ مولده.

تعلمت أنه يجب على المرء أحيانًا أن يقاتل، أذكر حين أخبرتني أن سائق العربة قد احتج على الرجل الذي كان يجلدني، لكن الجلاد ضرب وجهه ورأسه بالسوط، ليموت في النهاية بأثر ضرباته.

لقد أخبرتني أن المرء يجب أن يثابر حتى يعلي قيمته، حتى لو كان جزاؤه الموت، تعلمت منك وأنا أخطو إلى المدرسة، أن أتحلى بالأخلاق الرفيعة في مواجهة الشجار والشكوى، هل تذكرين إلى أي حد كنت تشددين على الطريقة، التي يجب أن تتصرف بها؟ لقد كانت تجربتك خاطئة حين وقعت الواقعة، لم تساعدني مبادئي.

حين قمت إلى المحاكمة بدوت امرأة تقتل بدم بارد، مجرمة لا تملك ذرة من الرحمة، لم تسقط من ولو دمعة واحدة، لم أتوسل إلى أحد، لم يغمرني البكاء، لأني وثقت في القانون.

لكنــي اتهمت بالامبالاة أمام الجريمة، أترين؟ لم أكن أقتل حتى الحشرات، وكنت أرمــي الصراصير بعيدًا ممسكة بقــرون استشعارها، أصبحت بين ليلة وضحاها قاتلة مــع سبق الإصرار، لقد فسروا معاملتي للحيوانات علــى أنه نزوع لأن أصبح ذكرًا، ولم يتكبد القاضي النظر إلى حقيقة أني كنت أملك حينها أظافر طويلة مصقولة.

كم كان متفائلًا من انتظار العدالة من القضاة، ألم يلتفت القاضي إلى نعومة يدي بشكل لا يليق بامرأة رياضية، أو ملاكمة بالتحديد.

البلـد التي زرعـت في حبها لم تكن تبادلنــي الحب، ولم يساعـدني أحد وأنا تحت ضربـات المحقق وأسمع أحط ألفاظ السباب، وحين تخلصت من آخر علامات الجمال الباقية في جسدي بحلاقة شعري أعطوني مكافأة: أحد عشر يومًا في الحبس الانفرادي، لا تبك مما تسمعين، في أول يوم لي في مركز الشرطة أذاني ضابط كبير في السن وغير متــزوج بسبــب أظافري، عرفت حينها أن الجمال ليس مــن سمات هذا العصر: جمال المظهــر، وجمال الأفكار والأمنيات، وجمال الخط، وجمال العيون والنظر، وحتى جمال الصوت العذب،

أمي العزيزة،

تغـيرت فلسفتي وأنتي لست المسئولة عن هذا: لــن تنتهي كلماتي فقد أعطيتها إلى شخصــ تعهد بتسليمهــا إليك بعد أن أعدم دون حضورك، ودون علمك، لقد تركت لك الكثير من الكتابات ميراثًا.

لكن، وقبل أن أموت، أريد أن أطلب منك أمرًا يجب عليك تلبيته بكل ما تستطيعين من قوة، وبأي طريقة في مقدورك، هذا في الحقيقة، الأمر الوحيد الذي أريده من هذا العالم، ومن هذا البلد، ومنك، أعلم أنك تريدين وقتًا لإعداده، لذا سأخبرك جزءًا من وصيتــي قبل الموت، لا تبكي واسمعيني جيدًا، أريدك أن تذهبي إلى قاعة المكتبة وتعلني رغبــة، لا يمكنني كتابة هذه الرغبة من داخــل السجن لن يسمح بمروره، لذا يستوجب

عليـك أن تعاني من أجلي مرة أخرى، إنه الأمر الوحيد الذي لن أغضب إذا اضطررت أن تتوسلي من أجله، رغم أني طلبت منك عدة مرات ألا تتوسلي إلى أحد لينقذني من الإعدام.

أمـي الطيبة: العزيزة شعلة، والأعز علي من حياتي، لا أريد أن أتعفن تحت الثرى، لا أريـد لعينـي أو لقلبي الشاب أن يتحول إلى تـراب، توسلي لهم ليعطوا قلبي، وكليتي، وعينـي، وعظمـي، وكل ما يمكن زرعـه في جسد آخر، هدية إلى شخص يحتاج إليهم بمجرد إعدامي، لا أريد لهذا الشخص أن يعرف اسمي، أو يشتري لي باقة من الزهور، ولا حتى أن يدعو لي.

أقـول لـك من أعمـاق قلبـي أني لا أريد أن أوضـع في قبر تزورينـه، وتبكي عنده، وتعانـين، لا أريدك أن تلبسـي ثوب الحداد الأسود، ابذلي مـا في وسعك لتنسي أيامك الصعبة، اتركيني لتبعثرني الريح.

لم يحبنـا العـالم، ولم يتركني لقدري، أنـا أستسلم الآن، وأنا أقابـل الموت بصدر رحـب، أمام محكمـة الله سأوجه الإتهـام إلى المفتش "شاملو"، سأوجـه الاتهام إلى القاضـي، وإلى قضـاة المحكمة العليا الذين ضربوني وأنـا مستيقظة، ولم يتورعوا عن التحرشـ بي أمام الخالق، سأوجـه الاتهام إلى الطبيب "فرونـدي"، سأوجه الإتهام إلى "قاسـم شعباني" وكل من ظلمنـي أو انتهك حقوقي، سواء عن جهل أو كذب، ولم يفطنوا أن الحقيقة ليست دائمًا كما تبدو.

عزيزتي شعلة ذات القلب الطيب،

في الآخـرة سنوجه نحن الاتهام، وسيكونون هـم متهمين، دعينا ننتظر إرادة الله، أردت أن أضمك حتى أموت، أحبك،

ريحانة،

١ أبريل ٢٠١٤ م

جـان بـول سارتـر
حين أراد أن يتزوج أمـه ذات يوم!

جـان بول سارتر هـو رأس الفلسفـة الوجودية، وكان يدعو لهـا في المقاهي الأدبية وأقبيـة سـان جيرمان بباريس، وهـو أيضًا شخصية سياسيـة كان يكتب في المجلات، ويشـترك في الاجتماعات السياسية، وهو فيلسوف، وتلك هي الوجوه الثلاثة لجان بول سارتـر: الروائي والمؤلف المسرحي، كاتب المقالات، الذي فاز بجائزة نوبل في الأدب في العام ١٩٦٤ م، لكنه رفض تسلمها.

ولـد سارتـر في باريس خـلال شهـر يونيـو / حزيـران ١٩٠٥ م، وكان أبوه (جون باتيسـت) يعمل ضابطًا في البحرية الفرنسية، أما أمه (أن ماري) فكان عمها الدكتور (ألبير شوايزر) الطبيب الشهير الذي نال جائزة نوبل، وعاش في طفولته حياة باذخة، لم تمـر سوى فترة قصـيرة حوالي خمسة عشر شهرًا ـ علـى ميلاد الطفل سارتر لتبدأ المصائب في العائلة الصغيرة، لقد توفى الزوج (جون باتيست) في الهند الصينية، فكانت الصاعقة على زوجته (أن ماري) التي وجدت نفسها بلا مال ولا معيل مع ابنها الرضيع، فما كان منها إلا أن عادت إلى منزل والديها. وكان جده شفايتزر يملك مكتبة رائعـة، جعلت حفيـده يقول: "وحتى قبـل أن أتعلم القراءة بـدأت أقدس تلك النصب المرفوعـة"، وسرعـان مـا يتعلم الطفل القـراءة، فيمضي معظم وقتـه في عالم الكتب السحرية، وكان للجد الفضل في دفع حفيده إلى الكتابة.

وفي هـذه المرحلـة كان سارتر طالبًا مجتهـدًا، شغوفًا بالقـراءة والاطلاع، غريبًا في اختياراتـه للكتب التـي يقرأها، فبينما كان أقرانه يقبلون علـى قراءة أندريه جيد،

وجيروود كان يلتهم مؤلفات فارير وأناثول فرانس، كما عشق أدب بروست وفاليري وألان.

تزوجـت أمه لاحقًا مـن مهندس في البحريـة الفرنسية، وانتقـل للعيش معهما في مدينة لاروشيل، وفيها خبر الحياة البرجوازية التي انتقدها لاحقًا، ثم عاد إلى باريس وحصل فيها على شهادة البكالوريا، وتخرج في العام ١٩٢٥ م من دار المعلمين العليا.

بوفاة والده فقد سارتر العنصر الأبوي في حياته، ما يفسر تعلقه الشديد بأمه، وقد شكل زواج أمه الثاني صدمة قوية لسارتر، وفتح جرحه الأول، مما أدى به إلى إنـكار العديد من القيم القائمة، وتحطيم القيود، وإنكار الحـب والأمومة والكثير من العواطف الإنسانية التي تربط الإنسان بالآخر.

يـروي جون بول سارتر في الصفحات الأولى مـن مذكراته (الكلمات) - التي كتبها في الخمسـين من عمره - عن عذاب أمه (أن ماري) مع والديها اللذان طبع عليها صفة أرملـة بنكهة مطلقة، لدرجة أن أمها كانت تلومهـا لأنها تزوجت شخصًا مات بسرعة، ويصـف سارتر منزل جده بالكابوس المشترك، لدرجة أنه جعـل حليب ثدييها يجف، فعهد به إلا إحدى المرضعات حتى لا يفطم متأخرًا.

وتحـدث سارتـر عن العـذاب المتواصل، والاحتقـار الصامت لأمـه التي اضطرت أن تعمـل في وظائـف عدة، لتنال الغفـران وتقوم بأعمال البيت بتفـان تام، لأن الجدة ستحاسبها مساء كل يوم على كل شيء، كما أنها لا يجب أن تبدي رأيها حول أي قضية ،لأنهـم سيتهمونها إما بالرغبة في السيطرة والتمـرد أو بلامبالاتها وتجاهلها لقضايا العائلـة، حتى المصروف كان أبوها يتناسـى إعطاؤه لها وكذا ملابسها، التي بليت على جلدها دون أن تشتري أخرى.

وعندمـا تدعوها صديقاتهـا إلى حفل ما، فيجب عليها أن تذهب متأخرة وأن تعود قبل العاشرة ليلًا وإلا فيدا والدها ستبدأن بالعمل.

في خضم هذا كان الطفل سارتر يرى أمه كفتاة عذراء عملاقة، ويعتبرها شقيقته الكبرى؛ لأنها كانت تقتسم معه غرفة الأولاد في منزل جديه، والأولاد هنا هم سارتر وأمه، كان يتحسس القهر الذي كانت تعانيه في وسطهما فيقول: "إنها هنا لتخدمني أنني أحبها لكن كيف أحترمها ولا أحد يحترمها هنا؟"، لقد كان ينظر إليها بشفقة، وهي تنظر إليه بحب وتقص عليه مصائب الصباح والمساء، وذات مرة تأمل الطفل البريء بنظرات عميقة في عيني أمه المليئتان بالحزن، وأخبرها بأنه سيتزوجها، لقد وعد الطفل أمه بالزواج لكي يحميها، فهو يعلم أنها تعاني، ولكونه يحبها فقد ظن أن الزواج هو الحل الوحيد لمأساة أمه التراجيدية، وقد ساهمت كل هذه الأحداث في تكوين عقل سارتر لأفكار معادية للذكورية، وجعله فيما بعد فيلسوفًا حاملًا للواء الحركات النسوية مع زميلته ورفيقته الكاتبة الوجودية سيمون دي بوفوار، التي رافقته حتى وفاته في العام ١٩٨٠ م.

سيمون دي بوفوار
مـوت عـذب جـدًا

ولـدت سيمـون دي بوفـوار في ٩ كانـون الثـاني / ينايـر عـام ١٩٠٨ م في باريس، وهـي الابنة الكبرى لجورج برتراند دو بوفوار، وهو محـام كان يطمح أن يكون ممثلًا، ووالدتهـا فرانسيـوز براسير ابنة لرجل أعمال غني وكاثوليكـي متدين، ولديها شقيقة اسمهـا هيلينـا أصغر منها بعامين، صارعت العائلة للبقاء علـى نفس المستوى المعيشي البرجوازي، حتى بعدما فقدت الكثير من ثروتها بعد الحرب العالمية الأولى،

أمها عملت على تلقينها هي وأختها الصغرى مبادئ الكاثوليكية، وأرسلتها إلى دير مرموقـة، وكانت سيمـون في أثناء طفولتها ملتزمة دينيًا، وكانـت تنوي أن تكون راهبة حتى خاضت أزمة الإيمان في الرابعة عشر، مما حدا بها لتكون ملحدة بقية حياتها.

درست الفلسفة في جامعة (إكول نورمال سوبراير) "المدرسة العليا"، والتي كانت جامعـة تضم الذكور فقـط حينها، وفي جيل ٢١ تخرجت من الجامعة وفي عام ١٩٢٩ م تعرفـت على جان بول سارتر، الذي كان وقتها طالبًـا في قسم الفلسفة، ونشأت بينهما قصة حب استمرت حتى وفاة سارتر عام ١٩٨٠ م، لكن بدون أن يلتزما بالزواج.

في الأعـوام ١٩٣١-١٩٤٣م عملت أستاذة جامعيـة في السوربون، وفي عام ١٩٤٣م نشـرت روايتهـا الأولى "المدعوة" وتعتبر دي بوفوار أمًا للتيار النسوي ما قبل ١٩٦٨م، وقـد اشتهرت بصورة خاصة بفضل كتابها "الجنس الآخـر" الذي نشرته عام ١٩٤٩ م، الـذي كان عبارة عـن تحليل مفصل حول اضطهـاد المرأة، ومبثابـة نص تأسيسي للنسوية المعاصرة.

فقــدت دي بوفوار انتماءها لأسرتها بعد زواج أمهــا، ونعت زوج أمها لها بالمومس، بسبب زيارات سارتر لها في منزل الأسرة.

أصــدرت دي بوفــوار سنة ١٩٦٤ م، بعــد سنة على وفاة والدتهــا كتابًا حمل عنوان "موت عــذب جدًا" ليكون إضافة مهمة لسيرتها المدونــة في مذكراتها وبين مؤلفاتها، كونهــا تــروي تفاصيل تجربة فارقــة في حياتها كإنســان ومفكرة، وهي تجربــة إصابة والدتها بالسرطان، ومجالستها لها في أيامها الأخيرة حتى وفاتها، تاركة برحيلها أثرًا على حياة سيمون وكتاباتها التي عبّرت من خلالها على مدى الحيرة، التي كانت تعتري علاقتها بأمها.

الكتــاب الذي جاء في أقل مــن ٢٠٠ صفحة تقريبًا، صنّفتــه مؤلفته كسيرة ذاتية، إلا أنــه لا يخلو مــن بصماتها الفسلفيــة المتولدة من طبيعة علاقتها مــع والدتها، التي تراوحــت ولسنــوات طويلة بين مــد وجزء×، وأخــذ ورد جعلت منها علاقــة مضطربة، اختــارت سيمون أن تستعيدها وتراجعها، بــل وتقيمها أيضًا كمحاولة لفهمها في الوقت الــذي تعد فيه أمها أيامها الأخيرة، المراجعة نفسها وإعادة القراءة استمرت حتى بعد الوفــاة، وكان هذا ضمنيًا، آثــار هذه التجربة عليها بصفتها حدثًا فارقًا، له انعكاساته لا على حياتها فقط، وإنما على كتاباتها.

هــذا الكتاب وفقًــا لسارتر، أفضل مــا كتبته سيمون على الإطــلاق، تروي صاحبة "الجنس الآخر" في كتابها هذا تفاصيل معايشتها لهذه التجربة، منذ اكتشاف إصابة والدتهــا بسرطان في الأمعاء الدقيقة، والكيفية التي تعاملت عبرها مع هذا الاكتشاف، وطريقــة مواجهتها للأمر، ومواجهة الفاجعة التــي ألمت بوالدتها، وصولًا إلى الزيارات المتكــررة إلى المستشفــى، وأثرهــا على أمه التي وصلــت إلى مرحلة باتت فيــه أدويتها عاجزة عن تخفيف ألمها، في الوقت الذي وصلت فيه سيمون إلى قناعة بأن كل ما يمكن بذله من جهود لإنقاذ أمها، وأن لوقت قصير بات بلا فائدة.

هكـذا بين الاكتشاف الذي كان بمثابـة الإعلان عن موت قريب، وبين حدوث الموت نفسه، تقول بوفوار أن عري أمها كان يضايقها، وأنها عندما كانت طفلة، كانت منشدة ومنجذبة إلى جسدها، الذي نفرت منه عند بلوغها سن المراهقة.

وبين محبة سابقة ونفور لاحق، وفي ظل مجالستها لها في وضعها الجديد، اكتشفت الكاتبة الفرنسية أن جسد والدتها كان يحمل من المعاني ما يجعله بغيضًا ومقدسًا وفي وقـت واحد، لـذا كان أقرب إلى تابو وفق تصوراتها وقراءاتها له متراوحة بين العاطفة والعقلانيـة، اللتان كانتا على مستوى واحد مكنها مـن النظر إلى هذه التجربة بنظرة نقدية خالصة.

تستحضـر الكاتبة موضوعات القتـل الرحيم، والإرهاق العلاجـي: إنها تعرف أن والدتهـا محكـوم عليها، لكنها لا تـزال مغلوبة على أمرها، واهنة أمـام الأطباء الذين يمارسون طغيانًا على مريضهم، الذي لا يمكن تبريره إلا بالشفاء.

تستحضـر سيمـون المـوت، من وجهـة نظرها المعروفـة، ومن وجهة نظـر والدتها المؤمنـة، وتعيد النظر في أسرتها والدور الذي لعبته فيها، وهي ككاتبة معروفة ومميزة إقتصاديًـا: كانت "الابن" بطريقة ما لدعم والدتهـا ماليًا، في هذه الرواية تستحضر ردود أفعال والدتها، المرتبطة جدًا بهذه القيم البرجوازية، أمام عملها وحياتها ككاتبة ملتزمة.

أخيرًا، وكما ترى بوفوار، تراقب ظروف عمل الممرضات وظروف المرضى المعيشية، ربمـا قدمت سيمون بوفـوار نفسها، في هذه الصفحات الصغـيرة المئة والستين، أن لم يكـن الأفضـل عن حياتها على الأقل الأكثر سريّة" كمـا يقول بيير هنري سيمون، من الأكاديميـة الفرنسيـة، في مقال له في صحيفة اللومونـد: "أن سيمون دي بوفوار، التي نعلم إخلاصها وشجاعتها، تكشف عن حساسية وحنان مفرطين".

إيزابيل الليندي
كلمات في وداع الابنة الميتة

ولـدت إيزابيل الليندي في الثاني من أغسطس عام ١٩٤٢ م، وعاشت بين عدد من البلـدان منها تشيلي، وبوليفيا، ولبنان، وفنزويلا، نتيجـة عمل والدها سفيرًا، وكذلك زوج أمها بعد انفصالها عن أبيها.

في عـام ١٩٣٧ م وقـع انقلاب دمويّ ضد عمها سلفـادور الليندي في تشيلي، نفيت بعدها إيزابيل إلى فنزويلا، وعملت صحافية× خلال تلك المرحلة.

وسـم التنقـل طفولة إيزابيـل بطابع مميـز، جعلها تحتفظ بذكريـات مميزة عن رحـلات خيالية ومـدن سحرية، وتذكـر إيزابيل كتب ألـف ليلة وليلة، التـي قرأتها في طفولتها، التي كان زوج أمها يحتفظ بها في خزانة سحرية قديمة، جعلت خيال إيزابيل يتسـع ليحتفـظ بالتفاصيل الصغـيرة، ويضفي عليهـا طابعًا سحريًا، كمـا أن ميراث الأسـرة السياسي لم يغب كذلـك عنها، ولم تغب تأثيراتـه في طفولتها التي تقول عنها أنها كانت وادعة جدًا، كذلك امتازت إيزابيل بعلاقتها الدافئة والواثقة بأمها.

أولى روايات إيزابيل التي تصنف ضمن تيار الواقعية السحرية كانت بعنوان "بيت الأرواح" وصدرت عام ١٩٨٢ م، وتحولت إلى فيلم سينمائي، بعدها توالى نتاج الكاتبة، ومن بـين أعمالها "عن الحب والظلال"، "إيفالونـا"، "آفروديت"، "مملكة التنين الذهبي"، "أورو"، "مدينة الوحوش".

وفاة ابنتها:

كانت الصدمة الأعظم في حياة إيزابيل حتى الآن وفاة ابنتها (باولا) في ١٩٩٣ م، عن عمر عشرين عامًا بالسرطان، تقول إيزابيل: "أخذوا ابنتي شابة حيّة بحالة جيدة

وأعادوهـا لي جثة هامـدة"، كانت تأثيرات وفاة باولا على أمهـا شديدة، لكن إيزابيل طوال حياتها امرأة قوية، فحولت ألمها إلى كتاب جميل استعادت فيه طفولتها وذكرياتها، أسمته (باولا) على اسم ابنتها وخصصت ربحه × دعم مراكز علاج السرطان.

حـين ودعت إيزابيـل جسد ابنتها، قـررت ألا تودع الروح، فأخـذت تحكي للابنة، الغائبـة الحاضـرة، الكثير مـن الذكريات، عن ماضـي الأم وحاضرهـا، عن يوميات المنفـى، وكيف غادرت بلادها، بدأت إيزابيل الحكـي في كتابها (باولا)، الذي سطرته مباشـرة بعـد وفاة ابنتها بـاولا، وحافظـت الروائية الشهـيرة على عادتهـا القديمة، فاستحضـرت الابنـة الراحلة وأطلعتها على ما استجد في الحيـاة من أحداث، بعد ١٣ عامًا من الغياب، وذلك في كتاب ثانٍ بعنوان (حصيلة الأيام).

لأنـه "لا وجود لألم أكبر من موت ابن" حاولت إيزابيل مداواة ذلك الألم بالكتابة طويـلًا، فبعد وفـاة ابنتها باولا عـام ×١٩٩٢ م، اعتكفت المبدعة الشيليـة مع أحزانها وأوراقها، مسطرة قصة مرض الابنة، تلك التجربة القاسية التي أخرجت كتابًا صادقًا وحـارًا، فياضًـا بمشاعر مبدعة عاينـت انسلال روح فتاتهـا الغالية ثانيـة بثانية بعد غيبوبـة طويلـة استمرت شهورًا، تنقلّت فيـه الأم مع ابنتها بـين مستشفيات في مدريد وسان فرانسيسكو، وأخيرًا في منزل الأسرة الذي تحول إلى مصحة، ومكانًا استراحت فيه حين وصلت إليه روح الشابة، وانقطعت فيه صلتها بالعالم.

تقـول إيـزابيل: "أكثر ما يخيفني في الشيخوخة ليس الوحدة، وإنما التبعية، لا أريـد أن أزعج ابني وأحفادي في شيخوختي، وأن لم يكـن سيئًا قضاء سنواتي الأخيرة إلى جانبهم، أعددت قائمة بما سأحتاج إليه عند بلوغي الثمانين: صحة، موارد مالية، كلبـة، تاريخ، الأمـران الأولان يتيحـان لي أن أقرر كيف وأين أعيش، والثالث والرابع يرافقاننـي، والتاريخ يبقيني صامتـة ومشغولة، دون أن أزعج أحدًا، أشد ما يخيفنا أنا وويلـي (زوجها الثاني) هو فقدان القدرة الذهنية، ويكون على نيكو (ابنها) أو غرباء،

وهذا أسوأ، أن يقرروا عنا، إنني أفكر فيك يا ابنتي (باولا الراحلة)، وقد ظللت شهورًا تحت رحمة أناس غير معروفين، قبل أن نتمكن من نقلك إلى كاليفورنيا، كم من المرات أسـاء معاملتك أحد الأطباء، أو إحدى الممرضـات، أو مستخدم، دون أن أعرف ذلك، كم من المرات تمنيت الموت بصمت وسريعًا خلال تلك السنة"،

اللافـت في الكتـاب هـو حضـور أكثر من شغلـوا بال الكاتبـة وصفحاتهـا، أحبها المقربون، فباولا موجودة رغم مرور ومن على وفاتها، إذ هي المعنية الأولى بالحكايات، على الأقل من وجهة نظر أمها، التي ربما لم تعترف سوى بغياب جزئي للابنة، إذ تظل تخاطبهـا بالساعـات الطويلة، تشهدها علـى مسرات العائلة وأحزانهـا، تتنزه الأم في غابـة نُثر فيها رماد الابنـة الراحلة، تتناجى الروحان في حوارات ممتدة على صفحات الكتـاب، تبلغ إيزابيل الليندي قمة الإبداع في روايـة (باولا)، وهي السيرة الذاتية لها، تحكـي من خلالها قصـة مرض ابنتها، التي عاشت في غيبوبـة لفترة طويلة ثم ماتت، نلمسـ في هـذه الرواية ونحس بقدر كبير من الوجع، وجـع الأم التي تنتظر موت الابنة ذات العشرين عامًا، الحالمة بحياة هانئة والمدفوعة لحب الخير، كيف تمضي إلى الموت بهدوء بينما الأم تطفو على بحار الألم، تكتب إيزابيل رواية (باولا) قرب سرير ابنتها، مستحضـرة كل الوجع والانتظار، الذي عاشته في ممرات المستشفى، وفي غرفة بفندق ثـم في بيتهـا بكاليفورنيا، تحكي إلى بـاولا أسطورة الأسرة التي تبـدأ من الجد الأول، الـذي ولـد في مهد فاخر، ساعات لا عدّ لها تلك التي قصتهـا إيزابيل في القص × إلى الابنـة الغائبة عن الوعـي، ولا تنسى أن تسرد عليها وعلينا قصة مشاويرها في العشق، ومغامراتها وعيوب عشاقها وتوقها للحياة رغم مأساويتها.

تبدأ الرواية في أول يوم تدخل فيه ابنتها المستشفى، وتنتهي بفناء الجسد واستقبال الـروح ب ٣٧٤ صفحـة من وجع مقطّـر، وعشق غريب للحياة مـوازٍ للموت، الذي حطّ بخطوات خفيفة ومحبة مطلقة.

يشــار كمال
رفض تلبية رغبة أمه بقتل قاتل أبيه في المسجد

يشار كمال روائي وكاتب سيناريو وقصص قصيرة، هو واحد من الكتاب الرواد في الأدب التركي، استفاد كثيرًا من أساطيره وحكاياته التي كتبها في الأناضول.

الرجـل الذي سيعـرف فيما بعد باسم يشــار كمال، ولد يحمل اسـم كمال صديق غوكسلـي، في هميت القريـة القريبة من كيكروفا "السهل المجـوف" أخصب المناطق الزراعيــة في تركيا، (ربما ولد سنة ١٩٢٣ م، وهي السنة التي تأسست فيها الجمهورية التركيــة، فلا يمكن التأكد من تاريخ ميلاده بدقــة، لأنه لم تكن هنـاك سجلات، وحتى الآن هناك كثير من الولادات في تركيا لا يتم تسجيلها).

كان والــداه كرديان هربا من شرق الأناضول إذ كانا يمتلكان أرضًا، عندما احتلها الجيشـ الروسي سنــة ١٩١٥م، كان عم والــده آخر قائد لقبيلة لوفــان، وبمعايير تلك الفترة وذلك المكان كانت الأسرة ميسورة.

كانــت القرية التي أقاما فيهــا متألفة من ستين منزلًا بسيطًا من سقف قش واحد، أرضيتهــا وسخــة، يغطيهــا أثر الدخــان، كان السـكان الآخــرون من سلالــة البدو أو التركمان أقاموا هنـاك سنة ١٨٦٥ م، بعد ما تم قمع تمردهم من طرف العثمانيين،

ورغم ذلك لم يحس كمال أنه غريب عن المكان، كان يتحدث التركية بطلاقة أكثر من الكردية، ولا يعرف شيئًا من ثقافة والديه سوى الأغاني والقصص.

كل الرجــال من جانب أمه كانوا صعاليك وخارجين عن القانون، قليلون "مـاتوا في فراشهــم هرمــين"، مثلما كتب كمال "بخلاف والدها كلهــم ماتوا بعنف الرصاص"، وكانت أمه تفتخر كثيرًا بهذا الأمر وتتباهى به.

وكنتيجـة لذلك نمت عند كمال علاقـة رومانسية بهؤلاء الأشخاص، وكانت تعجبه كثـيرًا قصص خاله ماهيرو "الخارج عن القانون" الشهير في كل من شرق الأناضول وإيـران والقوقاز، الذي قيل أن جسده كانت به أربـع قلوب دليلًا على شجاعته، وكانت الأغاني التي تمجد ماهيرو كبطل شعبي، وقد ظهرت أصداء من تلك القصص الشعبية لاحقًا في روايات بشار كمال.

احتـل العنف مكانة محورية في حياة يشار كمـال من أن كان في سن الرابعة، حيث تعرضـ والـداه لطعنة خنجر داخل المسجـد، من قبل يوسف "ابنـه بالتبني"، فأردته قتيـلًا أمام عيني ابنه بشار، بعدها صارت أمه مسكونة بهاجس الانتقام، وأصرت بعد سنـوات على كمال بأن يقتل يوسف، متذرعة بشـرف العائلة وعلاقة الدم، لكنه رفض باستمرار، مما ترك خيبة أمل كبيرة على قلبها.

رسخت الحادثة في ذاكرته، فقد النطق على إثر ذلك، ولم يسترجعه إلا بعد مضي ثمـاني سنوات، قضاها فقيرًا رفقـة والدته نيجار هانم، وقبل سنـة من اغتيال والده، كان الصبي يراقب زوج عمّته، وهو يسلخ ذبيحة عيد الأضحى، فطار السكين فجأة من يد عمّه وانغرز عميقًا في عين كمال اليمنى مما استدعى استئصالها، فأصيب بالعور.

أتقـن يشار كمال فـن الحكي إتقانًا محكمًـا، فكان تلميذًا جيـدًا لأستاذه الروائي الفرنسي ستندال.

تتخلـل رواياتـه خليطًـا ومزيجًا من اللغة التركيـة، ولغة المـروي الشعبي في تعدده وتنوعـه، وفي بعض الأحيان تحتل اللغة التركمانية مكانة أساسية في أعماله، مثلما وهو الحال في مجموعته القصصية الصادرة بعنوان "الحمى الصفراء".

يقـول كمال عن والدته: "سـوف أصبح عاشقًا لأمي، وسأتجـول أيضًا بين الديار، كنت طفلها الوحيد، حيث أن عينيها لم تفارقني أبدًا".

مارلون براندو

أغـاني علمتني إياهـا أمي

ولـد مارلــون براندو جونيور في الرابع مــن مارس عــام ١٩٢٤ م، في أوماها بولاية نبراسكا، لأبوين من أصول إيرلندية، والده مارلون براندو الأب توفى عام ١٩٦٥ م، أما والدته دروثي بينباكر، وكانت ممثلة مغمورة وسكيرة وربما ورث الابن حبه للفن منها.

يقــول مارلــون براندو: "لقد أخــبروني أني ولدت قبل منتصــف الليل بساعة في ٣ أبريـل ١٩٢٤ في مستشفــى أوماها للــولادة، وكانت عائلتي قد عاشــت لأجيال في ولاية نبراســكا، وكانت بالطبــع تنحدر من أصــول إيرلندية، وكانت أمــي دروثي بينباكر في السابعــة والعشريــن ووالدي مارلــون الأب في التاسعة والعشريــن، وكنت الابن الوسط في الأســرة وتكــبرني أختــي جاكلين بخمس سنــوات، بينما أختي الصغــرى فرانسيس تصغرني بعامين، وكان لكل فرد في الأسرة اسم دلع. أمي كانت (دودي) وأب (بودي) وأختاي (تيدي) و(فراني) وأنا (باد).

وعندما بلغت السابعة كنا نعيش في بيت كبير، مبني من الخشب في شارع واسع في أوماها، على صفية بيوت مثل بيتنا وشجيرات عملاقة من شجيرات اللبخ، وكانت بعض ذكرياتي في تلك الفترة مفرحة، في البداية لم أكن ألتفت إلى الزجاجة التي تعب منها أمــي شرابهــا ، ولا تعاسة والدي الذي كان سكيرًا هو الآخــر، وكثيرًا ما كان يختفي في مغامرة يشرب فيها حتى الثمالة ويصاحب عاهرة، وعندما كنت صغيرًا جدًا أعدت أن أحمــل وسادة في كل مكان، احتضنها عندما يفاجئنــي النوم في أي مكان، وكلما كبرت أصبحــت أحمل وسادتي هذه وأصعد لأجد مأوى بين فروع الأشجار، التي اتخذت منها مملكتي الخاصة.

أكـثر ذكريات طفولتي عـن والدي أنه كان يتجاهلني تمامًـا، كان سمسارًا متجولًا يبيـع أدوات المنـازل، وعلـى استعداد دائم لأن يدس في يد "الفراش" ورقة بخمسة دولارات، لكـي يعـود إليـه بزجاجة شراب في يـد وعاهرة في اليد الأخـرى، ويلقي إلى موظـف الأمـن في الفندق بدولار؛ لكي يسمح له بالبقـاء في الحجرة، وكان يستمتع بأن يقـول لي لا أستطيع أن أفعل أي شيء صحيح، وكان محبطًا عاطفيًا إلى درجة مخيفة، ولم أحـظ منـه قـط بكلمـة ودودة، ولا نظـرة محبة ولا حتـى حضن حان، كنـت أحبه وأكرهـه في نفس الوقت، لكنني أفهم ظروفه وعقدتـه النفسية، عندما هربت أمه وهو في الخامسـة من عمره، وتركته لتربية عمه العجوز، وكان قد أحب أمي، وبادلته الحب وهمـا تلميـذان في المدرسة الثانوية وتزوجـا، وكانت أمي مخلوقة رقيقـة مرحة تعشق الموسيقـا والتعليم، لكنها لم تكن أكثر اهتمامًا من والدي، وحتى اليوم لم أفهم الدوافع النفسية، ولا الإحباطات التي جعلت منها سكيرة مدمنة.

بالطبـع عندي بعض الذكريات الطيبة، عندمـا كنت أنام بجاورهـا في الفراش، وخصـلات شعرها البني تنسدل فوق المخدة، وقـد راحت تقرألي كتابًا، ونحن نتقاسم زجاجة لبن وبعض البسكويت، وعندما كنا نجتمع لنغني وهي تعزف على البيانو، وكانت لسبب لا أدريه تعزف كل أغنية كتبت وذاعت، وعلى الرغم من أنني لا أذكر من رخصة قيادة حصلت عليها، إلا أنني ما زلت أذكر كل أغنية حفظتها عن أمي، وما زلت قادرًا على استعادة كل لحن صيني أو إفريقي، أو سواهما لأكثر من ألف أغنية سمعتها منها،

وأنا في السادسة انتقلنا من أوماها إلى إيفانستون بولاية ألينوا قرب شيكاغو، حيث كـوّن أبي شركته الخاصة، وفكرت أنني جاهز بالفعـل لهذه التغيرات، وخلال المدرسة في أوماهـا ولأسبـاب لا أدريها كنت الولد السيء في المدرسة، وكان علي أن أجلس تحت ترابيزة المدرسة، وكانت تجربتي الأولى في الحياة هي النظر تحت ملابسها، ومنذ تلك

السن أصبحت أتوه في الأرقام، وأنسى جمل الكلام بل إنني حتى اليوم أخطئ في أرقام مكالمة تليفونية لو حاولت أن أنظر إلى الرقم الذي أطلبه.

وزاد إدمان أمي على الشراب في إيفانستون، وأحيانًا كان الإدمان يصيبها بنوبات بكاء حادة، لكنه كان أيضًا يجلب لها السعادة والمرح، إلى حد أنها تجلس إلى البيانو لتغني لنفسها، ونحن غالبًا ما كنا نصاحبها في الغناء، كنت دائمًا وأبدًا أظن أنني كان يمكن أن أصبح أحسن حالًا، إذا قدر لي أن أنشأ في بيت للأيتام، كان والديّ يتحاشيا الشجار أمامنا، لكن كان يطغي على البيت جو من الغضب، وقد زاد هذا بعد أن انتقلنا إلى إيفانستون، وأصبح الشقاق والتوتر وعدم الرضا هو السائد في بيتنا لماذا؟ لست أدري لكنني أظن أن السبب هو أن والدتي أصبحت أكثر ضيقًا بسلوك والدي حيال العاهرات، وغضب أبي من إفراط أمي في الإدمان على الشراب.

عندما بلغت الحادية عشرة، انفصل والداي، وذهبت أنا وأختاي في صحبة أمي لكي نعيش مع جدتي لأمي، عرابة الأسرة وكنا ندعوها بيس أونانا في كاليفورنيا، كانت الجدة ضخمة الجسد ضخمة الصدر، بيضاء الشعر، أرستقراطية السلوك، وكإيرلندية كانت مرحة ومسلية، ولم نكن ندري قط ماذا يمكن أن يخرج من فم الجدة، كانت لها ضحكة مميزة، ولكنها تمتلك إحساسًا نادرًا بكل ما هو إنساني.

ودرست بالفصل السابع والثامن في مدرسة جولبوس لاثروب العليا في سانتا آنا، التي يعيش فيها مجتمع من المزارعين وحدائق البرتقال جنوب لوس أنجلوس.

في تلك الفترة، أدمنت أمي الشراب أكثر، وكانت تعد بالتوقف، لكن تختفي في مكان آخر لأربعة أو خمسة أيام، كانت أبدًا تحاول أن تدلل على حبها لنا عندما تكون في البيت، لكن نادرًا ما كانت تركز اهتمامها علينا، ولم أكن بالطبع أدرك سلوكيات مدمن الخمر، لكن مثل أختي كان علي أن أتعايش مع ذلك برغمي، وألوذ بالوحدة،

وكنت أقضي أن كل الناس المهمين في حياتي قد رحلوا عن الدنيا، وهذا إحساس صعب على فتى في الثانية عشرة.

و بعـد عامين، قررت أمي أن تعود لأبـي، وانتقلنا إلى ليبرتي في ولاية ألبينوا، وهي مدينـة صغيرة في شمـال شيكاغو بالقرب مـن بحيرة ميتشيجان، ومـرة ثانية داعبنا الأمل في بداية حياة جديدة ومثمرة.

مـرات عديدة كانت أمـي يغلبها السكـر ويخرجها عن صوابها إلى حـد أن زميلًا لهـا في بـار أو حتى غريبًا يحضرهـا إلى البيت، أو نبحث نحن عنهـا، أو يدق التليفون في البيـت ويقـول لنا أحد رجال البوليسـ: "لدينا هنا السيدة دروثـي بينباكر براندو، هـل يمكـن أن تحضـروا إلى القسـم لاصطحابهـا؟!"، وكانت أختي جاكلـين هي التي تتـولى شئـون البيت على الرغم من أنها لا تكبرني أنا وأختـي فراني إلا بسنوات قليلة، كانـت تشـرف على بيتنا مما جعلني دائمًـا أحمل لها شعورًا بالعرفـان، وفي غيبة أمي كنـت أعتمد عليهـا في توجيهي إلى ما سأفعلـه، كانت أبدًا تحرص علـى أن أجد شيئًا آكلـه وثيابًا نظيفة أرتديها، كان ثلاثتنا ومعنا والـدي أحيانًا، ننفق وقتًا في البحث عن أمي، كنت أتجول بين مشارب شيكاغو، وحاناتها المظلمة، أدفع أبوابها المتحركة وأنظر داخلهـا لعلي أجدها على أحد المقاعد أمام البار، وأنا في الرابعة عشرة، أحضرها أبي إلى البيـت ذات مـرة، وصعـد بها إلى الطابق الثـاني إلى حجرة النـوم، وبقيت أنا في حجـرة المعيشة، وسمعتها تسقط وسمعت صوت الصفعات والضربات وجريت صاعدًا، ووجدتهـا ملقاة فـوق الفراش تبكي وهو يقف فوق رأسها، وجننت من الغضب، وغرزت أسناني في جسده، وكأنني أملك قوة جولياث، وصرخت في صوت واضح: "إذا ضربتها مـرة ثانيـة سأقتلـك"، وكان مـن المحتمل أن نتقاتـل حتى الموت ما لم يمـلأه إحساس بالذنب، وخرج من الغرفة تاركًا أمي فوق الفراش،

أثنــاء عملــي في مسرحية "أتذكــر ماما"، عادت أمي إلى بيتنــا في (ليبرتي فيل) للحيــاة مع أبي ثانيــة، وبعد رحيل أمي كنت أنفق الكثير مــن الوقت وسط عائلة ستيلا آدلر، التي شجعتني وأعلنت للجميع بأنني سأكون ممثل أمريكا الأعظم.

كانت ستيلا ابنة لسارا وجاكوب آدلر، وهما نجمان من نجوم المسرح، وكان زوجها هارولد كليرمان كاتب ومنتج وناقد مسرحي جيد السمعة.

وعندمــا تشتد بي المعانــاة والإحســاس بالصدمات العاطفيــة أو الجسدية، كانت تقــدم لي ليس مهاراتها فقــط كمدرّسة، بل أيضًــا بيتها وعائلتهــا ودفء شخصيتها، وإدراكها الواسع وحبها.

يعتــبر مارلون براندو "الممثل الأعظم" في رأي الكثيرين من عشاق السينما تمامًا مثلما كان السير لورانس أوليفيه هو أعظم ممثل مسرحي.

مثــل برانــدو في العديد من الأفــلام أشهرها "عربة اسمهــا الرغبة" ١٩٥١ م، " يحيا زاباتا " ١٩٥٢ م " يوليوس قيصر " ١٩٥ م، " التانجو الأخير في باريس "١٩٧٣ م" المتوحشــ "١٩٥٤ م،" سوبرمــان "١٩٧٨ م" وفيلــم الأب الروحــي أو (العــرّاب) The Godfather و يعتــبر هــذا الفيلم من أشهــر أعماله، ورشــح ل ١١ جائزة أوســكار، نال منها ثلاثــة جوائز، كانت من نصيب براندو أفضل ممثل دور أول، وحقق الفيلــم عائدات أسطورية في شبــاك التذاكر تجاوزت ٣٠٠ مليون دولار، وهو مبلغ كبير في ذلــك الوقت، لكن براندو رفض الجائزة احتجاجًــا على معاملة الحكومة الأمريكية للهنــود الحمر، وقد انتدب في ذلك الوقت امرأة هنديــة، لتقرأ رسالة الرفض في حفل توزيع الجوائز، يذم فيها هوليوود على الصورة التي تظهرها للهنود الحمر في أفلامها.

تــوفي مارلون براندو في ١ يوليو عام ٢٠٠٤ م، وقد صدرت عنه العديد من المؤلفات أهمها مذكراته هو نفسه التي حملت عنوان "أغاني علمتني إياها أمي" ١٩٩٤ م، وقال

عـن هذا الكتاب: "قررت أن أسرد قصة حياتـي بأفضل طريقة أستطيعها، لكي يفرّق أبنائي بين الحقيقة والأساطير والقصص التي رواها البعض عني".

من الواضح أن هذا الارتباط الإمومي الجارف بأمه دروثي، فهو رحل معهما طفلاً عقـب انفصال أبويه، واستحضرها في عنـوان مذكراته، وعندما أسس شركة إنتاج في إحـدى مراحل حياته أطلق عليها (شركة بينباكر للإنتاج) وقد توفيت في مارس ١٩٥٤ م، في بداية مجده الفني.

توماس مـان. لقطات من حياتي

وُلدتُ في مدينة لوبيك سنة ١٨٧٥ م، كنت الابن الثاني ليوهان هاينريش مان، وهو تاجـر غلال وسيناتور في مدينة لوبيك الحرة، وزوجته بولادي سيلفا برونز، ينتمي أبي وجـدّي وأسـلافي إلى مدينة لوبيك من عهـد بعيد، إلا أن أمي ولـدت في مدينة ريودي جانيرو لأب ألماني يعمل مزارعًا، وأم ذات أصول برتغالية/ برازيلية.

حطّـت أمي قدميها للمرة الأولى في ألمانيا حينما بلغت السابعة من عمرها، وكانت امرأة ذات طباع لاتينية لا تخطئها العين، تتمتع بجمال أخاذ، وتتحلى بمواهب موسيقية لا تُبارى.

عندمـا أسـأل نفسي عـن المكونـات الوراثية التي طبعـت شخصيتـي، سرعان ما أستعيـد بيتًـا شعريًا صغيرًا لجيتـة ×، فأقول في نفسـي إنني ورثتُ عن أبـي ما يُسمى بجديـة حياة القائـد، بينما ورثت عن أمـي مزاجها المشرق، أو الطبـع الفني الحسي، فضلًا عن ميلها الجارف إلى الحكي وسرد القصص،

وقـد تأثـر توماس بهذه المناخـات الثقافيـة، وانصرف للقـراءة والاطلاع في سن مبكرة، وبعد وفاة أبيه عام ١٨٩٣ م، اضطر توماس أن يترك الدراسة، وقرر أن يصبح أديبًـا، فسافر إلى ميونخ، ونشر مجموعته القصصيـة الأولى عام ١٨٩٤ م، بمساعدة أخيـه الكاتب المعروف هاينريش مـان صاحب الرواية المشهورة "الملاك الأزرق"، وقد جمعـت بين الأخويـن صداقة حميمـة، حتى أنهما رحـلا سويًا إلى برلـين، حيث عمل تومـاس لدى دار النشر (فيشر)، وأقام الأخـوان في إيطاليا لمدة عامين، وعاد توماس بعد هذا إلى ميونخ ليواصل الكتابة القصصية، التي لفتت الأنظار إلى موهبته المبكرة.

كتـب العديد من الروايات مثل (صاحب الجلالة)، (الموت في البندقية) و(الجبل

السحري) وتميز أسلوبه بالكوميديا اللفظية الساخرة والغموض، يرى بعض النقاد أن جائزة نوبل قد شرفت بذهابها إلى كاتب من طراز توماس مان، ولولا ذلك ما كان لها أيـة قيمة، وسواء فاز بها توماس أو لم يفز، ما توقفت مسيرته الإبداعية، وشهرته التي ضربـت الآفـاق كواحد من أهم الروائيين في النصـف الأول من القرن العشرين، تكبد توماس مان آلام المنفى منذ أن رحل إلى سويسرا في عام ١٩٣٣ م، وسحب النازيون منه الجنسيـة الألمانيـة في عام ١٩٣٦ م، وظل هناك حتى وافته المنية في ١٦ أغسطس / آب عام ١٩٥٦ م، مخلفًا وراءه تراثًا أدبيًا ضخمًا، ودرسًا للأجيال اللاحقة عن دور الكاتب والمثقف في مجتمعه، ورفض الإغراءات الزائفة التي تعجل بنهايته،

وهو ما أعلنه في مقالة (تأملات رجل غير سياسي) ١٩١٨ م، إنه لم يعد يؤمن بأن السياسـة لا تهم الفنان، بل اعتبرها أخلاق عامة، وشيئًا يحتم على الفنان أن يشترك فيه للمحافظة على المجتمع الذي يسمح له بالخلق الفني.

بيتر هانـدكـة

الشقـاء العـادي

روائي نمساوي وكاتب مسرحـي، ومخرج سينمائـي، وكاتب سيناريو، يطلقون عليه اسم "الأديب الكاميرا" لدقة تصويره لمشاعر الإنسان، ولمظاهر الحياة اليومية التي تحوطه، حاصـل على جائـزة نوبل للآداب عـام ١٩١٩ م، تنـاول قصة وفـاة أمه في قصة بعنـوان "محنـة" في عـام ١٩٧٢ م، التي ماتت مـن الاكتئـاب في ٢٠ نوفمبر ١٩٧١ م بباريس، وحولت إلى فيلم سينمائي في عام ١٩٧٤ م،

في رواياتـه (الشقاء العادي)، يتنـاول الكاتب النمساوي الحائـز على جائزة نوبل لـلآداب ١٩١٩ م، بيتر هاندكة عن حادثة انتحـار والدته، وهي في الواحدة والخمسين من عمرها، في ٢١ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٧١ م، وقراره الكتابة عن حياتها وقرارها وضع حدٍ لها،

القصـة كما يبـدو بسيطة، لأنها قصة حياة فارغة، رتيبـة، خالية من أي تطلب أو رغبـة، حيـث لا تجد الاحتياجات طريقها إلى البوح، باعتبارهـا نوعًا من الكماليات أو الشـرف، حيـاة انتهت في مطلع ثلاثينياتها، رغـم أن صاحبتها كانت تحلم في صغرها بـأن تحقـق ذاتها، راجية أهلهـا "بأن يسمحوا لها بـأن تتعلم شيئًا"، بيـد أن مشروع الكتابـة هذا سيبتـدي × صعب التحقيق لصاحبه، بل شبه ممتنـع عليه، لاحتوائه على مـا يستحيل التعبير عنـه بالكلمات والجمل، وهـو مادفع الكاتـب إلى تأجيل مشروعه أكـثر من مرة، خشية وترددًا، ثم إلى استجماع قواه، فالمباشرة بالكتابة بعد مرور عدة أسابيع على دفن أمه،

ومــع هذا تظهــر الروايــة بطريقة إراديــة ومقصود تلــك الحــيرة، بالتعبير عنها بطريقــة مباشرة تــارة، وباختيار أسلوب كتابــة بعينه تارة أخرى، أجــل يقول هاندكة الصعوبــة التــي تواجهــه في عمليــة الكتابة عن والدته، مــن دون أن يلجــأ إلى التعابير التقليديــة غير الذاتية، ومن غير أن يفصح عن انفعالاته ومشاعره، فالمشاعر الوحيدة التــي لا يجرؤ على قولها لا تتصل البتة بحزنه وحداده، وإنما بالمصاعب التي تعترضه، التــي يسخر الكاتب منها باعتبارها من طرق التكــبر الثقافي، مع اعترافه بأنها تجربة عصيــة علــى القول، وغير قابلة للمشاركة مع آخرين: بالطبــع بمستطاعه أن يفعل كما يفعــل الآخــرون، أن يستخدم المصطلحــات الجاهزة، التي تستعملهــا الأكثرية، إلا أنه يرفض الأمر بشدة، لسبب أخلاقي: فذلك يعني إرادة والدته ، ويتنكر لها فهو فريد في تجربة الحداد على رحيل شخص غال.

يقــول هاندكــة: "ها قد مرت سبعــة أسابيع على موت أمــي، وأود أن أنصرف إلى العمــل قبل أن يتحول من جديد إلحاح الكتابة عنها، وكان بالغ القوة لحظة دفنها، إلى مثل ذلك الصمت الذابل، الذي انتابني يوم بلغني نبأ انتحارها"،

أن أنصــف العمــل: ذلك أن الحاجــة لكتابة شيء ما عن أمــي، وأن انتابني أحيانًا "بإلحــاح شديــد"، إلا أنها في الوقت نفسه على قــدر من الغموض يلزمني جهد إرادي كبير، لكي لا تتكرر آلتي الكاتبة، انسجامًا مع حركتي الأولى، نفس المقطع اللفظي على الورقة، مثل هذا العلاج بالحركة، وحده لن يجعلني أفلح في شيء، ولن يجعلني إلا أكثر حيادًا وعجزًا.

وكذلك السفر، ومن ثم أثناء الرحلة في الطريق، قد لا تثقل أحلام يقظتي وتسكعي الإرادي على أعصابي بهذا القدر.

لم يكتــب هاندكــة هذا النص إلا باقتفائــه مواضع "الشغــور" إذ تفارقها الحياة التي لا حالة فيها.

الألم ومواضعـه وكيـف يبني الألم الأشد في صورة الغيـاب، وكأن المرأة التي تركت أطيافًـا لها في الأرجاء، لم تصبح حقيقة (كما تكون الحياة حقيقة) إلا بعد أن غادرت بهـدوء وصمـت، (الشقاء) ليس مرثاة، بل ربمـا كان في تجربة بيـتر هاندكة المميزة تمريـن (الكتابـة الحقة)، حيث تفقـد اللغة كل حيلة وتكـون الأحاسيس مجردة، لا بل ربما ينبغي القول: وتكون مجرد من أحاسيس.

أليـف شافـاق
حليب أسـود

هــي روائية تركية تكتب باللغتين التركية والإنجليزية، وقد ترجمت أعمالها إلى ما يزيد على ثلاثين لغة، اشتهرت بتأليف رواية (قواعد العشق الأربعين) سنة ٢٠١٠ م

ولدت أليف بيلغين، في ٢٥ أكتوبر ١٩٧١ م، في ستراسبورغ في شرق فرنسا، لوالدين همـا الفيلسوف نوري بيلغين، وشفق أتيمان التي أصبحت دبلوماسية، فيما بعد انفصل والدهـا عندما كان عمرها عامًا واحدًا فربتها أمها، وتقول الكاتبة أن نشأتها في عائلة لا تحكمهـا القوانـين الذكوريـة التقليدية كان له كبـير الأثر على كتاباتهـا، وتستخدم الكاتبـة اسمها الأول واسم أمها كاسم أدبـي توقع به أعمالها، بهذا الاسم الذي يحمل معنى محبب لدى الكاتبة، حيث أليف: يعني حرف الألف في الأبجدية العربية، شافاق: هو اسم والدتها الذي اختارت أن تحمله وهو بمعنى شفق أي الفجر.

أمضـت طفولتهـا وصباهـا متنقلة بـين مدريد وعمـان وكولونيا قبـل أن تعود إلى تركيا، وهاجرت إلى الولايات المتحدة لتواصل دراستها أولًا، ثم لتشغل منصب أستاذة معاصرة في مـادة الدراسات والأجناس في جامعة أريزونا، تقول أليف شافاق: "ولدت في فرنسـا وعدت إلى تركيا مع أمي بعد أن انفصلت عن أبي، وتكفلت والدتي بتربيتي، وهـذا ترك أثرًا عميقًا في شخصيتي وكتاباتي، ففي مجتمع بطريركي مثل تركيا، ليس مـن المألوف أن تتولى الأم تربية ابنتها في غياب العائلة الكبيرة، وفي التاسعة عشر من عمـري عُينت أمي في السلـك الدبلوماسي، وسافرنا معًا إلى مدريـد وعمان وكولونيا، وهكـذا كانت العالمية رديفًـا لطفولتي، قم أصبحت خيارًا شخصيًا، لقد اخترت العيش بمفهوم العالمية، أشبه بحياة امرأة بدوية مرتحلة".

حليب أسود:

بعــد إعطاء شافاق هامشًــا واسعًا من كتاباتها لعالمها الروحي، عادت لتسبر أغوار هرموناتهــا براويتهــا (حليب أسود)، الحليب المسكوب مــن أم مصابة باكتئاب ما بعد الــولادة، تتحدث تلــك الرواية عــن الصراع بين الكاتبــة الأنانية، التــي تحتاج للهدوء ومــا بــين الأم المتفانيــة المليئة بالعطــاء، فالثابت علميًــا أن كيمياء جسد المــرأة يتغير بعــد الــولادة، لتمر بمرحلة مــن الاضطراب العاطفــي، رواية تتأرجح مــا بين الأمومة والاكتئاب، وخلاصة التجربة خاصة لشافاق الأم هي تقديرها للأمومة والاكتئاب معًا.

فالأمومة هبة رائعة وجميلة والاكتئاب فرصة للتوقف وتأمل النفس لإعادة بنائها، وهي التي عاشت الاكتئاب بتجربة توقفت فيها عن الكتابة لعدة أشهر في انهيار أعادت به تركيب ذاتها بحلة جديدة.

تتحدث شافاق عن الهوية الجنسية، وتأثيرها على الذات وهي المؤمنة بتحرر المرأة والمســاواة بين الجنسين، فقد عاشت تجربة خاصة ألهمــت نشاطها النسوي، تعبر عن عــودة أمها إلى تركيا بروح ضعيفة بعد طلاقها بعمر العشرين قائلة: "جدتي ساعدت أمــي كثيرًا، رغم أنها شرقيــة وروحانية جدًا، بينما كانت أمي مدنية النشأة وعصرية، فبعــد الطلاق وكانت قد تركت الجامعة بدون مؤهــلات، الطبيعي في تلك الظروف أن تتزوج المرأة المطلقة لتستر نفسها وهذا هو السائد، لكن جدتي ساعدت أمي كثيرًا إلى الجامعة وتؤمن وظيفة وتستعيد قوتها".

متى نكبر في أعين أمهاتنا ٧؟

في مقــال لها تتســاءل شافاق عن اللحظــة التي نكبر فيها بأعــين أمهاتنا، وتجيب قائلــة: "حــدث ذلك قبل سنوات كنت وقتهــا أكتب (قصر القمــل) أو (شرف)، كنت منزويــة في ركــن مستغرقة في رحلــة داخل نفســي، أمامي على مكتبتــي كتب ومعاجم

وأوراق وجهــاز الحاسـوب، كنــت أكتــب، بلغت منتصـف الروايــة الآن، والشخصيات اكتسـت عظامها ولحمهـا وتشكلت، أتجول في عـالم الخيال، وبينما أنـا مستغرقة إذا صوت أمي يأتي من الداخل، واضح أنها تتحدث على التليفون: "من الجيد أنك اتصلت يـا سمراء"، من يدري مـن كانت تكلم؟ إما قريبة أو صديقة قديمة، تتكلم وتتكلم، ثم تحـول محور الحديث إلى "أيه ألف أيضًا بخير، كما عرفتيها، تقرأ باستمرار، ستعمي عينيهـا، تذاكـر دروسهـا بالداخـل"، أذاكر دروسـي؟ مرت سنين منـذ تخرجت من الجامعـة، ما أفعلـه ليس له أي علاقة بالدراسة، فكتابـة الروايات هي عملي ووظيفتي وهوايتـي، لكـن لا مشكلة، فأنا ما زلـت في عين أمي التي اسمها هـو نفس اسم عائلتي (شفـق) طالبة في الجامعة مرت سنوات على ذلك الموقف، كان قد صدر كتاب (حليب أسـود)، وكنت أعقـد مؤتمرًا صحفيًا، الأجـواء جدية، والأسئلة خشنـة، وهاتفي على الوضـع الصامت، فجـأة تتصل السيدة (شفق)، لم أتحمـل فأجبتها، "ألف عزيزتي، الآن في السوبـر ماركـت، المحاسبة هنا تقول أنها تحبك جـدًا، اسمها نازان، وهي من تونجلـي، سأعطيها الجوال، سلمي عليها!" وقبل أن أستطيع قول (لكني مشغولة) إذا بصـوت شخص غريب في أذني، كانت فتاة شابة صوتها يرتجف من الحماس "مرحبًا سيـدة" شفق "لقـد قرأت كل شيء كتبتـه، أحبك جدًا" كانت تتكلـم من قلبها وبكل بـراءة، فرددت عليها بنفـس النبرة "مرحبًـا" وقتها كان الصحفـي الجالس أمامي يراقبنـي بفضـول وسخرية، من يـدري ماذا سيكتـب عني الآن؟ استمـررت على هذا الوضـع متحدثة إلى هـذه الفتاة لمدة عشر دقائق، بعدها تناولـت أمي الجوال "جميل أنكما تعرفتما على بعضكما، مع السلامة".

بعد سنة أو سنتين، كنت في معرض كتاب، لقاءات وأيام توقيع متعاقبة، أولًا أعطيت كلمـة طويلة، وبعدها تعرضت لسيل القراء، أسئلة تلـو أسئلة، ثم تصفيق طويل بعدها

دخلنــا إلى الصالــون الداخلــي، كان هناك صف طويــل جدًا، كان مستعــدًا أن ينتظر ساعتــين حتى يلتقط الصور معي، أو يحضننــي، أو يحصل على توقيع، كما كان هناك صحفيــين وكامــيرات وازدحام وارتبــاك، في تلك اللحظة تتصل بــي السيدة (شفق)، عندهــا وفجــأة، تتغير السيدة الحكيمة العارفة بكل شــيء، المتحدثة من فوق سحابتها (أنــا) تمامًــا، فأصبح طفلة صغــيرة أهمس للجــوال "أمي أنا حفل توقيــع، رأيتك في التلفزيون، لماذا لم تخبرينني؟ لماذا لا أعرف عن نشاطاتك إلا من الصحافة، وأكملت تتكلــم دون أن تتيح لي مجالًا لأجيب علــى هذه الأسئلة المستحيلة، "ربما لا تتذكرينها، السيــدة منور جارتنا القديمة اتصلت تبارك لك، إنها تتذكر طفولتك، لقد استفرغت في بيتهــا مــرة، أكلت أربــع بيضات، من الطبيعــي أن تستفرغي، مازالــت المرأة تتذكر الحادثة إلى اليوم.

بينمــا كنت أستمع إلى كيفية استفراغي وأنا طفلــة، جاء الأصدقاء من دار النشر إلى جانبــي والناشــر "سيــدة (ألــف)، جاهزون للتوقيــع متى كنت جاهــزة، الجميع ينتظــر بفارغ الصبر، والحضور كبــير" فأقول لهم خلال دقيقــة سأنهي المكالمة، كان العرق يسيل بغــزارة، وأمي تكمل كلامها، والجيران أيضًا يبلغون سلامهم وأصدقائك مــن المدرســة أيضًا، لا تنسي إحضــار كتب موقعة؛ أحدها لخليــل السباك الذي أصلح حنفيتنا، هــو خاطب، وخطيبته تحبك اسمها سميراء، لا تنس سميراء وليس حميراء، إنــه يدعوك إلى حفل زفافهم، وقد دعاني أنــا أيضًا، لقد وعدت ثلاث بنات في المشغل أيضًــا "لحظتهــا انفصلت عن محيطي، في تلــك اللحظة لا أدب، لا فــن، لا فلسفة، لا كتــب، كنت مشغولة بفهم لغة السيدة (شفــق)، لم تكتشف شفرة لفهم لغتنا بعد" أي مشغــل يا أمي؟ فتقول: "فتــاة المناكير" تريد رواية الهارب وأمين الذي يصبغ شعري، إنــه شاب محترم، هو أيضًا يريــد رواية اللقيطة، كما هناك الــذي يحضر الشاي، هو

أيضًا يريد العشق الممنوع، لكنه لا يريد الوردي، احضري ذو الغلاف الرمادي، وأخيرًا عندمـا تنتهي المكالمـة، كان الانتقال من هوية (بنت أمهـا) إلى (كاتبة قراءها) يأخذ بعض الوقت، أشرب كأس ماء بارد، ثم أباشر التوقيع بأسلوب في غاية الجديّة.

متـى سنكـبر في أعين أمهاتنا؟ بعد نشر كـم رواية للكاتب؟ بعد إصـدار كم ألبوم للموسيقا؟ بعد كم إطروحة للأكاديمي؟ وبعد كم مرة يكسب السياسي؟ بعد كم عملية للدكتور يصبح بعدها بالغًا في عيني أمه؟ لا أعرف!

ليدي سالفير
تحرير الأم من ماضيها

فــازت ليدي سالفــير ١٩٤٨ م بجائزة "الغونكور" لسنــة ٢٠١٤ م عن روايتها (لا بكاء) (منشورات لوسوي)، وتربعت لثلاثة أسابيع، على سلم أهم المبيعات في المكتبات الفرنسية.

آخر امرأة فازت "غونكور" قبل سالفير كانت الكاتبة السنغالية الأصل، الفرنسية الجنسية، ماري ندياي في ٢٠٠٩ م.

وفي هــذه الرواية يعود القارئ إلى سنــوات الحرب الأهلية في إسبانيا، ويستمع إلى صوتــين يتقاطعــان فيما بينهمــا، صوت جــورج بيرناسوس، المُندد بالحــرب وبسياسة فرانكــو، وصوت مونتيســ، أم القاصّة، التــي كادت تفقد صلتها بماضــي الذكريات لو لا مساعــدة ابنتها لهــا، وتدوينها لحكايات الحرب والسلم، همــا صوتان يتزاحمان في الرواية نفسها، ويضعانها في صلب نقاشات ثقافية راهنة.

إثر فوزها بدقائق، قالت ليدي سالفير بفرح بالغ: "كان للكتب التي كتبت حتى الآن عدد من المتلقين محدود، أما الآن فسيكبر هذا العدد، إنها كبيرة"، لقد استقت الكاتبة عنوان روايتها مــن مسودة رسالة كانت الشاعرة الروسية مارينا تسفيتا تنوي إرسالها إلى برويس باسترناك، وفيها تشتكي من البرد والجوع، ومن مشاق الحياة اليومية، إلا أن الشاعــرة الروسية كفت في لحظة معينة عن كتابــة تلك الرسالة، ورفعت قلمها إلى الأعلــى، منزعجة من التشكي الذي تركت نفسها تنصــرف إليه، وقالت لا بكاء، ليدي سالفــير ابنة إسبانيــيّن جمهوريّين اختارا فرنسا منفى لهما، فهي مولودة سنة ١٩٤٨ م في فرنسا قرب تولوز، وما عاشته أمها هو ما أوحى لها بروايتها (لا بكاء).

هــذه الرواية هــي، في قسم منها قصة أمهــا (مونتيس)، وقد كانــت في الخامسة عشــرة سنة ١٩٣٦ م، التي شهدت إندلاع الحرب الأهليــة بإسبانيا، وقد فرت الأم إلى برشلونة مع أخيها جوزيه، وكان ثوريًا، وفيها اكتشفت الحب والفكر الثوري.

في الصفحتين الأخيرتين من الرواية، نجد الكاتبة تتحدث عن الأم التي استعادت بذاكرتهــا الحب الذي عاشتــه في كاتلونيا، وهي في الخامسة عشــرة، بالصورة التالية ١١ فبرايــر ٢٠١١ م، أمي جالسة في كرسيّها الضخم، ذي الذراعين الأخضرين، قرب النافذة التي تنفتح على باحة المدرسة، لقد أتعبها الحكي عن صفها الباهر.

فرحها بالحديث عنه أتعبها، من بين كل ذكرياتها تكون أمي قد احتفظت بأكثرها جمــالًا، ذكرى حية مثل جرح، كل الذكريات الأخــرى باستثناء القليل منها، ومن بينها ذكرى ولادتي، قد امَّحَت. لم يترسخ في ذاكرتها سوى صيف ٣٦ذاك، حيث احتضنتها الحياة والحب.

تقــول ليدي سالفــير: "عندما حطت أمــي الرحال بفرنسا عــام ١٩٣٩ م، لم تكن تعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية، لكنها استطاعت رويدًا رويدًا أن تهتدي إلى لغة، وهي عبارة عن مزيج من الفرنسية والإسبانية ممتلئة بالأخطاء، يلفها الغموض والبربرية.

لغــة فرانكو- إسبانية "فرانيول" هكذا اسميهــا وأنا طفلة، كنت أخجل من نفسي عندمــا أتكلم بها، لأنها كانت إشارة صريحــة إلى أن أمي كانت أجنبية، لم تندمج بعد في المجتمع الفرنسي.

كنــت دائمة الاعتقاد أنها كانت تسيء إلى اللغــة الفرنسية، ولكنني بعد أن كبرت، فكــرت أنها في واقــع الأمر خدمت الفرنسية مــن حيث أنها صارت أكــثر رونقًا، وأكثر شاعرية، مانحة إياها نفسًا آخر، كانت تجددها وتنعشها في حقيقة الأمر.

لقــد كنــت سعيدة جدًا وأنا أحيي مــن جديد هذه اللغة، ولعلنــي بذلك بطريقة أو

بأخـرى، إحياء روح أمي، طالما أنها لم تعد موجـودة بيننا، في الآونة الأخيرة، اكتشفت أننـي كتبت أيضًا بهذه اللغة، ومنذ أمد طويل، ولكـن بطريقة خفيّة، لأنني لا أعتقد أن لغتـي الفرنسيـة، كانـت تُصنع خفيـة، دون أن أدري، من طرف اللغـة الإسبانية، على سبيل المثال، صيغة الشرط الناقص، الذي استخدمه في كتاباتي بكثافة، هو استخدام لمحادثة إسبانية شائعة جدًا.

كانت تتملكها رغبة شديدة في الاندماج، وأن تتحدث اللغة الفرنسية بيسر، إلا أنها لم تستطع تحقيق ذلك، أنا سعيدة كوني وضعت جميع هذه الأشياء في مكان آمن، فقد كان يمكن لها أن تندثر، كما أنني جدّ مسرورة بشكل خاص، لأنني منحت حياة جديدة لأمـي، وذلك بتدويـن اسمها الكامل داخـل الكتاب: "مونتسـرات مونكليس أرجونا"، لعلني بذلك أضع اسمها في مأمن، لكي تعيش قليلًا أيضًا.

تأليـف هذا الكتـاب كان صعبًا على نفسي، ففي نهايتـه ينتصر (فرانكو)، وتجبر عائلتي على المنفى في فرنسا، ولكنه الوفاء لروح أمي التي كانت تقول إنه يجب ألا نبكي، بـل نصـرّ على الضغط على الأسنـان، يجب ألا نتقوقع داخل وجعنـا، ولا نستدر شفقة أحد، كنت أحب هذا كثيرًا منها.

ولم أكـن أرغـب في أن أركز علـى الأسوأ مـا في القصة وهو المنفـى، الوصول إلى فرنسا في معسكر الاعتقال "أرجيل سورمير" ومعسكر الحجز في (مزاكو)، والسنوات الرهيبة التي تلت ذلك، لقد كانوا يفتقرون إلى كل شيء، لا يحسنون الكلام، ويعيشون في أماكن قذرة، الوضع كان صعبًا للغاية.

رولان بــارت
يوميّات الحــداد

"لن تكون أمي بعد اليوم، هنا في باريس، لترى الثلج أو لأخبرها عنه"

رولان بارت

بعــد الأوراق الخاصــة وغير المنشورة لــرولان بارت حول رحلتــه إلى الصين، التي أعدهــا الكاتب فيليب سولرز، تظهر إلى العلن أيضًا أوراق خاصة وحميمة لبارت كتبها بعد وفاة أمه، وتصدرت دار (سوي) بعنوان (مذكرات حداد)، ويقول بارت أن والدته كانت كل شيء بالنسبة له.

توفــى والــده وهو لم يبلــغ السنة، وقد عاش معهــا حوالي الستين عامًــا، عمل على خدمتهــا في مرحلة شيخوختها ومرضها في أيامها الأخيرة، أما تاريخ ٢٥ تشرين الأول ١٩٧٧ م فهــو تاريــخ الحــزن؛ لأن أمه أو هنرييــت بينجر بارت رحلت عــن هذه الدنيا، وكانــت تبلــغ ٨٤ عامًــا، ما شــكل له مأســاة كبيرة وصدمــة لصاحب المؤلــف الضخم "الميثولوجيــات" الــذي راح يتساءل حول جدوى أن يستمر في الحيــاة أو أن يستمر في العمــل، في التعليــم أو في الكتابة، وفي الواقع منذ ذلــك التاريخ لم يعد رولان بارت على طبيعتــه، تغيرت حياته وعاش بعدها ثلاثة أعوام لخصها بالتالي: "أعيش من دون أي هدف من دون أي رغبة بأن يقرأني أحد".

بــدأ بارت كتابة هذه اليوميــات في اليوم التالي لوفاة والدته في المدة من ٢٦ أكتوبر ١٩٧٧ م إلى ١٥ سبتمــبر ١٩٧٩ م، وكان يكتــب بالحبر وأحيانًــا بالقلم الرصاص على بطاقات كان يعدها بنفسه، من أوراق ذات مقاس موحد كان يقطعها إلى أربعة أجزاء، وكان يحتفظ دائمًا باحتياطي منها على منضدة عمله.

توجـد المجموعـة الكاملة مـن صندوق البطاقـات، التي جمعهـا رولان بارت تحت عنوان "يوميات الحداد" في كتاب يحمل العنوان نفسه، بتفسير ناتالي ليجر، وترجمة إيناس صادق، وقد صدر مؤخرًا عن المركـز القومي للترجمة، تذكرنا ناتالي ليجر أنه في أثناء كتابة اليوميات كان بارت يقوم بتحضير دراسة عن "المحايد" في الكوليج دي فرانس، وكتب (الحجرة المضيئـة) وقام بتحرير الأوراق الخاصة بمشروعه "فيتانوفا ـ حيـاة جديـدة" ، كما قام بتحضير دراسته المزدوجة عن "إعداد الرواية" في الكوليج دي فرانس، وتندرج هذه الأعمال الكبرى كلها بوضوح تحت معنى موت الأم.

ولد هنرييت بينجر سنة ١٨٩٣ م، وتزوجت لويس بارت وهي في العشرين، وصارت أمًا في الثانية والعشرين، وأرملة بسبب الحرب في الثالثة والعشرين، عندما ماتت وهي في الرابعـة والثمانـين من عمرهـا، كان ابنها في الثانية والستـين، ولم يكونا قد افترقا قط، ورولان بارت كاتب، ناقد، فيلسوف، ولغوي وعالم في السيميوطيقا (علم الدلالات) درس في جامعة باريـس، وتأثر بماركس ونيتشـة وفرويد وسارتر، ولـد في فرنسا عام ١٩١٥م، وقبل أن يتم عامه الأول، قتل والده الضابط البحري في إحدى معارك الحرب العالميـة الأولى، ربتـه أمه وخالتـه وجدته، وانتقلت عائلتـه إلى باريس وهو في الحادية عشرة، وفي ٢٥ فبراير ١٩٨٠ م أصيب في حادث ومات بعدها بشهر.

(يوميـات الحداد)، مشروع كتاب لرولان بارت، يرثـي فيه أمه التي ماتت وهي في الرابعة والثمانين عامًا، لكنه مات قبل أن ينشره، ناتالي لينجر جمعت تلك اليوميات في كتـاب، صدرت ترجمته إلى العربية حديثًا عن المركز القومي المصري للترجمة، يتألف الكتاب من ٩٩ صفحة وهي مرتبة ترتيبًا تاريخيًا.

صاحـب كتاب "لذة النصـ" كان أبوه ضابطًا في البحريـة التجارية، مات خلال معركـة في بحر الشمال عام ١٩١٦ م، ويحسب البعض في أن السبب المباشر لموت بارت

لم يكـن حـادث السير، وإنمـا المضاعفات الرئويـة الناجمة عن حالـة الفشل المزمن لجهـازه التنفسي، وهـو ما جعل النيابة العامـة في باريس تبرئ سائـق الشاحنة، التي دهستـه وهو بلغـاري الجنسية، ومع ذلك تواصل إصـرار البعض على أن صاحب كتاب (النقد والحقيقة) تعرض لحادث دهس كان وليد مؤامرة.

وبحسب سيرته الذاتية أيضًا، بقي موت والدته أهم عامل من عوامل تنامي أحزانه، فقـد مثلت بالنسبة إليه، منذ وفاة والده، المرجع العـالي الوحيد والمتكأ العاطفي الذي يلـوذ به كلما فترت رغبتـه في الحياة، وبموت والدته، حفلـت دروسه الجامعية بمعاني الفقد والوحدة والحزن على غرار درسه المعنون بـ (المحايد) (كوليج دي فرانس ١٩٧٨ م)، وكتابـه (الغرفة المضيئة) ١٩٦٩ م، وشذراتـه المعنونة بـ (يوميات الحداد)، وجاء فيها: (لم أكن مثلها، لأنني لم أمت معها).

اليوميات:

٢٩ تشرين الأول ١٩٧٧ م

تسكننـي فكـرة - مفاجئة ولا تخيبنـي، بأنها لم تكن كل شـيء بالنسبة إلي، وإلا لم أتمكـن من كتابة مؤلفات خاصـة، ولكن منذ ستة أشهر صـارت كل شيء بالنسبة لي، ونسيـت كليًا بأنني كنـت أكتب، لم أعد سوى لهاو × بجنون ومـن قبل، كانت تحاول أن تكون دائمًا شفافة ومتوازية لأتمكن من الكتابة.

٣١ تشرين الأول

الاثنين، الساعة الثالثة بعد الظهر، عدت وحدي للمرة الأولى إلى شقتي، وكيف بي وحدي أن أعيش وحدي هنا، وبالمقابل، لا أمل بل اليقين بأن الوضع لن يتغير،

٥ تشرين الثاني

أمضيـت بعـد الظهر حزينًا، فقمت بشـراء حاجياتي، عند بائـع الحلوى اشتريت

قطعة وسمعت البائعة تقول وهي تخدم زبونة: (هذا هو!) وكان التعبير عنه الذي كنت أقولـه لأمي عندمـا أجلب لها أي شيء وأنا أخدمها، وذات يـوم وكانت في أيامها قالت وهـي شبه غير واعية: "ها هـو أنا هنا!" التي قلناها لبعضنا طـوال حياتنا معًا، كلمة البائعة هذه جعلت الدموع في عيني، وبكيت طويلًا بعد أن عدت إلى شقتنا الصامتة،

هكذا أفهم حدادي عليها، فهو ليس مباشرة في العزلة والوحدة ألخ...

استمر بحد أقصى من الانضباط والراحة، ما يجعل كل من حولي يعتقد بأنني أقل حزنًـا مما أنا عليه، أما حـزني فهو هنا حيث تتمزق علاقة الحـب، حيث تتمزق كلمة (نحن نحب بعضنا) من النقطة الأكثر تجريدًا.

١٩ تشرين الثاني

طوال أشهر كنت أنا أمها ×، وكأنني أن من يفقد ابنته (وهل من ألم أكبر من هذا الألم؟ لم أفكر حتى به).

٣٠ تشرين الثاني

لـن أقول: (حداد) إنما كلمة تخوض بقـوة في التحليل النفسي، فأنا لست في حالة (حداد) أنا أعيش الحزن.

٧ كانون الأول

الآن، وأحيانًـا يطلـع من داخلي مثـل الفقاقيع التي تنفجـر الاستنتاج التالي: (لم تعـد موجودة، لم تعد موجـودة) إلى الأبد، وبشكل كامل، الأمر يشبـه حالة الإحساس بالجفاف، من دون صفة لأنها ستكون غير معبرة، أنه نوع جديد من الألم.

٢٧ كانون الأول

حالة عنيفة من البكاء، (بعد قصته حول الزبدة وبائع الزبدة مع راشيل وميشال)، الألم لأننـي ملزم بالعيش في منزل آخر، وكل شيء هنا في "أو" يذكرني بمنزلها، وكل ثنائي (زوج) يشكل حاجزًا والفرد منه مطرود.

١٢ شباط ١٩٧٨ م

ثلــج، ثلج كثير فــوق باريس، الأمر غريب أقول في ذاتي وأتــألم: لن تكون بعد اليوم هنا لترى الثلج، لو لأخبرها عنه.

٦ آذار

معطفي حزين، والمشلح الأسود أو الرمادي الذي أضعه دائمًا، والذي لم تحبه أمي علــى مــا أعتقد، أسمع صوتهــا تقول لي بأن أغــير وأضع قليلًا من الألــوان، لذا للمرة الأولى، أضع مشلحًا ملونًا (ألوان الكوسيه).

٢٠ آذار

يقــال (وتقول لي السيدة بانزيرة) الوقت يهدئ الحزن. كلا، الوقت لا يجعل شيئًا يمر، هو يغير فقط انفعالية الحداد الأولى.

٢ نيسان

مــاذا يمكن أن أفقد الآن بعد أن فقدت السبــب الرئيسي لحياتي، ولم يعد لدي ما أخاف عليه.

دوي كازا: ٢٦ نيسان ١٩٧٨ م صباح عودتي إلى باريس:

- هنــا وخــلال خمسة عشــر يومًا لم أكف عــن التفكير بأمــي، ولم أكف عن الألم بسبب موتها.

- من دون شك أنه مازال المنزل في باريس تمامًا كما عهدته في نظامه حيث كانت هنا.

- و هنــا مــن بعيــد، أرى هذا النظام ينهــار، ما يعني أنني أعــاني أكثر حين أكون (خــارج) هذا النظــام بعيدًا "عنها" حيــث كل واحد يقول لي: "لديــك كل شيء هنا لتنساها" وأعرف أنني هكذا أنسى أقل.

١٦ حزيران

بالحديث إلى (ك، م) عن الحزن الذي أشعر به حين أنظر إلى صور أمي، وبأنني أرغب في كتابة شيء انطلاقًا من هذه الصور، تقول لي: ربما ما زال الوقت باكرًا، دائمًا يقولون لي هذا وكأن الحداد والحزن عليها سوف ينضج، والوقت سيجعله يقع مثل فاكهة ناضجة، ولكن الحزن بالنسبة لي جامد ولا يتحرك ولا يخضع لهذه القوانين.

٢٩ تموز

رأيت فيلمًا لهيتشكوك (عشاق مدار الجدي) مع انغريد برغمان (حوالي العام ١٩٤٦ م) ولا أعرف لماذا، ولا أعرف كيف أقول ذلك، فإن جسد هذه الممثلة يؤثر بي ويذكرنني بأمي: لون بشرتها، يداها الجميلتان والبسيطتان، هذا الانطباع عن أنوثتها غير النرسيسية.

الأول من آب

حداد، عند موت الإنسان الذي نحبه، تمر بمرحلة حادة في النرسيسة، نخرج من المرض وخدمة المريض، ثم رويدًا رويدًا نشعر بأن الحرية تثقل وبأن الإحساس بالأسى يكبر، وبدلًا من النسريسية نقع في الأنانية الحزينة.

١٨ آب

المكان في الغرفة حيث كانت مريضة وحيث ماتت وأنا أسكن فيه اليوم، وبالتحديد هذا الحائط حيث كان سريرها وضعت أيقونة، ليس بسبب الإيمان. وأضع دومًا ورودًا على الطاولة، أحيانًا أرغب بعدم السفر والابتعاد لأبقى هنا كي أعمل على تأخير ذبول الورد.

٢١ آب

ولماذا أرغب في الشهرة ما بعد الموت، باستمرار ظلي وأثري إذا كان الأشخاص الذين أحببتهم بقوة في حياتي، وأحبهم دائمًا بقوة يرحلون ولا يتركون أثرًا؟

بماذا قد يهمني أن أستمر أبعد من حياتي، في ذاك المجهول البارد والكاذب الذي نسميـه "التاريـخ" إذا كانت ذكرى أمي لن تستمر إذا أنـا مت، ومات كل من عرفها؟ فأنا لا أريد تمثالًا لي وحدي، الحزن أناني، فأنا لا أتكلم إلا عن نفسي، ولا أعرف كيف أتكلـم عنها لأقول كيف كانـت أو لأوصفها وأحدد بورتريه خاصًا لها ومؤثرًا (تمامًا كم فعل أندرية جيد مادلين).

كريستي بـراون
قدمي اليسـرى

(قدمي اليسرى) هي سيرة حياة الكاتب والفنان الأيرلندي كريستي براون، الذي ولـد بشلل دماغي أفقـده القدرة على تحريك جسده عدا قدمـه اليسرى، لفترة طويلة ومنـذ اكتشاف مرض كريستي تم اعتبـاره متخلفًا، وتعيله عائلته لعـدم قدرتهم على التخلص منـه، ولكن في مرحلـة ما تمكن كريستي مـن السيطرة على قدمـه والكتابة بالطباشـير، ليبدأ في التواصل مع عائلته لأول مـرة، الأم لعبت دورًا عظيمًا في الإيمان بقـدرة كريستي على التكيف، وإثبات أنه ليس متخلفًا كما يظن الجميع، وبالفعل كانت أولى المحطـات فرنسا حيث تلقى أول علاج للشلـل الدماغي، وتحسنت حالته للأفضل واستطـاع تحسين نطـق الكلمات بطريقة واضحـة، ثم التقى بالدكتـور روبرت كوليس الذي أكمل علاجه في أيرلاندا وأشرف على كتابات كريستي لفترة طويلة.

صنـع فيلـم (My Left Foot) باعتمـاد كامل مـن سيرة كريسـتـي براون، وحصل على الكثير من الجوائز، وأهمها بالطبع الأوسكار عن دور أفضل ممثل لدانيل دي لويـس، الذي استطاع تقليد حركات كريستي، وإيصال معانته في الحركة والحديث بدقة مذهلة.

يبـدأ الفيلم بلقطة متناهية القرب لقدم تقبض على إحدى الأسطوانات الموسيقية لتضعهـا في الجرامافـون وتـدار، فتنطلـق ألحان مـوزارت بغناء ريتا جوزيـف، وتدار الكامـيرا متوقفـة عند صاحب القـدم، كريستـي (دانيل دي لويس) الغـارق في سحر الموسيقـى، لينتقل بعدها المخرج (شيريدان) إلى المشهـد الأخير في الفيلم، وهو حفل

جمـع التبرعات خارج دبلن على ملكية اللـورد كاسويل و(سيريل كوزاك) ، حيث يكرم كريستـي وهو في مقتبل العمر بعد نشر سيرته الذاتية، التي تشرع في قراءتها الممرضة ماري بعد اصطحابه إلى المكتبة، لقضاء بعض الوقت الهادئ قبل تقديمه في الحفل.

وعنـد دخولهما، يعيرنـا كريستي عينيـه، فنبصـر الأشياء كما يراهـا هو، وعلى مستوى ناظريه، إذ تتموضع الكاميرا عند مستوى العينين، لتنتج رؤية ذاتية.

تحـدق ماري في صـورة مرسومة على الكتاب ليست سوى تجسيـد لوالدة كريستي والغور في أعماق الصورة، تبدأ ذكريات كريستي في السطوع فتقودنا إلى ماضيه.

يتمركـز مشهد من البدايات حول أقدام تروح وتجـيء، ومن زاوية كريستي القابع تحـت الدرج، تحتـل الأقـدام بحركتها ووقعهـا حيزًا محوريًـا له وقـع في ذاته، توحي ملامحـه بانفعـالات واختلاجات تحتج علـى الفم المطبـق على الـكلام، ذلك الزخم مـن الحركة يضفي إيحاء ما يفتقده كريستي الساكـن تمامًا، وينعكس إدراكه لهذا في عينيه، لا يعول والده آمالًا عليه بداية، إذ تشكل قناعة فحواها أن عقل كريستي متأخر عن عقل الآخرين، على نقيض والدته التي تؤمن بولدها إيمانًا راسخًا.

ويمضـي إيريك فـروم في كتابه (فن الحب) بتفصيل العلاقـة العامة، التي تجمع بـين الأب وابنـه والأم وابنها بـ (الأنماط المثالية) بالمعنـى الذي ذهب إليه ماكس فيبر أو (الطـراز البدائـي) ، الذي ذهب إليه يونج، مشيرًا إلى المبـدأ الماثل في شخص الأم والأب، فالحب الأمومي في طبعه هو حب مطلق، أن الأم تحب الطفل حديث الولادة لأنه طفلهـا، لا لأن الطفل قد حقق شرطًا خاصًا، أو قد عاش لأي توقع خاص، مما يتماشى مـع اشتيـاق من أعمق الاشتياقـات الإنسانية، وهـو أن يحب الإنسـان بسبب جدارته، بسبـب أنه يستحق وحسب، دون الخوف مـن إمكانية الإحباط في الحب، أما الأب فإنه الشخـص الذي يعلم الطفل الدينية ×، يبحث الأب عن ذلك الطفل الشقي المعتاد، وفي

الغالــب يجد تعبــيرًا عنه في أشكال مختلفــة، وبطبيعة الحال، فــإن موقف الابن يكون البحــث عما يفعله من أجل استحقاق ذلك الحب وإحرازه، فحب الأب ليس خارجًا عن التحكم والسيطرة على عكس حب الأم.

عن سعادة يشوبها الأسى شيردان (مخرج الفيلم)، والكاتب المشارك شين كونوتون عن هذه الفكرة، مميطن اللثام عما يضطرم داخل هذا الصبي ذو العينين الغاضبتين المتموضــع في الزاوية، حينما تتجمع الأسرة كالمعتاد ويتذكر الأب دروس أبنائه، وتسأل إحــدى شقيقات كريستي عن شيء ممــا تستذكره، فيبتســم الأب متهكمًا، متمتمًا بما قــد يعرفه ذلك الفتى، يلتقــط كريستي بقدمه اليسرى طبشورًا ملقي بمحاذاته، ليقف الجميــع مشدوهــين، ويخط بــه علامة مبهمة، تئــول × الأم إلى فعلتــه إلى نبوغ، بينما يحثها الأب على ألا تنجرف في آمالها بعيدًا.

تتكــرر الحادثة بعدها ليكتب كريستــي بتحد كلمة "أمي" ويسقــط منهكًا، ليعلن الأب افتخــاره بــه أخــيرًا، ويرفعه عاليًا، لكــن شريدان يقلل من أهميــة الارتفاع بعدم تصويــره من زاوية تبديه شاهقًا، ما يؤكده هــذه المشاهد هو اليأس في تعبير كريستي، وكيــف يتضاءل ألمه الجسدي بسبــب ألمه العاطفي (ويؤطر مشهــد تقابل رأسي البطل والأب كمرجــع مرئي لمشهد آخر)، حينما يقع الابــن والأب متجاورين، ويكون الأب قد فارق الحياة.

لا يتحاشى شريدان في الفيلم، التطرق إلى واقع الحياة الأيرلندية الفقيرة في ذلك الوقت، ولكن يتعامل معها على أنها أشياء مهجورة، تفاصيل مألوفة جدًا بحيث لا يمكن تمييزها، كحقيقة تربية امرأة واحدة لـ ٢٢ طفلًا.

يتجلــى الفقر في التفاصيل، في نوم الأطفــال الأربعة في السرير في الطابق العلوي، وفي ادخار الأم (بريندا فريكر) المال طويلًا لشراء كرسي متحرك لكريستي.

بالنسبــة لشــيردان، جزء ممــا يجعل الفيلــم رائعًا أنه ليســ تجريديًــا أو تقليديًا (ملهمًــا)، لذا فإن ما يجمــع كل أفلامه هو ترصدها للمشاعر الإنسانية، فكريستي هو بطل متعدد الأبعاد، شاعر يفيض بالمشاعر، ومشاكس على كرسي متحرك.

ويُولي شيردان أهمية بالغة لوجهة نظر كريستي، باعتماده اللقطات المقربة لإظهار مشاعره، وبتثبيت الكاميرا عليه في أغلب المشاهد.

إيـرين كــوري
وريثـة المجـد والسرطان

في عـام ١٨٩٤ م، وبعـد أن قضـى الباحث بيير كـوري (١٨٥٩ م – ١٩٠٦ م) أكثر مـن عام في العمل بمعمل في باريس مع طالبة تدعى ماري سكولودوفسكي (١٨٦٧ م – ١٨٣٤ م)، قرر أخيرًا أن يتقدم للزواج منها، إلا أن رد الشابة البولندية كان قاسيًا، فلم يكن بمقدورها الزواج منه لأنه لا بد لها أن تعود لموطنها في وارسو.

تقدمـت ماري بورقـة بحثية لجامعـة كراكوف، إلا أنـه بسبب التحيـز السائد في المجتمـع في تلك الفـترة كان رفض الجامعة الاعتراف بتلك الورقـة المقدمة من امرأة أمرًا حتميًا،

بالطبع لم تـدرك الجامعة حينها أنها ترفض دراسة ستحصل لاحقًا على جائزتي نوبل، ولكي يقنعها بيير أن تعود إلى فرنسا بعد رفض الجامعة، أرسل إليها رسالة يؤكد له فيها على بدء دراسة جديدة على "المغناطيسية".

تعطش ماري للعلم أجبرها على السفر مجددًا إلى العاصمة الفرنسية، حيث بدأت أطروحتهـا عن الأشعة المنبعثة من اليورانيوم الخام، فتلك الأطروحة بالتعاون مع بيير ستقودهما إلى اكتشاف النشاط الإشعاعي الذاتي.

وفي ٢٦ يوليو / تموز ١٨٩٥ م تزوج الثنائي في بلدة فرنسية صغيرة تدعى ساو،

استكمل الزوجان اكتشافهما في سقيفة سيئة التهوية، غير مدركين لمخاطر التعرض المستمر للإشعاع، في عام ١٨٩٨ م، أعلن الزوجان اكتشافهما لعنصرين جديدين هما "البولونيوم" ـ سُمي تيمنًا بمسقط رأس ماري ـ و"الراديوم"، لكنهم اضطروا لقضاء أربع سنوات أخرى في البحث في ظروف استثنائية كي يثبتوا وجودهما.

وأخـيرًا في عــام ١٩٠٣ م، فــازا بجائزة نوبـل، في الفيزياء مع "هــنري بيكريل"، وبذلـك أصبحـت ماري أول امرأة تحصـل على تلك الجائزة، ولـدت إيرين في باريس في ١٢ سبتمـبر ١٨٩٧ م، وبـدلًا من أن تذهب إلى المدارس الرسمية، اتفق والداها مع عـدد من علمـاء فرنسا على تكوين "مدرسـة تعاونية" لتعليـم أولاد بعضهم البعض، فدرسـت الفيزياء علـى يد أمها، والرياضيات على يد بـول لانجفين، في سن الـ١٤ من عمرهـا التحقت إيريـن بكلية "مدرسة ثانوية" سيفيني لتحصـل على الثانوية العامة في عـام ١٩١٤ م، ولتلتحـق بعدهـا بكليـة العلوم في جامعـة السوربون، لكـن الدراسة توقفـت في نفس العـام بسبب اندلاع الحـرب العالمية الأولى، وخـلال سنوات الحرب، عـادت إيرين إلى باريس؛ لتستكمل دراستها وبعد حصولها على البكالوريوس، التحقت بمعهـد الراديـوم (معهد كوري) الـذي أسسته أمهـا، لتجري بحوثهـا وتجاربها حول النشـاط الإشعاعي الطبيعـي وتحويل العناصر، في عـام ١٩٢٥ م، حصلت إيرين على الدكتوراة من جامعة السوربون، في موضوع "إشعاع جسيمات ألفا الصادرة من عنصر البولونيـوم" العنصـر الثاني الذي اكتشفه والديها، وفي معهـد الراديوم، التقت بعالم شـاب هـو فريدريك جوليو، الـذي قال عنهـا: "أن مظهرها البـارد، ونسيانها الدائم لإلقاء التحية، كانا سببًا في عدم التعاطف معها، لكني اكتشفت فيها امرأة غير عادية، حساسة وشاعرية"، وتزوجا في عام ١٩٢٦ م.

لم تبدو الزيجة لماري صائبة، فقد خشيت أن يكون زواج فريدريك من ابنتها زواج مصلحـة طمعًـا في اسم عائلتها، جعلها هذا الشك تخوض محاولات إثناء × إيرين عن الـزواج منه، وأصرت على عقد مسبق قبل الزواج ينص على منع الزوج من التحكم في أي مـن ممتلكات زوجته، وقد ضمن لها هـذا راحة بال بأن الوريث الوحيد لإرث ماري كوري هي إيرين، تجاهلت إيرين نصائح والدتها كلها، في حين استمرت ماري في مناداة

فريدريك بـ(الرجل الذي تزوج إيرين) ، وعلى العكس تمامًا فقد كان فريدريك مقدرًا لوالدة زوجته، ولم يتردد في قبول طلبها أن يعد نفسه ليكون المساعد الأول لإيرين.

طـور الزوجان شراكة قوية في البيت وفي العمل، فعمـلا معًا في النشاط الإشعاعي الطبيعـي والصناعـي وتحويـل العناصـر إلى عناصـر أخـرى، وحققـا أهـم وأكـبر إنجازاتهمـا، في عـام ١٩٣٤ م، عندما تمكنا من إنتـاج أول عناصر مشعة صناعيًا من عناصر مستقـرة، وقد تحقق لهما ذلك عبر استخدام جسيمات ألفا كقذائف لعناصر الألمونيـوم والماغنيسيـوم والبـورون، فنجحـا في إنتاج الفسفـور المشع مـن الألمونيوم، والنيتروجين المشع من البورون، والسيليكون المشع من الماغنيسيوم.

في العام ١٩٣٤ م ماتت الأم بسبب سرطان الدم، وفي العام التالي منحت (إيرين وجوليـو) جائزة نوبل في الكيميـاء، لاكتشافهما ظاهرة النشـاط الإشعاعي الصناعي وتصنيـع النظائـر المشعة، كانـت إيرين أستاذًا مشـاركًا في الفيزيـاء النووية بجامعة السوربـون، وفي عـام ١٩٣٧ م، منحت درجة بروفيسور في كليـة العلوم، ولم تتوقف عن العمـل، بل واصلت البحث مـع جوليو، حول تأثير النيوترونات على العناصر الثقيلة، في خطوة هامة في طريق اكتشاف ظاهرة "الانشطار النووي" في اليورانيوم فيما بعد، لم تكتف إيرين بنشاطها العلمي، بـل أظهرت اهتمامًا بالسياسة، فدخلت حكومة الجبهة الديمقراطية، وعينت وكيلًا لوزارة الدولة للبحث العلمي، في عام ١٩٣٦ م، كما كرست جهدها لدعم نهوض المرأة اجتماعيًا وتعليميًا، فكانت عضوًا في اللجنة الوطنية للاتحاد النسائـي الفرنسي، وعضـوًا في مجلس السلم العالمي، عندمـا اندلعت الحرب العالمية الثانيـة، أخفـى الزوجـان أبحاثهما عن الانشطـار النووي في خزائـن أكاديمية العلوم لعشر سنوات، خوفًا من وقوعها في الأيدي الخطأ.

خـلال سنوات الحرب، سقطت إيرين مريضة بالسل، وبناء على نصيحة الأطباء،

أجـبرت على الذهاب إلى سويسرا للاستشفاء، وهنـاك افتقدت العائلة، فذهبت أكثر مـن مرة في رحلة محفوفة بالمخاطـر إلى باريس لرؤية العائلة، وفي كل مرة، كان يمكن أن تعتقلها القوات الألمانية على الحدود.

بعـد أن سكنت المدافـع عادت إيريـن إلى باريس، لتصبح مديـرًا لمعهد الراديوم، ومفوضًـا لشئـون الطاقة الذرية، عام ١٩٤٦ م، وساهمـت في تأسيس أول مفاعل نووي فرنسـي، في عام ١٩٤٨ م، وفي إنتاج أول قنبلة نوويـة فرنسية، وخططت لإنشاء مجمع كبير للفيزياء النووية، لكنها لم تشهد اكتمال المشروع.

ومثلما ماتت أمها بسرطان الدم، رحلت إيرين بسرطان الدم، في ١٧ مارس ١٩٥٦ م، بعد تعرضها لجرعات غير محسوبة من الإشعاع.

رسـول حمزاتوف

أغنيـة إلى أمـي

يقول رسول حمزاتـوف في كتابه (داغستان بلدي): "عندما ولدت دعا والدي إلى بيتـه وجوه أهل القرية تنفيذًا للتقليد المتبع، جلس وجهاء أهل القرية في وقار ورزانة في أنحاء البيت، وكأن عليهم أن يقرروا مصير بلد بكاملها، كل منهم يحمل بين يديه جرة ذات بطـن من صنع خـزافي بلخاريا، وفي جرارهم كانت توجـد بالطبع، بوظة مزبدة، واحد فقط منهم ذو رأس ولحية أبيضين كالثلج، هو أكبرهم، كانت يداه طليقتين، هذا هو الشيخ الذي سلمتني إليه أمي آتية من غرفة نوم أخرى.

كنـت أتخبط بين يدي الشيـخ، وكانت أمي تقول له: "أنت غنيت يوم فرحي، وكنت تمسـك الطنبور تارة، والدف تارة أخرى، كانت أغانيك جميلة، فأي أغنية ستغني الآن وأنت تمسك صغيري بين يديك؟ "فيجيبها الشيخ:

- يـا امرأة الأغنيات ستغنيهـا أنت أمه وأنت ستهزين سريره، بعد ذلك فلتغني له الطيور والأنهار، ولتغن له أيضًا السيوف والرصاص، وأفضل أغنية فلتغنيها له عروسه.

- سمّـة إذًا، ولأسمعن أنا أمـه، ولتسمع القرية كلها، وداغستان كلها بالاسم الذي ستدعوه به الآن.

رفعنـي الشيـخ عاليًا إلى سقف البيت وقـال: «صليل السيـوف وحكمة الكتب، لقد عرفت الكثير من الأسماء في صليل السيوف وكتبي، وسيوفي تهمس لي الآن بالاسم - رسول».

انحنى الشيخ الذي يشبه النبي فوق أذني وهمس قائلًا:

- رسـول، ثـم انحنى فوق أذني الثانية وصرخ بصوت عالٍ: رسول، ثم أعطاني، أنا الذي كنت أبكي إلى أمي، وقال متوجهًا إليها وإلى كل الجالسين في البيت: هاهو رسول».

- ويضيف رسول حمزاتوف قائلًا: بعد ولادتي مباشرة، اضطر والدي بسبب شئون الخدمـة للانتقال مؤقتًا إلى قرية أراديـرخ، وضع والدي على سرج جوادنا خُرجًا جمع في أحـد جانبيـه كل عفش بيتنا من ملابس وبقايا طحين، وطحين شوفان ودهن وكتب، وفي الجانب الآخر كنت أطل برأسي.

بعـد أن وصلنا مرضت أمي مرضًا شديدًا، وفي القريـة التي انتقلنا إليها حدث أن وجدت امرأة مسكينة مات صغيرها من مدة، هذه المرأة الأراديريخية أخذت ترضعني فأصبحـت مرضعتي وأمي الثانية، وهكذا أنا مديـن لامرأتين على هذه الأرض، ومهما امتـد بي العمر، ومهما فعلت لهاتين الامرأتـين وباسمهن لن أفي ما لهما عليّ من دين، فديـن الأبناء لا نهاية له، هاتان المرأتان إحداهما أمي: تلك التي ولدتني، وأول من هزّ سريـري، وغنـى لي أولى الأغنيـات، وتلك الأخرى، التي قدمـت لي صدرها حيث كان محكومًـا علـي بالموت فبدأ دفء الحيـاة يدب فيّ، فتحولت مـن درب الموت الضيق إلى طريق الحياة هي أيضًا أمي.

ليس هناك يوم واحد يمر، أو دقيقة واحدة تمر دون أن تحيا في نفسي تلك الأغنية، التـي غنتهـا لي أمي فوق مهدي، وتردد بين ضلوعي، هـذه الأغنية هي مهد كل أغانيّ، إنها المخدة التي أسند إليها رأسي المتعب، وذلك الفرس الذي يحملني في أرجاء المدينة كلها، إنها النبع الذي أنهل منه في عطشي، وذلك الموقد الذي يدفئني الذي أحمل دفئه في حياتي.

يـوم غـادرت قريتي لأول مرة في سفر، وضعت أمي علـى النافذة مصباحًا موقدًا، كنـت أسير وألتفت، ثم أسير، لكن ضـوء بيتنا كان يتلألأ خلال الضباب والظلام، ظل هـذا النور في النافـذة الصغيرة يضيء لي سنوات طويلة كنـت فيها أجوب العالم، ولما

عدت إلى بيت والدي ونظرت من هذه النافذة من داخل البيت، رأيت كل العالم الواسع الذي أستطيع أن أجوبه في حياتي.

و يقول رسول حمزاتوف في (داغستان بلدي):

يذكر الناس أمهاتهم بصور مختلفة
أما أنا، فأذكرها صبحًا وظهرًا ومساءً،
في الصباح تعود من النبع بجرتها المملوءة ماء
إنها تجمل الماء وكأنه أثمن ما في الوجود،
ها هي ذي تصعد الدرجات الحجرية.
وتضع جرتها على الأرض وتبدأ في إشعال النار
في الموقد تشعلها وكأنها أثمن ما في الوجود
توقدها وهي ترنو إليها في وجل أو انبهار،
لا أدري
وإلى أن تشعل النار كما يجب، تهز والدتي السرير،
تهزه وكأنه أثمن ما في الوجود،
تأخذ أمي الجرة الفارغة لتأتي بالماء من النبع،
ثم تشعل النار، ثم تهز السرير وتشعل النار،
هكذا كانت تفعل في كل يوم من أيام الربيع.
والصيف والخريف والشتاء
كانت تفعله في تؤدة ووقار.
وكأنه أثمن وألزم ما في الوجود،
تجلب الماء تهز السرير، وتشعل النار،

تشعل النار تجلب الماء، تهز السرير

تهز السرير تشعل النار، تجلب الماء،

كانت تقول لي دائمًا وهي ذاهبة لجلب الماء:

- "انتبه للنار"،

وعندما كانت تهتم بالنار كانت توصيني قائلة:

"لا ترق الماء"

وكانت تقول لي أيضًا وهي تهدهدني:

-«أبو داغستان النار، وأمها الماء»،

لكن أطيب نار وأدفئها تكمن في قلب الأم

وفي موقد كل بيت،

سئل أبو طالب ذات مرة:

- كم شاعرًا في داغستان؟

- نستطيع أن نعد ثلاثة، أربعة ملايين،

- كيف هذا وشعبنا لا يتجاوز المليون!

- في كل إنسان ثلاثة أربعة مغنيين، لكنهم لا يغنون كلهم ولا يغنون دائمًا، ولكنهم لا يعلمون.

- مع هذا، من أفضل مغنيكم؟

- نجد دائمًا من هو أفضل مغنٍ لكني أستطيع أن أذكر واحدًا.

- ومن هو؟

- المرأة الداغستانية، كما نستطيع أن نعد ثلاثة أغنيات فقط عند الجبلين.

- ما هي؟

- الأولى تغنيها الأم الجبلية حيث ترزق ابنًا وتقف فوق سريره، والثانية تغنيها الأم الجبلية حين تفقد ابنها.

- والثالثة؟

- الأغنية الثالثة هي كل ما يزهر ويزوي، يولد ويموت، يأتي ويروح.

الأم التي تهز السرير وتمدد طفلها على ذراعها، وتضم إليها ابنها الذي يتركها للأبد، هاهو الجمال، هاهي ذي الحقيقة، هاهو ذا الشرف.

الناس يكونون طيبين وسيئين، حتى الأغنيات تكون أفضل وأسوأ، لكن الأم وأغنية الأم رائعتان دائمًا، إني لا أتذكر بالطبع الأغنيات التي غنيت فوق مهدي، لكنني أنصت فيما بعد، وفي قرى عديدة إلى كثير من الأغنيات الجيدة بما فيها أغنيات المهد.

أغنية إلى أمي:

تتشابه الأمهات

كما البحل × بين سلاسل الجبال العالية

تتشابه الجبال وأنا أنظر إليها من السماء النائية

وقرب البروق تظل تشمخ القمم

وكلما علت الجروف ستغدو منعة وأوثق

وفي أعلى الجبال الشامخات

لا قمة تعلو على قمة الأمهات

كانت لي فرحًا وحزنًا كالصخر مأمولة

شروق الفجر ونجوم الليل كلها.

في قلبك الوضاء محمولة

واليوم إني أينما أرسلت طرفي.

يتراءى لي خيالك.

بات يتسع البحار والمحيطات سنًا

متلألئًا بألوان حسن الأرض.

طيفًا من جمالك

كيف يا أمي وقد ضاقت بذكراك.

السماء وضاقت الأرض

كيف استطعت ولوج بيت ضيق

فيه قد وأروك وانفضّوا

توحيدة بالشيخ
شجاعة الأم غيرت قدر البنت

ولـدت توحيدة بنت الشيخ سنة ١٩٠٩ م في شمال تونـس، وحصلت على الدكتوراه في الطـب سنة ١٩٤٦ م، في فرنسا قبل أن تعود إلى وطنها، وتساهم في معركة مكافحة الأمراض التي انتشرت × في أوساط مجتمع يرزح تحت الاستعمار، وتقع أغلب شرائحه تحت مستوى الفقر.

ساهمـت من خـلال عملها لأربعة عقـود كطبيبة ثم كمسئولـة في المستشفيات، في تحسـين الوضـع الصحي للمرأة التونسيـة، في جميع الأوساط خاصـة الفقيرة، ووضع سياسات تنظيم العائلة التونسية، مما ساهم إلى حد كبير في تراجع هام لنسب وفيات النساء والأطفال عند الولادة في ستينيات القرن الماضي.

تقـول توحيـدة بنت الشيخ في شهـادة تضمنها كتاب (نساء وذاكـرة: تونسيات في الحيـاة العامـة(١٩٢٠ م – ١٩٦٠ م) أنهـا ولدت في شهر ينايـر مـن عام ١٩٠٩ م، في عائلـة ميسورة الحال، من كبار ملاك الأراضـي الفلاحية في قرية رأس الجبل التابعة لمحافظة بنذرت × شمال تونس، وتوفى والدها بعد أشهر قليلة من مولدها، فنشأت مع أخويهـا في كنـف أمها حليمة بن عمار، المنحدرة من عائلـة عريقة، وهي شقيقة رئيس الحكومة التونسية في الخمسينيات من القرن الماضي، الطاهر بن عمار،

وقـد حرصـت هـذه الأم علـى تعليـم ابنتهـا، مثلها مثـل شقيقيها في وقـت كانت الأميـة منتشـرة في أغلـب فئات المجتمـع التونسـي، وخاصة لـدى العنصـر النسائي بسبـب رفض الأسـر التونسية إرسال بناتهم للمدارس، أو دفعهن إلى الانقطاع خلال المرحلـة الابتدائية، وحصلـت التلميذة توحيدة على الشهـادة الابتدائية عام ١٩٢٢ م،

ثـم واصلت دراستهـا الثانوية في معهد (أرمـان فاليار) بتونـس العاصمة، حيث نالت البكالوريـا (الثانويـة) العامة عـام ١٩٢٨م، لتكون بذلك أول تونسيـة مسلمة تحصل علـى هذه الشهادة، التحقت توحيدة بنت الشيـخ بكلية الطب بباريس في السنة الموالية بفضل الطبيب، والباحث الفرنسي في معهد باستور للبحوث الطبية بتونس إتيان بورني Etienne Burnet، وكانت قد تعرفت عليه عن طريق زوجته.

وصـادف في صيف ذلك العام أن كانت زيارة زوجتـه الدكتور بورني، التي تصفها (بالمرأة الديناميكية).

سألتهـا الأخيرة عما تريد أن تدرسـه، فأجابتها الشابة أنهـا تريد القيام بنشاط اجتماعـي، وأن تقـدم يد المساعدة لمن هم بحاجة إليها، عندهـا نصحتها بأن تتحدث مـع زوجها الطبيب، تصف توحيدة بالشيخ بدقة محادثتها مع الدكتور إتيان بورني، في نفـس الكتاب (نساء وذاكرة)، قائلـة: "سألني: "ما الذي تريدين فعله يا صغيرتي؟" فأجبته: "سأتجه ربما إلى دراسة الطب، ولكن بما أنه لا توجد كلية طب في تونس، فلا بد أن أنتقل إلى الجزائر"، نظر إلى بتردد، ثم أردف: "إذا كنت تريدين دراسة الطب يا صغيرتي، فعليك أن تدخلي من الباب الكبير وتذهبي إلى باريس"، انفجرت ضاحكة وقلت له: "أنت تحلم سيدي!" فأجابني: "أستطيع مساعدتك في أنا أعرف الكثير من الناس في باريس ولدي القدرة على تنظيم رحلة ذهابك إلى هناك".

كانـت العقبـة الموالية هي إقنـاع أهلها وأمهـا بتركها ترحل، علـى عكس ما كانت تنتظـره، فإن والدتها لم تعارض رغم أنها منعت قبل ذلك أخاها من إكمال دراسته في العاصمة الفرنسية، خوفًا من أن يتزوج فرنسية ولا يعود إلى تونس.

حظيـت توحيدة بالدعم الشامل من قبل أمها التي وقفت ضد الجميع، حتى أنه تم وصفها "بالجنون" لأنها ترسل ابنتها إلى مدينة توصف بالانحلال الأخلاقي،

وفي يوم رحيل توحيدة إلى باريس، وبينما كانت السيدة بورني تنتظرها في الباخرة، التـي ستقلهمـا إلى هنـاك كانت البنـت تنتظر القـرار المصيري، الـذي ستسفر عنه المحادثـة بين والدتها وبين قريبين لها، أحدهما فقيه جاء خصيصًا لمنعها من الرحيل، وحـول تسـاؤل أحدهما، كيف يمكـن "الفتاة لم تغادر يومًا العاصمـة تونس، أن تذهب وحدهـا إلى مدين بعيدة مثل باريـس"، أجابت الأم بكل ثقة: "الكثيرون يسافرون من أجل المتعة أو العلاج، ولكن ابنتي ستسافر لأنها تريد أن تدرس وتتعلم وتعرفون أن طلب العلـم هـو واجب على كل رجل وامرأة في الأسـلام"، وأمام تمسك الأم بموقفها، طلب أحـد الأعمام الحاضرين أن تنتظر البنت إلى الأسبـوع الموالي، حتى تسافر بالطريقة الشرعيـة أي بوجود محرم معها من عائلتهـا، لكن والدة توحيدة أصرت على أن تغادر البنـت حـالًا قائلة: "ابنتي ستغادر بصحبـة امرأة أثق بها، فسيكـون ذلك كما لو أنها رحلت معي".

في تلك اللحظة، أخذت توحيدة معطفها وحقيبتها وانطلقت نحو الميناء، حيث كانت السيـدة بورني تترجى الربـان أن لا يرحل قبل وصول البنت، وهكـذا خرجت الباخرة متأخرة ببضع دقائق بعد أن استقلتها توحيدة بالشيخ، لتذهب لملاقاة مستقبلها المشرق ولتتغير حياتها جذريًا.

تقـول توحيـدة عـن أمهـا: "أمي لم تغـادر العاصمـة تونـس، لكنها كانـت امرأة متسامحـة وشجاعـة الكل، خاصـة إخوتها وأخواتها كانـوا يقولون لها بـإن لا تتركني أرحـل، في نفس الوقت، كانت الدكتور بورني يكتب لأصدقائه ليجدوا لي عائلة تقبل أن تستضيفنـي خلال مدة دراستي، ووجد في آخر الأمر مبيتـًا للشابات أسسته أمريكية، السيدة أندرسون".

لم تنقطـع توحيدة بن الشيخ عـن زيارة تونس بعد إنتهاء كل عـام دراسي لتقضي إلى جانـب أسرتهـا فترة العطلة الصيفيـة قبل العودة إلى باريـس في بداية الخريف، وبعـد عامها الرابع اضطرت لمغـادرة الحي السكني الجامعي، لتـترك المكان لطالبات أخريـات، ومـن حسن حظهـا فقد استقرت عائلـة الدكتور بـورني في باريس، فسكنت معهم في بيتهم، حيث تعرفت عن كثب على رجل علم وكتاب وشخصيات طبية مرموقة.

وفي العـام ١٩٣٦ م حـازت توحيدة بنت الشيخ على شهادتهـا في الطب، لتكون أول تونسيـة وأول طبيبة عربية مسلمة تحصل على الدكتـوراه في الطب، إذ سبقتها في نيل هذه الشهادة طبيبتان مسيحيتان عربيتان هما السورية لوريس ماهر والمصرية ميلانا سيداروس، اللتان حصلتا على الشهادة في العام ١٩٣٠ م، الأولى ضمن الدفعة الأولى مـن المعهد الطبي بدمشق، والثانية مـن إنجلترا وعند عودتهما إلى تونس، حظيت أول طبيبـة باستقبال كبير من العائلة ومن الوسط السياسـي والثقافي، حيث نظم الاتحاد النسائـي الإسلامي التونسي حفل تكريم لها في أبريـل ١٩٣٧ م باعتبارها (أول طبيبة تونسية عربية مسلمة).

افتتحـت توحيـدة عيادتهـا الخاصة، واشتغلـت في البداية في الطـب العام، لكنها سرعـان ما تخصصت في طـب النساء والتوليـد، لأن أغلب زبائنها كانـوا من النساء وخاصة منهن المنتميات للطبقات الفقيرة، وكانت كثيرًا ما تقدم الكشف بالمجان، مما جعلها تلقب بطبيبة الفقراء.

وإلى جانـب ممارسة عملها كطبيبة نشطت توحيـدة بنت الشيخ من خلال العديد من الجمعيات الأهلية، لتحسين الظروف الصحية للتونسيين، الذين تعتبرهم السلطات الاستعماريـة الفرنسيـة مواطنيين من الدرجة الثانية، فانضمـت إلى الاتحاد النسائي التونسي، وأسست جمعية الإسعاف الاجتماعي خلال الحرب العالمية الثانية.

ولم تغفل توحيدة بن الشيخ عن دورها في فضح ممارسات الاستعمار، الذي عملت علـى مقاومته من موقعها، من ذلـك إعدادها تقرير يدين السلطـات الفرنسية خلال أحداث يناير ١٩٥٢ م، التي جرت بالشمال الشرقي للبلاد بعد انتقالها إلى عين المكان، كمـا عملـت على إنارة الـرأي العام الدولي حـول الوضع الصحـي الاجتماعي المتردي للمـرأة التونسية في ظل الاستعمار، وبعـد استقلال تونس عام ١٩٥٦ م، بدأت معركتها الثانيـة في مجال صحة الأم والطفل، وكانت من بـين واضعي مشروع التنظيم العائلي، الـذي تبنته الدولي فأنشـأت قسمًا خاصًا بالتنظيم العائلي في أكبر مستشفيات تونس، مستشفى شارل نيكول عام ١٩٦٣ م.

توفـت أول طبيبة مسلمـة في العالم العربي توحيدة بن الشيخ في السادس من شهر ديسمـبر عـام ٢٠١٠ م، بعد أن فتحت أمام المرأة التونسيـة والعربية طريقًا جديدًا في مجال علمي صعب كالطب.

وكانت توحيدة بالشيـخ محل احتفاء تونسي كبير خاصة في السنوات الأخيرة، من خـلال إنتاج فيلم وثائقي يحكي سيرتها بعنوان "نضال حكيمة" عام ٢٠١٣ م وإصدار البريد التونسي لطوابع بريد تحمل صورتها.

وفي تحيـة تقديـر واعتراف بالجميـل للأطباء وأعـوان الصحة بصفتهـم أبطال المرحلـة في مجابهة وبـاء كورونا، أصدر البنـك المركزي التونسي ورقـة نقدية جديدة تحمل صورة توحيدة بالشيخ، لتغدو أول امرأة عربية تزين صورتها ورقة نقدية.

عباس محمود العقاد
ورثت من أمـي الاقتصاد في النفقة وتدبير المـال

يقـول العقـاد في سيرته الذاتية التي صدرت في كتـاب نشر في القاهرة سنة ١٩٦٩ م تحـت عنوان (أنا) فصـلًا كاملًا عن والدته الكردية، إذ يقـول: "ورثت أمي تقواها وسلامـة بنيتها مـن أبيها وجدها، ففتحت عيني أراها وهـي تصلي وتؤدي الصلاة في مواقيتهـا، لم يكن من عادة المـرأة، أن تصلي في شبابها، إنهـا كانت النساء لا يصلين إلا عند الأربعين،

مما ورثته عن أبويهـا حب الصمت والاعتكاف، كان النـاس يحسبون هذا الصمت والاعتكاف عن كبرياء في جدي -رحمه الله- وكانوا يقولون أنها "نفخة أتراك"!

لكنها لم تكن "نفخة أتراك" كما توهموا، بل كانت طبيعة تورث وخلقة بغير تكلف ولم أرَ في حياتها امرأة أصبر على الصمت والاعتكاف من والدتي.

فربمـا مضت ساعة وهـي تستمتع من جاراتهـا وصديقاتها وتجيبهـن بالتأمين أو بالتعقيـب اليسير، وربما مضـت أيام وهي عاكفة على بيتها أو على حجرتها، ولا تضيق صدرًا بالعزلة وأن طالت، ولا تنشط لزيارة إلا من باب المجاملة ورد التحية.

ومن المفارقة اتفاق والدي ووالدتي في هذه الخصلة، ولست أنسى فزع أديب زارني يومًـا وعلم أنني لم أبرح الدار منذ أسبوع، فهاله × الأمر كأنه سمع بخارقة من خوارق الطبيعـة، إنها وراثة من أبوين، يؤكدها الزمن الذي لا يحمد فيه معاشرة أحد، إلا من رحم الله!

وقوة الإيمان في والدتي هي التي بنت فيها العزيمة ليلة احتضاري!

نعم أيها القارئ الكريم ولا تعجب، فقد اعترضت قبل نيف وثلاثين سنة، كما تخيل عـوادي في تلـك الليلة، بإذا بالوالدة هي الإنسان الوحيد الـذي يتحامل على نفسه إلى جانب سريري ليقنعني أنني بخير، وتنطوي على ذلك ساعات وهي على عزيمتها، حتى جاء الطبيب أخيرًا وأنبأهم أنه عارض غير ذي بال، فإذا المحتضر نجا، وإذا بالمواسية × قد سقطت مغمى عليها،

وكانت الوالدة لا تنكر من شئوني× إلا الورق. نعم ما هذا الورق؟ الورق الذي لا ينتهي! هـذا الورق الذي لا ينتهي هو الذي يمرضنـي، وهذا الورق الذي لا ينتهي هو الذي يصرفني عن الزواج، وهذا الورق الذي لا ينتهي هو سبب الشهرة،

ووالدتي أيها القارئ من أعداء الشهرة، تتطير بها ولا تغتبط بها لحظة إلا تشاءمت لحظات،

هـذه الشهرة هي التـي "تشيل غارتـك" أي تجعلهم يتحدثون عنـك، وما تحدث الناس عن أحد وما سلم من ألسنة الناس!

قلـت له ذات يوم: "لو وجدت لي زوجة مثلك تزوجت الساعة! ولم أكن مجاملًا ولا مراوغًـا"، فأننـي لا أنسى كمـال تدبيرها ليتها منذ صباها وكنـا بفضل تدبيرها هذا ننتفع بالجورب حتى بعد أن يرث ويبلي فإنه يصلح عندئذٍ كرة محبوكة!

ويغنينـا عن شراء الكرات لا تحتمل أقدامنا مثل احتمالها، ولقد توفى والدي وهي في عنفـوان شبابهـا، وكان لي أخ صغـير فتوقـرت على تربيته، وتركـت كل شاغل غبر طفلها هذا وأبنائها الكبار.

ولقـد ورثت عنها كثيرًا عن الاقتصـاد في النفقة، وتدبير المال، وحسبي بحمد الله ما ورثت عنها ".

جاشــوا بيــل
أمــه اكتشفت موهبته

جاشوا بيل الموسيقي البــارع الذي تمكن بأسلوب مميز وسلاسة بالأداء أن يصبح واحدًا من أنجح عازفي الكمان في أواخر القرن العشرين وفي أوائل القرن الحادي والعشرين،

نبــذة عن حياته:

جاشــوا بيــل الطفل النابغــة الذي كان مثالًا عــن الموهبة الناجحة، فقــد أدى أروع أعمــال عظماء الموسيقا الكلاسيكية أمثال فلاديمــير أشكناري ويويوما، كما أنه سجل خمسة عشر عملًا لاقت رواجًا كبيرًا، وقام بالعديد من الجولات الموسيقية من ضمنها عازف منفرد، قائد أوركسترا ليصبح واحدًا من أهم عازفي الكمان في هذه الحقبة.

كان أول عمــل لــه في مجال الأوركســترا الموسيقية، وهو في عمــر الرابعة عشر مع أوركســترا فيلاديلفيا، وكان أصغر عضو فيها، أطلق تسجيله الأول وهو في عمر الثامنة عشــر، حاز بيل علــى العديد من الجوائز من بينها جائــزة غرامي Grammy عن أدائــه في ألبوم الملحــن الموسيقي نيكولاس ماو من عــام ٢٠٠٠ م عن فئة أفضل عازف منفرد، كما نال عام ٢٠٠٧ م جائزة " Avery Fisher " المرموقة،

أطلــق الفنان عام ٢٠١٦ م بالتعاون مــع شركة تسجيلات Sony Classical آخر ألبوماته والذي حمل اسم For the Love of Brahms،

ولــد عازف الكمان الأمريكي جاشوا ديفيد بيــل في بلومينغتون، إينديانا في التاسع مــن كانون الأول عــام ١٩٦٧ م، وهو ابــن الطبيب النفسي والمدرس في جامعة إنديانا الإسكتلنــدي الأصــل آلان بيل ووالدته شيرلي وهي من أصل يهــودي، قرر والده تعليمه

العــزف على الكمان بعــد أن لاحظت والدته أن طفلها ذو الأربعــة أعوام قد جمع عددًا من القطع المطاطية المختلفة الأطوال، التي وجدها في المنزل وقام بتثبيتها بين مقابض خزانــة الأدراج مستعملًا إياهم كأوتار، محــاولًا تقليد بعض المقطوعات الموسيقية مثل Marry Had a Little Lamp، وعندما بلغ عامه الخامس أحضر له والده آلــة كمان صغيرة ومناسبة لعمره، حتى يتمكن من بدء التعلم عليه، وبذلك كان جاشوا بيــل طفــلًا عبقريًا، وأنه على عكس باقــي الأطفال النوابغ، لم تقــدم عائلة بيل أطفالًا عباقرة من قبل فقد كان بيل الأول في تاريخها.

خــلاف باقــي الأشخاص، يعتــبر بيل نفسه "طفــلًا عاديًا" حيث صــرح قائلًا في إحدى المقابلات: "ارتدت مدارسًا عامة ومارست العديد من الرياضات"،

حقيقــة، لقد بــرع بيل في العديد من الرياضات حتى أنه فاز، وهو في عمر العاشرة في بطولــة الولاية لكرة المضرب، كمــا أنه كان مشهورًا محليًا بإنجازاته الرياضية أكثر من قدرته الموسيقية المميزة.

يذكــر أن بيــل لم يعتبر عــزف الكمــان أول اهتماماته إلى أن بلــغ الثانية عشر من عمــره، وذلك بعد أن تم قبوله في المخيــم الصيفي لمدرسة Meadow Mount الموسيقيــة في شمــال نيويــورك، حيــث تلقى تعليمــه على يد أبــرز الأسمــاء في المجال الموسيقــي، ومنهــم عازف الكمــان البيلاروسي جوزيــف جيفولد، والعــازف البلجيكي الموهــوب أوجــين إيسابيه، في عام ١٩٨٧ م وقبل عيد ميــلاد بيل العشرين قامت شركة Decca Records البريطانيــة بإبــرام عقــد معــه وكان العقــد الأول من نوعه للشركة مع فنان كلاسيكي منذ عقد من الزمن.

توماس ترانسترومر
ذكريــات ترانــي

ذكريات تراني هو كتاب للشاعر السويدي الأشهر "توماس ترانسترومر" والحائز علـى نوبل للأدب ٢٠١١ م، وهـو كتابه النثري الوحيد، الكتاب هـو بمثابة استعادة من الشاعر لذكريات طفولته حتى سن المراهقة.

يعتبر هذا الكتاب أفضل مدخل لقراءة أدب ترانسترومر وشعره، لأن فيه المكونات الأولى لإبداعه والمواضيع التي ستشغله طيلة مشواره.

أولى ذكرياتــي القابلــة للتأريخ هي شعور، شعورٌ بالفخر ؛ كنت قد بلغت الثالثة للتو وتم التعامـل مـع ذلـك باعتباره أمرًا بالـغ الدلالة، وأنني الآن شخصـ "كبير" أنا في السرير في غرفة شديدة الإضاءة، وأتمكن بعد محاولات جاهدة من النزول إلى الأرض مــدركًا على نحو مدهش حقيقة أنني صرت كبيرًا، كان لــديّ دمية منحتها أجمل اسم يمكــن أن يخطر ببالي: كارين سبينــا، التي لم أكن أعامله باعتبارهــا أمًّا، لكن بشكل أقــرب لكونها رفيقة أو حبيبة، كلنا نقيم في استوكهـولم، في منطقة سودر، ٣٣ سفيدن بورجــز جاتان المعــروف الآنب جريندز جاتان، والدي لا يزال جــزءًا من أسرتنا، لكنه علــى وشــك مفارقتنــا، كان جدي لأمي على مقربــة منا، في بلكنجا جاتــان، وُلد جدي لأمي، كارل هلمر وستربرج عام ١٨٦٠ م، كان ربان سفينة وكانت بيننا صداقة عميقة، رغم أنه كان يكبرني بواحد وسبعين عامًا! وللغرابة كان هذا هو نفس الفارق بينه وبين جــده لأمه، المولود عــام ١٧٨٩ م: زمن اقتحام الباستيل وتمــرد أنيالا، وموتسارت وهو يكتــب خماسيتــه للكلارينيت ولكنهما ليستا طويلتين جــدًا، بإمكاننا أن نلمس التاريخ، كان جــدي يتكلم بطريقة طريفة تنتمي للقــرن التاسع عشر، يمكن للكثير من تعبيراته

أن تبـدو اليـوم قديمة لدرجة مدهشة، لكنها من فمه، وفي سمعي، كانت مألوفة للغاية، كان قصـيرًا نوعًا ما، له شـارب أبيض وأنف بارز معقوف، يبدو مثل الأتراك، كما كان يقول عن نفسه، كان حاد المزاج يمكن أن يستشيط غضبًا لأبسط سبب، لم يتعامل أحد بجديّة مع غضباته المتكررة،

التـي كانت تنتهـي بأسرع مما تبدأ، لم يكن عدوانيًا قـط، وكان يلبث هادئًا طالما لم تتجـاوز إحدى الشخصيات اللحوحة حدودها معه، كان في واقع الأمر شخصًا أميَل للمصالحـة لدرجـة كان يخشى معها أن يوصف بالضعـف، وكان غالبًا ما يحافظ على مفرداتـه حتـى مـع الأشخاص الذيـن يتم إنتقادهم طـوال الوقـت. في غيابهم وسط الحوارات العادية، مثل "لا بد أنك توافقيني أن فلانًا نصاب" فيجيب: "حسنًا، حسنًا، هـذا أمـر لا أعرف عنـه شيئًا"، بعد الطـلاق، انتقلت أنا وأمـي إلى ٥٧ فولكنجاتان، حيـث تسكـن الفئات الدنيا من الطبقـة المتوسطة، كان المقيمون هنـاك حشدًا متنوعًا من الطبقات كافة، يعيشون لصق بعضهم البعض، ذكرياتي للحياة هناك تُرتب نفسها في صـور مشاهد سينمائية لفيلـم في الثلاثينيات أوالأربعينيات، بقائمة لا بأس بها من الشخصيات: البوّابة المحبوبة، وزوجها القوي المقتضب، الذي كنت أحترمه لعدة أسباب من بينها أنه تسمّم بالغاز بما كان يعني أنه اقترب بشكل بطولي من الآلات الخطرة!

كان مـن النـادر رؤية شخص يدخل أو يخرج من غـير أهل المكان: السكير المألوف الـذي كان يعود لرشده على مهل أمام درجات السُلّم، والمتسولون الذين يقرعون جرس البـاب أكثر من مرة خلال الأسبـوع، ويقفون هناك في الشرفة مفعمين، كانت أمي تعد لهم السندويتشات، حيث كانت تفضل أن تمنحهم شرائح الخبز بدلًا من النقود!

كنـا نقطـن بالدور الخامـس، هناك في قمـة البناية، كانـت هناك أربعـة أبواب، بالإضافـة لمدخل السطح، كان أحدها يحمل لافتة باسم أوركي، مصور صحافي، بشكل

مـا بدأ مثيرًا للفخر أن يكون من بين جيراننا مصور صحفي! ذات مرة عندما اندلعت بجوارنـا حادثة عنف: كنت صغيرًا جدًا، عندمـا أغلقت إحدى الجارات الباب في وجه زوجهـا؛ لأنـه كان مخمورًا يتفجّر بينما هي متحصنة بالداخـل، حاول أن يكسر الباب وأخـذ يصيـح بتهديدات مختلفة، أذكر بوضوح أنه صرخ بعبـارة محددة "إنني لا آبه بالذهـاب إلى كونجشولـن اللعينـة" سألـت أمي عما يقصـده، فقالـت لي أن أقسام الشرطة تقع هناك في كونجلشولمن، وأن هذا الجزء من المدينة اكتسب بالتالي إحساسًا مخيفًـا، كان هذا هو الإحساس الذي تعاظـم لدي عندما زرت مستشفى سانت إيريك، ورأيت جرحي الحرب من فنلندا، الذين كان يتم الاعتناء بهم في شتاء (١٩٣٩ م – ١٩٤٠ م).

تغـادر أمـي إلى عملها باكرًا في الصباح، لا تأخذ الـترام أو الباص. فطيلة حياتها كانـت تمشي ذهابًا وإيابًا بين سودور وأوسترمالم، كانت تعمل مدرسة في هودج ليونورا وكانـت مسئولة عن الصفـين الثالث والرابع عامًـا تلو الآخر، كانـت مدرسة مخلصة ومرتبطـة بالأطفال جـدًا، وكان يساور المرء الظن أن التقاعد بالنسبة لها سيكون أمرًا قاسيًا، لكنه لم يكن كذلك، فقد شعرت وقتها بارتياح بالغ.

حيـث أن أمي كانت تعمل، فقد كنا بحاجة لمعاونة في أعمال المنزل، "خادمة" كما كان يطلق عليها أو (قائمة برعاية الطفل) كما هو أقرب للحقيقة، كانت تنام في غرفة ضيقـة كانت في الحقيقة جزءًا من المطبخ، ولم تكن ضمـن التصميم الرسمي للشقة: غرفتين وصالة.

ذات يـوم في منتصف الثلاثينيـات، اختفيت وسط استوكهـولم، كنت أنا وأمي قد ذهبنـا إلى حفلـة موسيقيـة للمدرسـة، وفي زحام الخـروج فقدت قبضتهـا، وجدتني أتحـرك مغلوبًا على أمري مع تيـار البشر، وبما أنني كنت بالـغ الصغر فلم يلاحظني أحد، كان الظلام يهبط هوتوريت، وقفت هنـاك عاريًا من أي شعور بالأمان، كان هنـاك

الكثـير مـن النـاس حولي، لكـن كل واحد منهم كان مشغولاً بهمومـه، لم يكن هناك ما يمكننـي الاعتمـاد عليه، بعد فـترة من الارتبـاك في البداية أخذت أفكـر، يمكنني أن أمشـي إلى البيت، يمكنني ذلـك تمامًا، لقد أتينا بالباص، وكنت جالسًا على ركبتي في الكرسـي كما كنت أفعل عادة لأنظر من الشباك، كانت دروتنجتان تتحرك للوراء، كان كل ما أحتاجه ببساطة، هو أن أعود عكسيًا في الطريق ذاته، محطة إثر محطة، مضيت في الطريق الصحيح، في رحلة المشي الطويلة تلك: لا أتذكر بوضوح غير تفصيلة واحدة الوصـول لنوبـور ورؤية المياه تتحرك تحت الجسر، كان المـرور هناك مزحمًا ولم أجرؤ علـى عبـور الشارع، تلّفت لرجل كان يقف بجوراي وقلت لـه: "الطريق هنا مزدحم"! فأخذني من يدي وعبر بي الشارع.

لكنــه بعـد ذلك تركني وعاد، لا أعرف لم أفترض هـذا الرجل، ومعه كل الكبار في الشـارع وقتهـا، أنه مـن الطبيعي أن يتجوّل طفـل صغير بمفرده في مسـاء إستوكهولم المظلم؟ لكن هذا ما حدث! كانت بقية الرحلة، عبر جاملاستان "الحي القديم" مرورًا بسلوسـن (وسط البلد) وصولاً إلى سودر معقّدة بـلا شك، لعلي وصلت للبيت بمعاونة نفسـ البوصلـة الغامضة، التي يصل بها الحمام الزاجـل والكلاب. حيث إنك تتركهم في أي مـكان إلا أنهـم يتمكنون دائمًا من العثور على البيـت، لا أذكر أي شيء عن هذا الجزء، كلا، إنني أذكر كيف كانت ثقتي بنفسي تزداد وتزداد حتى أنني عندما وصلت إلى البيت كنت أشعر بنشوة بالغة، رأيت أول ما رأيت جدي، بينما كانت أمي المنهارة في قسـم الشرطة تتابع تطورات بحثهم عني، لم تخذل جدي أعصابه الحديدية؛ فتلقاني بهـدوء وشـكل طبيعـي، كان سعيدًا بالطبع، لكنـه لم يثر أي ضجة، وعـدت أنا للشعور بالأمان والحياة الطبيعية.

بـدأت مشـوار التعليم في مدرسـة كاتارينا نـورا الابتدائية، وكانـت مدرستي هي السيـدة عانسـ أنيقة ترتـدي ملابس جديدة كل يـوم، مع انتهـاء المدرسة في الحصة الأخـيرة من كل سبت، كانت تمنح كل طفل قطعة كاراميل، إلا أنها كانت بخلاف ذلك مدرسة حازمة، كانت كريمة عندما يتعلق الأمر بشد الشعر وتوجيه اللكمات، رغم أنها لم تقم بضربي قط؛ فقد كنت ابنًا لمُدرسة زميلة!

كانت مهمتي الرئيسية في ذلك الفصل الدراسي الأول هو البقاء ساكنًا في مقعدي، كنت أتقن فعليًا الحساب والكتابة، كان مسموحًا لي أن أجلس وأقص أشكالًا من الورق الملـون، كانـت الأجواء رائعة في العـام الأول، لكنها بدأت تزداد رتابـة مع مرور الأيام، كان أي اضطراب في النظام، أي عقبة أو مشكلة، تجعل السيدة راء تفقد أعصابها، لم يكن مسموحًا لنا بكثرة الحركة أو الصوت المرتفع، لم يكن مسموحًا لنا أن نبكي، ولا أن نظهر صعوبات غير متوقعة في التعلّم، وقبل كل شيء، لم يكن مسموحًا لنا فعل أي شيء غير متوقع، لم يكن من حق أي طفل أو طفلة يُبلل ملابسه، في خزي وعار، أن ينتظر أي رحمـة، كما أسلفـت، أنقذني كوني ابنًا لمُدرسة من اللكمات، لكنه كان بوسعي أن أشعر بجـو القهـر المتمثل في تلك التهديدات واللـوم، في الخلفية وكانت تظـل دائمًا المدرِّسة الأولى، الشخصيـة المرعبة ذات الأنـف الشبيه بالصقر، كانت أسوأ الاحتمالات هو أن تذهب للإصلاحية، الشيء الذي يمكن أن يوصي به في ظروف معينة، لم أكن شخصيًا أشعر بخوف من ذلك، غير أن الفكرة في حد ذاتها كانت تمنحني إحساسًا بغيضًا.

كان بإمـكاني أن أتصور جيدًا شكل هذه الإصلاحيـة، لا سيما بعد أن عرفت اسم واحدة منها SCRUBBA الاسم الذي كان يقترح وجود مبارد ومَسَاحج وما شابه، اعتـبرت ذلك دليلًا على تعرض النـزلاء هناك للتعذيب، كانت الرؤية التي شكلتُها عن العـالم ترجح وجـود مؤسسات خاصـة يقوم فيها الكبـار بتعذيب الأطفـال ـربما حتى

المـوت، عقابًا لهـم على إزعاجهم، كان ذلك مرعبًا، لكنـه كان حتميًا، لو كنا مزعجين إذن، حيث أخذوا ولدًا من مدرستنا للإصلاحية وعاد بعد عام من هناك، كنت أراقبه كأني أراقـب شخصًا بعث من موته، كان التهديد الأكثر واقعية هو الإخلاء، في الأعوام الأولى مـن الحرب، كانت هناك خطط بإخلاء جميـع طلبة المدارس في المدن الكبرى، كتـب أمي اسـم ترانسترومر بحبر لامع على أوراقنا، ومـا إلى ذلك من إجراءات، برز سـؤال حـول ما إذا كان سيتم إخلائي مـع أمي وفصلها المدرسي أو مـع فصلي أنا من كاتارينـا نورا، بمعنـى أن يتم إخلائي مـع السيدة راء، لكنني تشككـت في حدوث هذا الاحتمـال الأخير، فـررت من مصير الإخـلاء ؛ استمرت الحيـاة في المدرسة، في أيام الأحـد نتناول العشاء عادة عند خالي أو خالتي في أنسكيد؛ كانا يمثلان نوع من الدعم الأسري لأمي بعد الطلاق.

كان هنـاك ما يشبه الطقس، أن نشغل إذاعة البي بي سي في البداية شارة النصر ثم لحن توقيعي، الذي كان يُزعم أنه معزوفة بروسيل للترومبيت، بينما هو في الحقيقة توزيـع مصطنـع لمقطوعة جرميـا كلارك للهاريسكـورد، أتذكر صـوت المذيع الهادئ، ولكنتـه الخفيفـة يتحـدث إلي مباشرة حتى لو كانـت القنابل تنزل فـوق رءوسهم مثل المطر، حين كنا نركب قطار الضواحي متجهين لإسكند كنت أطلب من أمي دائمًا - التي لا تكـره شيئًـا قدر أن تلفت الانتباه لفض صحيفة × النشـرة الدعائية أخبار بريطانيا العظمى، وهكذا نعبر عن موقعنا بشكل صامت، كانت تلبي لي كل طلباتي تقريبًا ومن بينها ذلك.

لم ألتـقِ والـدي أثناء الحـرب إلا نادرًا، لكنـه ظهر ذات مرة، وأخـذني لحفل مع أصدقائـه الصحافيـين، كانت الكئوس على أهبة الاستعـداد، كان ثمة صخب وضحك ودخان سجائر كثيف، تجولت في المكان، حيث كان يتم تقديمي والإجابة عما أتلقاه من أسئلـة، كان هناك جو مـن الاسترخاء والتسامح وكان بإمكاني فعـل ما أريد، انفردت بنفسي خفية جوار أرفف مكتبة ذلك البيت الغريب.

جون ماكسويل كويتزي
وأُمّــه المُقدّســة

يتكلــم كويتزي في مذكراتــه، عن نفسه بصيغة الـ "هو" كأنــه شخص آخر وليس هو، سمحت هذه المسافة النفسية، التي صنعها بينه وبين نفسه، بهذا الرصد الفلسفي المتأمل والبارد، الذي يتسم به، وكذالك سمحت له بالتأويل والحكمة والموضوعية.

وسمحت له بأن تقسم الطفولة إلى اثنين، وهذا أحد مظاهر تعددها وشعريتها، زمن المذكرات هو جنوب إفريقيا ما بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٧ م، في بدايات ممارســة نظام الفصل العنصري بين البيض والسود، والــذي أعلن بشكل رسمي عام ١٩٤٨ م مع وصول الحزب الوطني اليميني الأبيض ذي الأصول الأفريكانية (الأوروبية) إلى الحكم، والذي كان من بين أهدافه استمرار حكم العرق الأبيض في جنوب إفريقيا.

في ذلــك الوقت كان هناك أكثر من مجموعة عرقية تعيش هنــاك: أصحاب الأرض الأصليــون من قبائــل البانتو ذوي البشــرة السوداء، والأفريكان مــن أصحاب الأصول الهولنديــة والأروبية بشكل عام، باللإضافة للملونين الذين جاءوا بالتزاوج بين السكان المحليين والأروبيين، أو بين الأسيويين المهاجرين والأروبيين.

هذا الخليط من الأعراق واللغات، وحساسية كل طرف للآخر، جعل طفولة كويتزي مليئــة بالحدود والتصــورات عن الآخر وأيضًا عن الذات، التي تحاول أن تحدد موقعها وسط هذه التقاطعات،

كان والــدا كويتزي ينتميان لقومية "الأفريكان" التــي ترجع إلى أصول هولندية، وكانا ذوا تعليم عالٍ: يتقنان اللغة الإنجليزية، التي كانت مقصورة في تلك الفترة على النخبــة، والتــي أتقنها كويتزي بــدوره، فظل بعيدًا عــن أشباهه وزملائــه في الفصل، الذيــن ينحدرون مثلــه من أصول أوروبية ويتكلمون لغــة "الأفريكان" وهي لغة مشتقة

من الهولندية ممزوجة بكلمات ألمانية وإنجليزية، وبكل ما تحمله هذه اللغة من ذكورية وإيحـاءات جنسيـة، لذا كانت "ذاته" تتكـون في ظروف خاصة، وبشـكل غير طبيعي مقارنـة بأشباهـه، وسيكون هذا الاختلاف أو السلوك (غـير الطبيعي) أحد محددات حياتـه وفي نظرتـه لكل شـيء حوله، وفي نظـر الآخرين له، منذ طفولتـه يراقب نفسه واختلافـه عن الآخرين من زملائـه وأقرانه "وكان ينتابه إحساس بأنه مهدم، وكان يتملكه شعور بأن ثمة شيئًا ما يمزقه ببطء في داخله دائمًا: جدار، غشاء، وكان يحاول أن يظـل متماسـكًا قدر الإمكان ليبقى ذلك التمزق محصـورًا في حدوده، لكن شيئًا لم يكن يوقفه".

لم يكـن هنـاك ذنوب عظيمة كان يحاول أن يتنصل منهـا ويلصقها بالـ (هو)، إلا الخـوف من الخطأ أو بمعنـى أصح الخوف من الفشل، الذي جعلـه يتعثر في خطواته، وفي استبـاق المستقبـل: كان ينتابه دائمًا هاجس أن يخطئ قـراءة ساعته، أو أن يفوت القطـار، أو أن يسلك الطريق الخطأ، كان يبكي في كوابيسه بيأس عاجز "هذا الخوف من الخطـأ جعله الأول على المدرسة وجعله المتمارض دومًـا، وجعله الشخص المختلف غـير الطبيعـي" × الذي سيكون له مصير مختلف عندما يلتحم خوفه بحبه لأمه، تلك الشخصيـة الاستثنائية والأساسية في حياته، يصف أمـه ضمن هؤلاء المختلفين وغير الطبيعـين الذيـن يتصفون بصفات مفارقـة "كما لو كانت تجلـب المصائب لنفسها لا لشيء إلا لترى العالم مدى قدرتها على التحمل".

يكتب في مذكراته: "كان يقسي قلبه ولا يلين، وكان عذره الوحيد أنه متحجر القلب لنفسـه أيضًـا، كان يكـذب لكنه لم يكن يكذب علـى نفسه"، خـوف، أو تخيل كويتزي لمـوت أمه، التـي كانت تشكل المركز في البيـت، الذي يسبغ الحمايـة والسلطة على من حولـه، جعله يلبـس طفولته، وأسلوبـه الأدبي فيما بعـد، قناعًا من القسـاوة والبرود، قسـاوة موجهة لنفسه وللآخرين، هـذا عذرها، كي يتحمل زلزال موت هذه الأم، الذي

لم يحــدث، كأن كتاباته جــاءت دفاعًا من أجل موت لم يحــدث، أو إمتصاصًا لصدمة موت لم يحدث،

ثــم نصل للموقــف الفارق، في مذكراتــه، بينه وبين أمه، الــذي يتجسد فيه الموت، الــذي لم يحدث، في سؤاله مباشرة لأمه: "سألها ذات يــوم: متى ستموتين؟" متحديًا إياهــا، فدهشــت من جرأتــه وأجابته: "لن أمــوت"، تكلمت ببشاشة، لكــن ثمة شيئًا مصطنعًــا في طلاقة محياهــا، لم يكن يستطيع أن يتخيلها وهــي ميتة، فقد كانت أكثر الأشيــاء صلابة في حياته، وكانــت الصخرة التي يقف عليهــا، وبدونها يصبح لا شيء مجــرد نكرة، الحــب والخوف من موت الأم خلق هذا الوجــه، الأسلوب القاسي للابن، الذي يجري من تحته نهر من الألم الذاتي والذنب وأيضًا الحب الجارف لهذه الأم.

كان كويتــزي خائفًا من موت أمه، كما كنا نشعــر جميعًا تجاه أمهاتنا، هذا الكيان الــذي تشعب في نفوسنــا وأصبح اقتلاعه من أرض حياتنا هو أيضًا اقتلاعًا لنا وذوبانًا وتلاشيًا لذواتنا.

فحفاظًــا عليه حافظ على هذا الجزء الــذي يملكه فينا، وهو بلا شك كبير، ولكنه أيضًــا هذا الجــزء الأمومي بداخلنا، قابل للتوالد وأن يكــون بداية وليس نهاية، فالموت لهذا الجزء هو ميلاد لأمومة من نوع آخر تظل تغذي نهر الحياة، ولكن كويتزي الطفل لحظــة الخــوف هذه لا يعرف بكل هــذا، ولا يرى الجانب الآخر من المــوت والأمومة، لا يعــرف أنه نفسه سيصبح أمًا ولكن بصيغة المذكر، كما عاشت المرأة في كتاباته كمظلة كبيرة جامعة للعديد من المشاعر المتضاربة.

المــرأة التــي كان يرى فيها موت أمه، والتي لازمت طفولــة كويتزي، لم تعكس فقط وجه الأم، بل عكست موته هو أيضًا، كان يكذب هذه المرآة وهذه الرؤية، ويحاول بأنانية طفولتــه، أن يرى نفسه أبديًا، خالدًا، لن يموت، يكتب عن شكل موته في الطفولة: "أما موتــه فكان مسألة مختلفة، إذ سيكون موجودًا بشكل من الأشكال بعد موته، يطوف في

المكان، يتمتع بالحزن بشكل مـن الأشكال بعد موته، يطوف في المكان، يتمتع بالحزن الذي ينتاب أولئك الذين سببوه له، والذين يتمنون أنه مازال حيًا، رغم فوات الأوان"، كأنـه حي ولكنه غير مرئـي، يسمح له موته بالتجوال كشبح يجنـي ثمار هذا الموت من أجـل رصد حب الآخرين وحزنهـم عليه، بالتأكيد أنه كان يقصد أمه، الذي يكون موته مزلـزلًا لكيانهـا، كأنه ينتقم من حبهـا وسلطتها عليه بأن يتخيـل، ويتخيل فقط موته وتأثـيره عليها، لا يرى موته إلا متسجـدًا في غيره، وهي الأم، التي تشكل الجزء الأقدم والعتيـق داخل هـذه النفس الصغيرة، الموت يتجسد ويتحقق أكثر في هذه الأم وليس في نفسه، لذا إدراكه لهذا الجزء الفاني في نفسه جاء عبير الأم، وحبه لها وتعلقه بها، في مـكان آخـر من المذكرات يتحدث عن موته هو، بعـد أن نضج مفهوم هذا الموت داخله، وأصبـح هـذا الطفل الأناني، يفرق بين المـوت والزوال، ذلك الفضـاء العدمي الذي لا يوجد فيه لا هو ولا أمه.

يكتـب في مذكراته: "كان يحاول في هذا السكـون أن يتصور موته، يلغي نفسه من كل شـيء: المدرسة، من البيت، من أمه، يحاول أن يتخيل الأيام وهي تمضي في سبيلها بدونـه، لكنه لا يستطيـع، فقد كان هناك دائمًا شيئًا يخلفـه وراءه، شيء صغير أسود، كالبندقيـة، كحبة بلـوط ملقاة كانت في النـار، جافة، ورمادية، وصلبـة، وعاجزة عن النمـو، لكنها كانت تقع هنــاك، كان باستطاعته أن يتخيل نفسه يموت، لكنه لم يستطع أن يتخيـل نفسه وهو يختفي ويتلاشى، يحاول كمـا يشاء، لكنه لم يكن بوسعه أن يهلك آخر ما تبقى منه".

ثـم يتسـاءل: " ما الذي يبقيه في هذا الوجود؟ هل الخوف من حزن أمه، فقد كان حزن أمه عظيمًا إلى درجة لم يكن يقدر على التفكير به لأكثر من ومضة؟ "

أحمد فؤاد نجم

أمّي علمتني الثورة

"الفاجومي" هو الاسم الذي سميت به مذكرات الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم، أحد أهم شعراء العامية المصرية، وفي مذكراته سرد لأيام طفولته وصباه، ونجوميته، ودخوله السجن مرات عديدة بسبب نقده اللاذع، إلا أنه خصص جانبًا من مذكراته لوالدته "هنومة".

تناول نجم علاقته بوالدته في الفصل الأول من مذكراته التي نشرت بعنوان "مذكارت الفاجومي" في عام ١٩٩٣ م.

يقول الفاجومي، شاعر العامية الراحل: "اللي شوفته ها أقوله من طق طق لسلامو عليكو، عجبك كلامي اشتري، وأهل زمان يقولو الشاري كسبان والبائع خسران، ما عجبكش الكلام، بين البائع والشاري يفتح الله، الله يرحمك يا أمه، هي اللي علمتني اللماضة دي!"

ويضيف: "كانت واحدة فلاحة لا بتكتب وبتفك الخط، إنما أجارك الله كانت في الكلام متكلمة، بس مش أي كلام، وكانت لم تبدأ ما تنتهيش زي إبريق العسل اللي ميل على بزبوزه وهاتك يا نز، ما تعرفش كانت بتجيب ده كلو منين؟

إشي حواديث على إشي نوادر على إشي حكم وأمثال على إشي مواويل في شكوى الزمان".

ويتابع: "وحتى لما كنا بنتخانق وده كان بيحصل يوميًا وبدون أسباب جوهرية، كانت تبدأ بالموشح يلعن سنسفيل جدود اليوم المنيل بستين نيلة هو يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٢٩ م، كان يوم أسود يوم ما جبتك كان صباحو أسود من مساه".

"جاني الطلق فيك يا مخفي الاسم وبعد حزق ومزق وهدّة حيل نزلت يا مقصوف الرقبـة وياريتك ما نزلت، كل عيـال المسلمين بتنزل بدماغهـا إلا أنت يا اللي تنضرب نـازل برجليـك لمـا كنت ح تموتنـي، وبقيت ستـك سعـدة الداية تخبط كـف على كف وشالوني على الاستبالية هيلا بيلا وأنا بين الموت والحياة ".

"لكـن ربك خلق الطب والـدوا وخلص روح من روح، وهنـاك نزلوا المرحومة فلقة قمـر آدي الشعر آدي الوشـ وآدي شرطة العين، وتلاقيك إنت اللـي قتلتها يا مجرم يا بن المجرم".

ويكمـل الفاجومـي في مذكراتـه: "يبقـى حسب روايـة الوالدة وبغض النظر عن مجموعة الكوارث اللي اتجمعت لاستقبالي نزلت محسوبكم متهم بارتكاب جناية قتل، وكمان مش مكفيني إني نازل برجليا، يعني نازل ماشي".

" وأهـو ومـن يومها وأنـا ماشي، بلاد الله خلـق الله أتفرج على الناسـ، والناس تتفـرج عليّ. حاطط همي في قلبي وكاتم الدم القبيـح لحد ما جرى جرى، وصلوا على خير الورى".

في إحدى حواراته سأله الصحفي ناصر اللحّام: "عندما كنت صغيرًا، بمن تأثرت من الشعراء؟

- أحمد فؤاد نجم: بأمّي،
- ناصر اللحّام: أمك؟ بالشعر؟

- أحمـد فـؤاد نجـم: طبعًـا أمي هذه حكايـة، كانت امـرأة لا تعـرف القراءة ولا الكتابـة، ففي إحدى المرات قلـت للدكتور "حسين فوزي" : أن أصـلًا أمي كانت امرأة جاهلة، فقال لي: "لا، أنت اللي جاهل" وزعل جدًا وقال لي إذا كانت لا تعرف القراءة والكتابـة فمـاذا يعني هذا؟ هي التي علمتني أن أكون رجلًا، وكيف أحافظ على كلمتي،

إحساســان ﷺ داخلي قتلتهمــا وهما الخوف والكراهية، أنا لا أخــاف من أحد ولا أكره أحدًا، أحد معين بمفرده لا أكرهه، وهذا وضع قائم.

يقـول نجـم: كانت أهـم قراءاتي في ذلـك التاريخ هـي رواية «الأم» لــ مكسيم غوركـي، وهي مرتبطـة في ذهني ببداية وعـي الحقيقي والعلمي بحقائـق هذا العالم، والأسبـاب الموضوعيـة لقسوتـه ومرارته، ولم أكن قـد كتبت شعـرًا حقيقيًا حتى ذلك الحـين، وإنما كانت أغـاني عاطفية تدور في إطار الهجر والبعد، ومشكلات الحب التي لم تنته حتى الآن، وكنت في ذلك الحين أحب ابنة عمتي وأتمناها، لكن الوضع الطبقي حال دون إتمام الزواج لأنهم أغنياء.

توفـى أحمد فؤاد نجم في يوم الثلاثـاء ٣ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٣ م عن عمر يناهـز ٨٤ عامًا، بعد عودته مباشرة مـن العاصمة الأردنية عمّان، التي أحيا فيها آخر أمسياتـه الشعريـة بفرقة الحنونة بمناسبـة ذكرى اليوم العالمـي للتضامن مع الشعب الفلسطيني، وقد تم تشييع جثمانه في مسجد الحسين بمدينة القاهرة قال عنه الشاعر الفرنسـي لويـس آراغون: "أن فيه قوة تسقط الأسـوار"، وأسماه الدكتور علي الراعي الشاعر البندقية، في حين سماه أنور السادات الشاعر البذيء.

أمَــة العليم السوسوة
كل ما أنــا فيه اليوم كان بفضل أمي

بعد وفاة الأب، رفضت والدتها العودة إلى بيت أهلها، كما تقضي التقاليد اليمنية، إذ تحميهــا تلك الخطوة مــن "ألسنة الناس" الجاهزة للنيل من أرملة تسكن وحدها، قاومــت تلــك السيدة، ولم تبــال النظرات الجارحة مــن حولها، فأرسلــت أولادها إلى المدارس، وبعثت بعضهم للدراسة بالخارج، مما عرضها للانتقادات وعدم الرضا من أهلها.

بــدأت أمة العليــم ترسم صورتهــا كفتاة استثنائيــة منذ طفولتهــا، هكذا، ذهبت ضمــن مجموعة مكونــة من عشرين طفــلًا إلى الإذاعة المحلية، من أجــل المشاركة في مشــروع غنائــي للأطفال، وكانت البنت الوحيدة بين كل أولئــك الصبيان، نجحت أمة العليم في الاختبار، لكنهم أخبروها أنها لن تستطيع الغناء ولا الوقوف أمام مايكروفون الإذاعــة، وفي وقت لاحــق، دخلت في فرقة المرشدات، وكانت قائــدة على أكثر من ألف فتــاة، كــن يقمن بغرس الأشجــار، وتنظيف القبــور، وزيارة المستشفيــات، ومن ضمن مهامهــن زيارة المرافــق الحكومية، وفي إحــدى المرات زارت مبنــى التلفزيون، وهنــاك طلــب منها مديــره تقديم نشرة الأخبار، كانــت تنهي عامها الســادس عشر، ولم تنسَ بعــد حلمها بمايكروفون الإذاعة، وجدت نفسها فجــأة ليس أمام المايكروفون فقط، بل أمــام الكاميرات أيضًا، ظهرت كما هي على هيئتها الطبيعية من دون شعر مصفف ولا مكيــاج، "في مخالفة صريحة لنظام العمل في التلفزيــون المحكوم بمتطلبات مساحيق التجميــل"، تقول: "أغرقتنــي المفاجأة في الخجل، وحاولت العثــور على ثغرة أستطيع الفــرار عبرهــا، لكنهم لم يتركوها"، في صباح اليوم التــالي، كان الجميع يتحدث عن البنت السمراء التي قرأت نشرة الأخبار.

تذكـر بالمصادفة! إذا بدأت حياتهـا في الإعلام، وأكملتهـا أكاديميًا، سافرت إلى القاهـرة ودرست الإعـلام في جامعتها، ما أتـاح لها التدرب في إذاعـة صوت العرب، بعـد ذلـك انتقلـت إلى واشنطن، حيث تابعـت تحصيلها العلمي، ونالـت ماجستير في الإتصالات الدولية من الجامعة الأمريكية عام ١٩٨٤ م.

عندما عـادت إلى اليمن، عملت مقدمة ومخرجة برامـج، ثم نائبة لمدير البرامج في "محطة صنعـاء التلفزيونية" لتكون أول امرأة تتبوأ بهذا المنصب، ثم عينت وكيلة لـوزارة الإعلام كأول امرأة أيضًا، وفي عـام ٢٠٠٠ م، عينت سفيرة لليمن لدى السويد والدنمارك وهولندا، وهو كذلك أول منصب رفيع تتولاه امرأة في اليمن.

كثـيرة هي مفـردة (أول امـرأة) في حياة هـذه السيدة، في عـام ٢٠٠٣ م، دخلت الحكومـة في بلادهـا وزيـرة لحقوق الإنسـان، وكان مـن الصعب عليهـا أن تتأقلم مع منصـب مستحـدث في بلد مـازال يشهد مظاهـر منافية لمفهـوم حقـوق الإنسان من أساسه، مثل السجون الخاصة التابعة لشيوخ القبائل، تلك الزنازين ما زالت مفتوحة، وتعلم السلطات بوجودها، وبعد أول تعديل أطاح الحكومة غادرت الوزارة، لتجد نفسها في آذار مارس ٢٠٠٣ م على موعد مع منصب دولي رفيع، نجحت في تبوئه عبر دخولها في مسابقـة دولية مفتوحة، لا بد من الحكومـة اليمنية في الترشح لها، بفضل خبراتها المتشعبة، أصبحـت الأمين العام المساعد للأمم المتحدة، والمديـر الإقليمي لـ (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي) في الدول العربية، على رأس فريق عمل مكون من ٥٠٠ موظف يعملـون في ١٧ مكتبًا في المنطقة العربية، هكذا نجحت أمة العليم في تخطي الكثير من العقبات، معتمدة على سندين كبيرين: أم عظيمة، وحلم لم يتوقف عن النمو داخلها.

فاطمـة ناعـوت

أمـي تمـوت مرتين

وأنا طفلة كنت أركض إلى أمي صارخة: "عاوزة أخت تلعب معايا!" وكانت تضحك وتقـول: "كفايـة عليّ أنتِ وأخوكي جننتوني"، أغضـب وأعود للعراك مع شقيقي الذي يكـبرني بسنوات ثلاث، ولا مشتركات بيننا تمهّد لطريـق صداقة، كنت أنظر إلى أمي باعتبارهـا (امـرأة سوبـر خارقة) تصنـع المستحيـلات، وكانت هكـذا بالفعل، فكان يدهشني جدًا ألا تطلبي × لي طلبًا سهلًا للغاية مثل هذا! مجرد طفلةٍ مثلي، تجلبها من حيثمـا جلبتني، وخلاص! فأعود باكية حيـث يشاكسني شقيقي، وأعاود الطلب كل يوم تقريبًا، دون جدوى.

ولمـا يئسـت من أمي، لجأت إلى الله الذي كنت ومازلـت أحادثه في كل شئوني دون خجل، أناقشه فيما أقرأ، وأسأله حول كل ما يحيرني، وأعاتبه حين تمرض أمي، وأطلب منـه كل ما أحتاج إليه من لُعب وفساتين وكتب، فيجيب على كل تساؤلاتي، ويمنحني ما أطلـب، ويساعدني حتى في حـلّ معادلات الرياضيات والهندسـة، ويملأ قلبي بالراحة والطمأنينة فأتأكد أنه يحبني، ولكن حين طلبت من حبيبي الله أن يمنحني طفلة ألعب معها، لم أكن أعلم أن هذا مستحيل، لأن أمي دفعت رحمها ثمنًا لمجيئي إلى هذا العالم، فقـد نزفت لحظة مولدي وكادت تموت وخير الطبيب أبـي بين زوجته وبين الطفلة أنا، فاختـار أبي زوجته، ثـم خيّر الطبيب أمي بين الطفلة ورحمهـا فاختارتني أنا، وفقدت الكوخ الطيب الذي كان يمكن أن يحمل ويحتضن شقيقتي، التي أبدًا لم تجيئ.

وقتهـا لم أتصور أن يومًـا بعيدًا وقاسيًا سيأتي لأطلب مـن الله مستحيلًا آخر، أن يُعيد إليّ أمي، التي تركتني وطارت إلى حيث تطيرُ الأمهات ولا يعدن أبدًا، تركتني أمي

وأنــا أمٌ لصبيين جميلين وناضجين، ومع هذا شعــرت لحظة سفرها للسماء، أنني تلك الطفلــة النحيلة الضعيفة، التي تهرب إلى صدر أمها لتختبئ فيه كلما صدمتها الحياة والناســ بقســوة، عاتبت الله أن حرمني من أمي! لكن ثقتي في أنها ترعاني من السماء خفّف عني حجم الفقد الذي عصف بي.

بعدما رحلت أمي في ٥ سبتمبر ٢٠٠٨ م، كتبت مقالًا عنوانه: "صوت أمي يطير مرة واحدة"، أعزّي نفسي قائلة: "أرحم ما في موت الأمهات؛ أنهن لم يمُتن مرة أخرى، أن ينتهــي رعــب المرء من فكرة أمه"، هكذا كنت أبحث عن سلوى، ولكن في ذكرى رحيلها السادســة ٢٠١٤ م، كتبــت مقــالًا عنوانه: "أمي تمــوت كل يوم"، اعترفــت فيه بأنني خدعــت نفسي سنين عددًا، وأننــي مازلت أرفض فكرة رحيلها، لكــن يبدو أنني كبرت جدًا، وفقدت طفولتي إلى درجة أنني لم أعد أجرؤ على أن أسأل الله المستحيلات، كما كنت أفعل في طفولتي، فلم أعد أسأله أن يعيد لي أمي، ولكن كما تعلمون، لا ينتظر الله أن نطلب بشفاهنا، لأنه يقرأ القلوب الصامتة ويمنحنا ما نحتاج إليه، وأن لم نطلب.

بعد مقالي الأخير الحزين ذاك، وتحديدًا يوم ذكرى رحيل أمي، قرر الله أن يحقق لي حزمــة مــن المستحيلات التي لم أعد أجرؤ على طلبها، منحني أمًا مثقفة حنونًا هي سنــدي الروحي والنفسي في الحياة، اسمها (آنجيل) وهي بالفعل الملاك الذي أرسلته السمــاء، ليخفــف عني مصاعــب الحياة، ويمنحني الحــب الذي ضاع مــن حياتي مع رحيــل أمي، تهاتفني في الصباح، وتدعو لي حــين ينكسر عودي تحت معاول الصعاب، تقوييننــي وتشــد مــن أزري وتهوّن عليّ ما ألاقــي، تطعمني بيديها مــا أشتهي من طعام اختفــى من حياتي برحيــل أمي، وتمنحني معــارف الحياة التي غاب عنــي أن أتعلمها في رحلــة دراستي وعملي وكتبي ومعاركي الفكرية، ولكــن الله كريمٌ فوق ما نتصور، لم يكتــفِ بمنحي مستحيل أمي بل وهبني كذلك المستحيل القديم الي كففتُ عن طلبه، لم

يمنحنــي شقيقــة واحدة كما كنت أطلــب في طفولتي دون رجاء، بــل شقيقتين، "سالي وجيهــان"، ســالي التي تصغرني بأعوام كثيرة، غدت مرجعــي في الحياة، لأتعلم منها وأتسنّد عليها فأقوى، كم هو الله طيب وعطوف، يجيب أسئلة قلوبنا، وأن صمتت.

عيــد الأم بعــد أيام قليلــة، ولكن هذا العــام أفتقد أمي، التي سافــرت إلى السماء وتركتني وحيدة، فقد أرسلت لي أمًا جديدة جميلة، ستعيد لعيد الأم بهجته التي غابت منذ سنوات سبع، أشكرك يا ماما "سهير" على هداياك الطيبة، التي أرسلتِها لي بعد رحيلك، فأنعمي بالسماء ولا تقلقي عليّ بعد اليوم.

وكل عام وأنتِ جميلة كما أنتِ يا ماما (آنجيل)، ربنا يحافظ عليك من أجلي، وكل عام ومصر الكبرى أجمل وأرقى.

أرحــم ما في مــوت الأمهات، أنهن لن يمتن مرة أخرى، تموت الأمهات مرة واحدة، فقــط وينتهي الأمر، هو مُرٌ تتجرعــه كأسًا واحدة، ثم يزول الرعب السابق له، ويستمر المرُّ اللاحق له، من يرتبط بأمه كثيرًا، يعيش حالة دائمة من القلق من فكرة فقدانها، ولا يتوقف ذلك القلق إلا حين تذهب الأم، فيتخلص المرء من الخوف من فقدانها، لأنه بالفعــل قد فقدهــا، تلك هي الرحمة الوحيدة في موت الأمهــات، قبل عشر سنوات، في سبتمــبر ٢٠٠٨م، غدرتني سهير وغادرتني فكتبت مقــالًا عنوانه "صوت أمي لا يطير مرتــين"، واسيــت فيــه نفسي بأننــي تخلصت للأبد مــن الهلع المقلق مــن فكرة (فقد أمــي)، فقدتها وانتهى الأمر ولــن أفقدها مجددًا، منذ طفولتي وأنا أعيش ذلك القلق: "ماذا لو اختفت أمي؟"، لأنها كانت السند الوحيد لي في هذا العالم.

وسرعــان ما اكتشفت الخدعــة التي واسيت بها نفسي، حــين أيقنت أن أمي تموت كل مــا احتجــت إليها فلا أحد حولي، كلمــا داهمتني مشكلة أبحث عــن أمي لتسندني فأكتشف أنها لم تعد هناك، فأتجرع كأس فقدها من جديد، فكتبت مقالًا حزينًا عنوانه

"أمــي تمــوت كل يوم"! نقضت فيــه مقالي القديم وتساءلت: "هــل اختفى صوت أمي للأبــد؟"، وسألــت الله يائسة على استحياء، أن يصنــع لي معجزة ويُعيد لي أمي! كان ضربًا من جنون الخيال، أتوسل به القوة على مواصلة الحياة في ذلك اليوم، بعد كتابة المقال، حدث أمر عجيب، وقعت عدة مصادفات عبثية، لا تحدث إلا في الأفلام الهندية، ووجــدت في حياتي فجأة أمًّــا رائعًا منحتني حنانًا لم أجرؤ علــى مجرد الحلم به، إنها هدايــا الله المستحيلــة التي يعجز العقــل البشري المحدود عن تصورهــا أو استيعابها، تطلــب الله شيئًا عصــيّ المنال، ونحن ندرك في لاوعينا أنــه مستحيل، فيمنحنا الله ما يفــوق أحلامنا، دون مبرر معقول، سنوات طوالًا، منحتني تلك الأم الروحية ما يصعب حصره في مقال أو كتب، كانت السند والرحمة والفرح والحب والرعاية، ورقصت على لســاني من جديــد أجمل الكلمات وأشهاها: "ماما" تلــك السيدة هي المعلمة الفاضلة "آنجيــل عطاس هارون"، أمي الروحية الجميلة، التي ضربها قبل شهور أشرس أنواع السرطــان، وخطفها مني الثلاثاء الماضي ٥ يونيو الحزين، يوم نكسة مصر التاريخية، نكسة قلبي الموجعة، لأتجرع كأس اليُتم من جديد.

أقســى وأقصــى ألوان الحرمان يأتــي بعد المنح، في يوليــو ٢٠١٦ م، في أثناء العام الصعب الــذي قضيته خارج مصر، كانت معنوياتي منخفضــة للغاية بسبب بُعدي عن أسرتــي وبيتي ووطنــي، فقرر الأصدقــاء المصريون المقيمــون بدولة الإمــارات، وعلى رأسهــم الصديــق والأخ رأفت إسكنــدر سفير السلام بالأمم المتحــدة، أن يخففوا عن مرارة الاغتراب، بأن يجلبوا لي "قطعة من مصر".

طلبــوا مــن ماما آنجيــل، أن تأتي لزيارتــي في الإمارات، لكنها كانــت مريضة ولم تستطع السفر، وقررت سالي عزمي، ابنتها وصديقتي أن تسافر إليّ وحدها،

ذهبت إلى مطار أبوظبي لاستقبال سالي، وكانت المفاجأة التي رتبّها السفير رأفت

دون علمــي، فوجئت بأن أمــي الروحية قد تحاملت على نفسهــا ومرضها وسافرت من أجلــي، هول المفاجأة جعلني أسقط على الأرض من فرط الفرح، وانخرطت في البكاء، تلك هي الأم العظيمة التي فقدتها أمس، ويا لهول الفقد.

في كتابــي وشيك الصــدور "الكتابة بالطباشــير الملوّن"، كتبت لهــا إهداء يقول: "مامــا جــولا، لا تتركيني"! لكنهــا تركتني وسافرت إلى السماء قبــل أن ترى الكتاب، فهــل أغــيّر الإهداء وأعاتبها علــى تركي وحيدة؟ أم أتركه شاهــدًا عليها، وعلى لحظة مُرّة من حياتي؟ أمي ماتت مرتين!

سهير، آنجيل، سلامًا على روحيكما الطيبتين.

مصطفى العقاد

كذبـات أمـي الثمانية

مصطفى العقاد (١٩٢٩ م- ٢٠٠٥ م) مخرج ومنتج سينمائي سوري المولد، أمريكي الجنسيـة، ولد في حليب بسوريا ثم غادرهـا للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية في جامعة كاليفورنيا، وأقام فيها حتى أواخر مراحل حياته.

اشتهـر كمخـرج سوري عالمـي في هوليوود، ومـن أشهـر أفلامه الرسالـة، وأسد الصحراء "عمر المختار".

يقـول المخـرج العالمـي الدكتـور مصـطفى العقـاد: "كنت أظـن أن الأم لا تكـذب، ولكني أدركت أن ظني خاطئ بعدما كذبت أمي ثمـاني كذبات وإليكم أكاذيب أمـي لتعرفوا كيف تكذب الأم، تبدأ القصة عند ولادتـي، فكنت الابن الوحيد في أسرة شديـدة الفقـر فلم يكن لدينا من الطعام ما يكفينا، وعندمـا كنا نأتي بأرز قليل لنسد بـه جوعنا كانت أمـي تعطيني نصيبها، وبينما كانت تحول الأرز من طبقها إلى طبقي، كانت تقول: "يا ولدي، تناول هذا الأرز فأنا لست جائعة"، وكانت هذه كذبتها الأولى،

وعندما كبرت أنا شيئًا فشيئًا كانت أمي تذهب للصيد في نهر صغير بجوار منزلنا، لتأتـي لي ولـو بسمكة واحـدة أسد بها جوعـي، وفي مرة من المـرات استطاعت بفضل الله أن تصطـاد سمكتين، أسرعت إلى البيـت وأعدت الغداء، ووضعت الغداء ووضعت السمكتـين أمامي، فبـدأت أنا أتناول السمكـة الأولى شيئًا فشيئًا، وكانـت أمي تتناول مـا يتبقـى من اللحم حول العظـام والشوك، فاهتز قلبي قلبي لذلـك ووضعت السمكة الأخـرى أمامهـا لتأكلها، فأعادتها أمي فـورًا وقالت: "يا ولـدي ألا تعرف أني لا أحب السمك؟" وكانت هذه كذبتها الثانية.

وعندمــا كبرت أنــا كان لا بد أن ألتحق بالمدرسة، ولم يكــن معنا من المال ما يكفي مصروفـات الدراسة، ذهبت أمــي إلى السوق، واتفقت مع موظف بأحد محال الملابس أن تقــوم هي بتسويق البضاعة، بأن تدور علــى المنازل وتعرض الملابس على السيدات، وفي ليلــة شتاء ممطرة، تأخرت أمي في العمــل وكنت أنتظرها بالمنزل، فخرجت أبحث عنها في الشــوارع المجاورة، ووجدتها تحمل البضائع وتطــرق أبواب البيوت، فناديتها: "أمــي هيا نعود إلى المنــزل فالوقت متأخر، والبرد شديد، وبإمكانك أن تواصلي العمل في الصبــاح"، فابتسمــت أمــي وقالت لي: "يا ولــدي، أنا لست مرهقــة" وكانت هذه كذبتها الثالثة.

وفي يــوم كان اختبار آخر عــام بالمدرسة، أصرت أمي علــى الذهاب معي، ودخلت أنــا ووقفت هي تنتظر خروجي في حرارة الشمس المحرقة، وعندما دق الجرس وانتهى الامتحــان، خرجــت لها فاحتضنتني بقــوة وبشرتني بالتوفيق مــن الله تعالى، ووجدت معها كوبًا فيه مشروب كانت قد اشترته لي كي أتناوله عند خروجي، فشربته من شدة العطشــ حتى ارتويت وفجأة نظــرت إلى وجهها فوجدت العرق يتصبب منه، فأعطيتها الكــوب علــى الفور وقلــت لها: "اشربي يــا أمي"، فــردت: "يا ولدي أشــرب أنا لست عطشانة" وكانت هذه كذبتها الرابعة.

وبعد وفاة أبي كان على أمي أن تعيش حياة الأم الأرملة الوحيدة، وأصبحت مسئولة عــن البيت وحدها، فأصبحت الحياة أكثر تعقيدًا وصرنا نعاني الجوع، كان عمي رجلًا طيبًــا، وكان يسكــن بجانبنا ويرسل لنا ما نسد به جوعنا، وعندما رأى الجيران حالتنا تتدهــور مــن سيء إلى أســوأ، نصحوا أمي بأن تتــزوج رجلًا ينفق علينــا فهي مازالت صغــيرة، ولكــن أمي رفضت الــزواج قائلة: "أنا لست بحاجــة إلى الحب" وكانت هذه كذبتها الخامسة.

وبعدما انتهيت من دراستي وتخرجت من الجامعة، حصلت على وظيفة إلى حد ما جيـدة، واعتقدت أن هذا هو الوقـت المناسب لكي تستريح أمي وتترك مسئولية الإنفاق علـى المنزل، وكانت في ذلك الوقت لم يعد لديها مـن الصحة ما يعينها على أن تطوف المنـازل، فكان تفرش فرشًا في السوق وتبيـع الخضروات كل صبـاح، فلما رفضت أن تـترك العمـل خصصت لهـا جزءًا مـن راتبي، فرفضـت أن تأخذه قائلـة: "يا ولدي، احتفظ بمالك، أن معي من المال ما يكفيني"، وكانت هذه كذبتها السادسة،

وبجانب عملـي واصلت دراستي كي أحصل على درجة الماجستير، وبالفعل نجحت وارتفع راتبي، ومنحتني الشركة الألمانية التي أعمل بها الفرصة للعمل بالفرع الرئيسي لهـا بألمانيا، فشعرت بسعادة بالغة، وبدأت أحلم ببداية حياة جديدة وسعيدة، وبعد ما سافـرت وهيأت الظروف اتصلت بأمي أدعوها لكي تأتي للإقامة معي، ولكنها لم تحب أن تضايقنـي وقالـت: "يا ولدي، أنـا لست معتادة على المعيشـة المترفة"، وكانت هذه كذبتها السابعة.

كـبرت أمي وأصبحت في سـن الشيخوخة، وأصابها مرض السرطان، وكان يجب أن أكـون بجانبهـا، من يهتم بها، ولكن ماذا أفعل فبيني وبين أمي الحبيبة بلاد، تركت كل شـيء وذهبت لزيارتها في منزلنـا، فوجدتها طريحة الفراش بعـد إجراء العملية، عندمـا رأتنـي حاولت أمي أن تبتسم لي، ولكن قلبي كان يحترق لأنها كانت هزيلة جدًا وضعيفـة، ليسـت أمي التي أعرفها، انهمـرت الدموع من عيني، ولكـن أمي حاولت أن تواسيني فقالت: "لا تبكي يا ولدي، فأنا لا أشعر بالألم"، وكانت هذه كذبتها الثامنة.

وبعد ما قالت لي ذلك، أغلقت عينيها ولم تفتحهما قط".

تركي الدخيل

أكثـر يـوم اشتقت فيه لأمي!

كنــت واقفًا، منتظرًا دورًا لا يقف فيها الرجال مرتين، الخطى محسوبة، والكلمات محــدودة لتعسر اللهج بها لهيبة الموقف، وتقل الأمانة، رددت لو كانت هنا، لما استثقلت حفــظ قسم، يحملني على جنــاج ثقة ملك، سفيرًا في بلاد، شرع لي أكارمها صدورهم قبل بييوتهم.

مــا أكرم قسم يوشحك بالأخضر المطرز بالشهادتــين، كانت تحضر كثيرًا، لتسند الجســد المنهك، وتقــوي همة تضعف، تذكرتها، فتقدمت للأمــام أمشي بتؤدة، حاولت ألا يتهــدج صوتــي، حيث تصبــح الأمانات أثقل، أمــام ولي أمري ومليكــي: سلمان بن عبدالعزيز، يومها أقسمت، بعد أيام من قلق ثقل الأمانة (وإنه قسم لو تعلمون عظيم)، بعد برهة، تهافتت التهاني من كل حدب وصوب، وغص الهاتف بحروف دعوات طيبة، وأمنيات عذبة، ممن تعرف ولا تعرف.

"تويتر" يفيض بالخبر، والدعوات، وبعض الاعتراضات، البريد مشتغل، واسمك بين السطــر وأخيه، مئات الرسائل تتضاعف بسرعــة، وإذا مرت حروف اسمي أصبح التحنان أكثر، فخورًا بك جدًا، منذ طفولتي. كبرت بذهو بكر، وكرم أم صادقته، ودلال جدٍ، وحفاوة جدة، ورعاية عم، واعتزار خال.

سهــرت عمــرًا كاملًا يا أمي، ولي علــى السهر جلد الهارب من حــزن الليل، ودمع الوحــدة، لكن هأنذا، أقسم عقب ليلــة باردة، طاردت فيها النعاس فطردني، أعلم أني قــادر بحــول الله، على حمل الأمانــة، وأن ثقلت، لكنــي لا أستطيع، ألا أحــزن إذا ذكر اسمــك، أو بعضــ حروفه! لا تلومي طفلك، فليس هذا هــو الضعف، الذي حذرتني منه

أتشفـع بأبي الطيب، إذ يبرر لصاحب الخيال، الزيـادة في ألمه على ألم الناس، ومثلك يعرف أني أهرب لسعة المذنبي × من ضيق غيره:

ومثلك لا يبكي على قدر سنه

ولكن على قدر المخيلة والأصل

أعود للدار، في أول النهار أتخلى فيها عن الصحافة، متوشحًا برداء الدبلوماسية!

أتخيلنـي، كمـا، قبـل ٣٥ عامًا، أدخل الـدار فتسألتنـي حلوة اللبن، عـن تفاصيل الصحاب والرفاق، حتى يأخـذني النزق للضجر! تعلمت منك، أن أختار من أصاحب، وأنتقـي من أنافس، وأفرز من أجالس، وهأنـذا اليوم، أجد كثيرًا منهم يغرقني بالثناء يثنـون على صفات، هـي بذرتك وزرعك، بالحـب والحنان والمراقبة التـي أبيع عمري اليوم، بقيدها المذهب يا حبيبتي، لم يهزم الشيب مقري في إلا نهار رحيلك.

أصبـح لـدي ابنك رفاق عمـر، يتذكرون سنـين معرفته بالعقـود، أحدهم عرفني منـذ عقد، وآخـر منذ عقدين وثالث منذ ربـع قرن، وآخر صادقني غـرًا بفيض شغفًا بصاحبـة الجلالة، قبل أن يخط شاربه، أرأيت يا أمـاه، كيف كبر صغيرك، التي كنت تقيسين طولـه بخط ترسمينه على الجدار؟! أولئك الكـرام الأوفياء، المحتفين بابنك، لأنـه استبدل بمهنتهم غيرها، أصدقـاء طيبون، مر العمر بصحبتهم في فسحة الحياة سريعًـا كفسحـة قصيرة في مدرسـة ليتني أعود طفلًا، أركض نحـوك لأدفن رأسي في حجـرك، المكان الأكثر أمنًا في الدنيا، كنـت سأخبرك، عن كل زميل، وصديق، وأجيب عن أسئلتك، سأبذل وسعي لأقول ما يضحكك حتى يصبح وجهك بدرًا وضاء، يزيل كل عتمة عندي أواصل فتضحكين أكثر، حتى تهوي ضحكًا من كرسيك، والضحكات تزداد فتتسع مساحة السعادة في حياتي.

أعلـم أن أبـا الطيب، سيعـذرني، أن استبدلت بأبي شجاع، أحـب أهل مصر لأبي الطيب أمي، وهل في النساء مثل أمي؟!

الحزن يقلق والتجمل يردع
والدمع بينهما عصي طيع
يتنازعان دموع عين مسهد
هذا يجيء بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر
والليل معي والكواكب ظلع
إني لأجبن عن فراق أحبتي
وتحس نفسي بالحمام فأشجع

لم تعـد حارتنا صغيرة، تسمح باستشراف وضع عائلة كل صديق محتمل، لتقرري: أينفـع ابنهم صديقًا أم لا؟! لقد كبرت البلاد يـا أماه، وسافرت كثيرًا، وأقمت في مدن شتى، عشت بعيدًا عن البيت الذي تذكرين قرب رحيلك، والبارحة الأولى عينت سفيرًا لخـادم الحرمـين الشريفين، ممثـلاً لبلادنا بعيدًا عـن بيتنا، عند أطيـب جار وأكرم أهـل، إنهـم يكررون أن ابنك محب، يا حبيبتي، ألسـت تكررين: لا خصلة تسكن قلوب الطيبين، كالحب! ألم تقولي لي: لا يجتمع الحب ونقيضه في قلب أحد!

أتذكريـن قولك لي: لا تنسـى أن الحب يتمدد، فلا يخالـط إلا سلوكًا يشبهه، تلك بركتـك، وإرثي منك، وطبعـك الذي لولاه لم وصفت به، تسألينـني عن أنواع الحب في غيابـك؟! فأجيب لأني أقدس أسئلتك ولو نسجها الخيال: حب الوطن! وهل يدانيه حب يا مزنتي؟

لا تعتبـي على إجابة سؤال بسؤال، فمنك تعلمـت أن السؤال مفتاح العلم، ولا يفتح

البــاب إلا بمفتــاح: أتذكرين كم مــرة أرضعتني التــأدب، ولو على نصــل الخلاف! ما زلــت أذكر ثغرك الباسم، يوم مددت إليك مجلــة لقبت ابنك بـ "سيد الحوار" وكيف تظهرين المجلة لصويحباتك بعد فنجان القهوة الأول.

أتذكريــن يــوم جئتك بإحــدى ضيفــات برنامجي، حاربــت المرض حتــى هزمته، أتذكرين كيف خرجــت السيدة محملة بالهدايا، وعندما حاولت أن أنقذ خجلها، قلت: إذا لم تكرم النماذج، فبمن نقتدي؟!

مازلــت علــى عهدك يــا حبيبتي، أحســن الظن بالنــاس حتى يثبــت العكس، وكم لدغــت، لكنني أنــام مرتاحًا، وكم لامني اللائمون، فلا أجد مــا أجيبهم غير ما أجاب المقنع الكندي لائميه:

يعاتبني في الدين قومي وإنما
ديوني في أشياء تكسبهم حمدًا
ألم يرَ قومي كيف أوسر مرة
وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهدا
فما زادني الإقتار منهم تقربا
ولا زادني فضل الغنى منهم بعدا
أسد به ما قد أخلّوا وضيعوا
ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا

أحــب الناس يــا أمي، ولك الفضل القديم، في عين ترى الخير فتدنيه لنداء القلب، وتدفــع الجهال بالإحسان والصبر، فالخلق عيــال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله، كما أن "رضا الناس غاية لا تدرك".

أمــا إصرارك علــى أهمية حسن الخلق، فلقــد ألبستني محبة الكــرام، ومجالسة

السادة النبلاء، وجعلنـي أفر من النذالة، وأستنكف أن أقابل أحدًا بوجهين! ما عددت فضيلة سعت بي إلى خير، إلا وجهك يقودني إليها بوقار العارف، وما أوذيت إلا حضنت يـدك، وسألت الله بعض جميل صبرك، على البلاء وتحملك الشدائد، فما يلبث الأذى إلا قليـلًا ثـم يزول كأن لم يمسسني قبـلًا! وما سألني أحد إلا تمنيـت أن أجيبه بأكرم مـن حسن ظنـه بي، ولا مر بي شتاء فغابـت عني سكينة اليقين، التـي تتدثرين بها في بـرد المشاي، ولا مر بي هاجس شكوى إلا تذكرت أن الشكـوى لا تعيد اللبن المسكوب، وكلما خالجني الملل استحضرت كيف كنت تستمتعين بالأشياء الصغيرة، فتتغنين بكوب شـاي، وتطربين لقطعة حلـوى، فأدركت أن من لا يستمتع بالأشياء الصغيرة، لن تمتعه الأشياء الكبيرة!

أخيرًا تأكدت من قولك: العطاء متعة لا تضاهيها متعة، والكرم دائرة تبدأ بالكريم وتعود إليه، وليس في أيامي يوم أشوق إليك من يوم القسم يا حبيبتي، فأي مجد أعظم مـن أن تقسـم بالعظيم، أمـام إمامك، بأن تخلـص للدين، ثم للملـك والوطن؟! وهل تحسـن الأم تربيـة ابنها إلا أن يكـون سفيرًا لأهله عند الناس، ثـم ألا يصطفي المليك همة أبنائه، ليحمل بعضهم الأمانة فيخدموا الباقين؟!

مازلت يا مهجة فؤادي، طفل السيّاب، الذي يهذي قبل أن ينام بأنك...

ستعوديـن... ستعوديـن بتحقيـق ما تحبين: شبـاب وطن، مخلصـين لدينهم، ثم لمليكهم، ووطنهم، يؤدون عملهم، بالصدق والأمانة والإخلاص،

دريــد لحــام
رحــم أمــي وطني الأول

ولــدت عــام ١٩٣٤ م، ونشأت في عائلة مكونــة من عشرة أولاد وأمهــم وأبيهم، في غرفتــين من حــارات دمشق القديمة، وفي ظــروف اقتصادية صعبة جــدًا، فكانت أمي التي تعرف معنى هذا الظرف الصعب، تحرص أن نحب بعضنا بعضًا، ونخيط الأثواب بالأجــرة لتساعــد والدي، الذي كان صاحب دكان صغير لا يكفي ليطعم اثنا عشر فمًا، فــكان فطور الصبــاح أن وجد لا يتجاوز ثلاث زيتونات مع نصــف رغيفة خبزته يداها الطاهرتــان، إنه يشبه إفطار فنادق النجوم الخمســة، ولكن من دون حنان وبكثير من الــدولارات، فكان علــي أن أبحث عن عمل إلى جانب دراستي، وأنا في زهاء الثامنة من عمري، فعملت حدادًا وخياطًا ومكوجيًا وبائعًا جوالًا وغيرها، وفرحت كثيرًا بأجري من الحدادة، وشعرت وكأنه كنز غمر قلبي بالسعادة، مع إنه لا يتجاوز خمسة قروش، لأنني سأساعــد به عائلتنا على الاستمــرار، ومع هذه الظروف الصعبة كنت أشعر بشيء من الألم أو العتب على المجتمع، لكنني الآن أذكرها بكثير من الفخر والحب.

كنت أول من نال شهادة البروفية من إخوتي، مع أنني كنت الأصغر بين الذكور، إذ أن الــكل كان يعمل مع متابعة دراسته ليساعــدني على دراستي، فنلت البكالوريا وفزت بمنحة دراسية في الجامعة لحساب دار المعلمين العليا وراتب قدره ١٣٧،٥ ليرة، وهكذا اطمأنت العائلة بالمورد الجديد، وأهديت أمي بأول راتب طباخًا بفتيل بدلًا من (بابور الكاز أبو نكّاشة.

ولأننــي لا أملــك المؤهلات الجماليــة والمادية ما يسمح لي بأن أتجــرأ على العشق، عشقــت الفــن، فــكان أول دور لي علــى مســرح الجامعة عــام ١٩٥٤ م، وهــو دور فتاة

استشهد والدهـا في فلسطين، وفي عام ١٩٥٨ م تخرجت وأصبحت مدرسًا للكيمياء في الجامعـة والمدارس الثانوية، وبتشجيع من الدكتـور صبّاح قبّاني، وصديقتي نهاد قلعي وخلدون المالح جذبني التلفزيون، الذي افتتح عام ١٩٦٠ م في الإقليم الشمالي من دولة الوحدة، وعندما ناداني أحـد طلابي بأستاذ غوار، اتخذت القرار الأصعب في حياتي، وهو التفرغ للفن في وقت لم يكن له هذه المكانة الاجتماعية، ولم يكن مصدر رزق آمن.

أنا لست مع من يقول أن المرأة نصف المجتمع، فالمرأة وحدها صفر وليست نصف والرجـل وحده صفر، ولكن هذين الصفرين إذا اجتمعـا سيساويان واحدًا، طبعًا هذا الـكلام غير منطقــي رياضيًا، ولكن اجتماعيًا هذا هو المنطـق، فالمجتمع الذكوري إلى الفنــاء أيضًــا، والمجتمع الــذي تكون فيه المــرأة مقموعة ليس نصفه مشلــولًا وإنما كله مشلول.

وأنا أقول أن وطني الثاني سوريا، ووطني الأول رحم أمي الآمن، والدافئ والحنون، وعليه فإن المرأة هي وطني الأول، كلما كبرت احتجت إلى المزيد من لمسات حنانها.

تميم البرغوثي
ابـن رضـوى عاشور

يعد الشاعر الفلسطيني والكاتب والمحلل السياسي تميم البرغوثي الشاعر العربي الأكثر شهرة بين أبناء جيله، وهو ابن عائلة أدبية عريقة، فوالده الشاعر والكاتب مريد البرغوثي، ووالدته الأديبة رضوى عاشور.

عـرف عنـه قدرته على إلقاء الشعـر المتميز، فهو قادر على شـد انتباه الآلاف من مختلـف الفئات العمرية، وتنوع جمهوره دليل على احتفـاظ الشعر العربي الكلاسيكي بمكانته التي اعتاد عليها.

ولـد تميـم في القاهرة ١٩٧٧ م، طرد والـد تميم بعد أربعة أشهر مـن ولادة ابنه، وذلـك بعد أن شرعـت الحكومة المصرية في عملية سلام مـع إسرائيل وطردت معظم الفلسطينيين من مصر.

لم يسمح لوالده بالعودة إلى مصر حتى عام ١٩٥٥ م، ولم يشاهد الأب ابنه في هذه الأثناء إلا خلال عطلات الشتاء لمدة لا تزيد عن ثلاثة أسابيع في بودابست، حيث عاش هناك في المنفى لمدة ثمانية عشر عامًا.

ورث تميم ميوله الأدبية من والديه، وكان لدراسته تأثير كبير على أعماله الأدبية، حيـث درس العلـوم السياسية والعلاقـات الدولية في عدة جامعـات مصرية وأمريكية حتى حصل على دكتوراه في العلوم السياسية.

تحـدث الشاعر تميم البرغوثي عـن والدته الأديبة الراحلـة رضوى عاشور خلال قصيدته (مش عارف)، افتخر من خلالها بأنه ابنها، كما وصفها بأجمل الكلمات التي تعبر عن حبه وتقديره لها ومكانتها عنده.

قصيدة للبرغوثي في رثاء أمه:

قالوا بي بتحب مصر قلت مش عارف
لكني عارف إني ابن رضوى عاشور
أمي اللي حملها ما يتحسب بشهور
الحب في قلبها والحرب خيط مضفور
تصبر على الشمس تبرد والنجوم تدني
ولو تسابق زمنها تسبقه يحفى
تكتب في كار الأمومة من الكتب ألفين
طفلة تحمي الغزالة وتطعم العصفور
وتذنب الدهر لو يغلط بنظرة عين
وبنظرة أو طبطبة ترضى عليه فيدور
وأمي حافظة شوارع مصر بالسنتي
تقول لمصر يا حاجة ترد يا بنتي
تقولها أحكيلي فتقول ابدأي إنتِ
وأمي حافظة السير أصل السير كارها
تكتب بحبر الليالي تقوم تنورها
تفضل رسايل غرام لليقدرها
أما القصيدة الثانية فهي باسمك يا أمي
باسم رضوى مصطفى محمد عاشور
الأرض دي رضيت تدور
رغم اللي كاسر ضهرها من كل جور

الأرض باسمك قررت تبقى بني آدم كريم
الضهر محني بس باين مستقيم
وكتير بتبقى مستقيمة
وهي محنية الضهور
باسمك يا أمي الشمس رضيت تدي نور
رغم إنها كانت ناوية تمشي
لأجل كشف جوهر العالم
وما بتشهدس زور
باسمك بيجي الغيم على نفسه
ويرضى يكون مطر
بشفاعة الشهداء وشفاعتك،
يهجر العالي وينزل للبشر
يسقى في ناس عطشانة مش تعبانة فيه
ناس خايفة منه ومش شاكة فيه وبتشتكيه
ورافعة الجرايد والشماسي تتقيه
دقق وشوف في كل نقطة هتلاقيه
مكتوب عليه
في سطر، أو أربع سطور
اسمك يا أمي
اسم رضوى مصطفى محمد عاشور

الطاهر بن جلّون
حين تترنح ذاكرة أمي

الطاهـر بن جلّون ولد في فاس في ١ ديسمبر ١٩٤٤ م، وانتقل إلى طنجة مع أسرته عـام ١٩٥٥ م حيث التحق بمدرسة فرنسية، وكان قد أُعتقل عام ١٩٦٦ م مع ٩٤ طالب آخر لتنظيمهم ومشاركتهم في مظاهرات ١٩٦٥ م الطلابية، وهي تجربة دفعته بحماس إلى تبني نوع آخر من المقاومة أساسه الكلمة لا الفعل.

ودرس الفلسفـة في الرباط ثم بدأ يدرّسها إلى غاية ١٩٧١ م حين إعلان الحكومة المغربيـة عزمهـا على تعريـب تعليم الفسلفـة، وردًا علـى هذه الخطوة غـادر المدرس الفرانكفوني المغربـي صوب فرنسا، حيث حصل على شهادة عليا في علم النفس، وبدأ مسيرتـه في الكتابـة بعد فترة قصيرة من وصوله إلى باريس حيث عمل كاتبًا مستقلًا لصحيفة لوموند، وبدأ ينشر الشعر والرواية.

في كتابـه (حـين تترنح ذاكرة أمي) يحكـي بن جلّون عن مرضـ الزهايمر، الذي أصـاب والدته، ويتحدث عن الآلام النفسية التـي اعتصرته عندما رأى أمه تتخبط في ذكرياتها، تخلط الحاضر بالماضي، توهان يدور بذاكرتها المثقوبة، المليئة بالثغرات، لا تميز بين أبنائها وبناتها وأحفادها،

الافاطمـة، هذا هو اسم تلك السيدة العجوز، يستعرضـ ابنها حياتها، وطفولتها، وزواجهـا من أزواجها الثلاثة، وترملها واعتبار نفسها فأل شؤم عليهم، فالأول مات في أقـل من سنة عندما أصيب بوباء التيفوس، والثـاني رجل كبير في السن، والثالث رجل طلق زوجته الأولى لأجل فاطمة عندما حملت، فقد كان يعتقد أن زوجته الأولى عقيمة، لأنهـا لم تنجب خلال سنتين من زواجه بها! وعندما طلق المسكينة وتزوجت "اللحام" أنجبت منه في أول ولادة توأمين ذكرين، ومع مضي السنين أصبح لها ثلاثة عشر ولدًا!

كانت حياة الا فاطمة تدور في المطبخ، وتنظيف الدار، ورعاية الأولاد، أميّة غير جاهلة، تتعلـم من أمـور الحياة والدنيا، تعبر عـن حبها لعيالها من خلال طبـخ ما يحبون من أكلات، لهـا أمنيـة وحيدة وهي أن تموت قبل أن تفقد أحـد من أحبائها فهي تفضل أن يبكوا عليها بدل أن تبكي عليهم.

تحولـت أمي منذ مرضها إلى كائن نحيل صغـير ذي ذاكرة مترنّحة، تنادي أفراد عائلتهـا الذين ماتوا منذ زمن بعيد، تكلمهم يدهشها أن والدتها لا تزورها، وتثني على أخيها الصغير لأنه كما تقول يحمل إليها الهدايا.

تنكفـئ أمي إلى طفولتي، تتقهقر ذاكرتي، خارج الزمن تعيش منسجة من الواقع، تسألني كل ربع ساعة "كم طفلًا عندي؟" وفي كل مرة أجيبها السؤال نفسه،

أمـي تخاف مـن كلثوم، امرأة تنم عيناها عن نوايا خبيثـة، هي تعرف أنني أرتاب من نظراتها، لذلك تنكّس رأسها حين تكلمني، تتذلل لي حين تسلم علي،

أتظاهر بعدم الانتباه إلى كيدها، أرى الخوف في عيني أمي، الخوف من أن تتخلى كلثوم عنها حين يبقيان رأس لرأس في المنزل،

تقـول لي أمي حين تكون في لحظة وعي: "أنـا لست حمقاء، كلثوم تعتقد أنني فتاة صغيرة، توبخني، تهددني، لكنني أعرف أن مداومتي على الأدوية لها أثر يوهمني بأنها خبيثـة، إنهـا بالعكس طيبة، كل ما في الأمـر أن تفرغها للعناية بـدأ يزعجها ويتعبها، لذلك لا حيلة سوى أن أغمض عيني عن كثير من ردود أفعالها"

"ما أقسى أن يغدو الإنسان بلا ذاكرة".

تنطقها الأم في لحظة وعي، تقولها باستسلام وقلة حيلة، يبتلعها الطاهر في ذاكرة الكتـاب، يخبئها إلى أن تجيئه اللحظة التي يسكب فيها ذكرياته مع تلك الأم الضئيلة، كانت أمه كما يتذكرها طاهر الطفل: أمًا شابة جميلة ناعمة، أضلاعها وعظامها اللينة تمنحهـا نعومة وجاذبية خاصة، بيضاء مثل فُلة، رشيقـة كغزالة، هذه الأم تتكون يومًا

بعـد يوم، تتضائـل يومًا تلو آخر، منذ أن استوطن مرضـ الزهايمر خلاياها الرمادية وبنـى فيها أعشاشًـا، يقتات على الذكريـات فتموت موتًا بطيئًا، يقـول فؤاد مصطفى عـن هذه الرواية: "هذه الرواية بيضاء كحمامة، وحزينة كمطر أزرق وصادقة كنبض، روايـة علـى قدر ما يجذبـك عطرها على قدر مـا يؤلمك وخز أحداثهـا تستطعم مذاق الحـزن والتعـب فيها لا رغبة في العذاب، بل هو تشـوق في استكمال الرواية، تعتبر هذه الروايـة واحدة مـن أعذب النماذج التي قرأتها في وصـف (الزهايمر) وعلى نحو بالغ الشفافيـة، بـل من وجهة نظري أفضـل ما كتب كرواية في وصـف تفاصيل هذا المرض وتطوره على الإطلاق وبلغة لا تشبهها لغة"

الكاتب هو الطاهر بن جلّون الأديب والمفكر المغربي الفرنسي صاحب طفل الرمال، وليلة القدر، وليلة الغلطة، وتلك العتمة الباهرة، وأن ترحل، كتبها بالفرنسية وترجمها للعربيـة (رشيـد بن حـدّو) الرواية عبـارة عن مذكـرات صادقة وحميميـة عبر فيها الطاهـر عن الخسارة المدمرة، التي حلّت به والحب الطاهر الذي يكنه لأمه، ويتحدث وبنغمـة حزينة عن شعوره عند سماعـه لهذه الكلمة التي تحير العقول، وعن ما انطوت عليـه ومازالت تنطوي عليه من معان يقول: ما اسم هذا المرض الزهايمر؟ أحيانًا تمر أمـي بلحظات صحـو وانسجام كاملين لا يهم الاسم الذي أطلـق على هذا المرض ،فما هي فائدة تسميته، تقول لقد فقدت ذاكرتي جدتها وتوهجها وأصبح رأسي مع تقدمي في السـن صغيرًا لا يقـوى على حفظ كل شيء، مـا أكثر الأشياء التـي يخزنها رأسي؟ هيا اسألنـي لأرى مازلت أتذكر! ثم تشرع في سرد أبنائها وأحفادها، وتخلط السنوات والمدن بعضها ببعضـ، وتصحح لنفسها أخطائها وتضحك من شيخوختها وتحتج كون التلفزيـون المغربـي لم يعد يبث أغانيها المفضلة، لم تعـد أمي تصلي فهي التي لم تفتها قـط صلاة واحدة، أصبحـت تنسى ولا تعرف كيـف تتيمم بالحجـارة الصقيلة ولا ما ستقولـه في ركوعهـا وسجودها، قالت لي كلثـوم الخادمة: إنها تقضـي حاجتها تحتها

وتعري في أنها يتعـذر عليها أن تصلي، بسبب نجاستها نفد صبرها تصرخ وتسخط حين تطلب شيئًا ما.

كلثـوم نفسها فقدت قدرتهـا على التحمل فأن تعتني أربع وعشرين ساعة على أربع وعشريـن ساعـة، بامـرأة مسنة فهذا يحتـاج إلى أكثر من صبر أيـوب، يحدث لها أن تفقـد السيطـرة على أعصابها، تطالب بفـترة عطلة مستخدمة ذلـك كأسلوب مراوغ لطلـب زيـادة في أجرتها، وهو ما أقبله دون تفكير، فما تقوم به لا يقدر بثمن، أن تحمل بين ذراعيها امرأة مسنة إلى الحمام، وتنظمها وتلبسها ثيابها وتطمئنها وتجيب للمرة العاشـرة على السـؤال نفسه، وتعيدهـا إلى غرفتهـا وتناولها أدويتهـا وتهيء طعامها وتسهر عليها ولا تفارقها، وحدها ابنتها ثريا هي التي يجب عليها أن تفعل كل هذا، لكن ثريـا تعاني من انهيار عصبـي يعجزها عن الصبر على الاعتنـاء بأمها، رواية عميقة واقعيـة رائعـة، تحس بالحنـان يرفرف حولك كفراشـة من نور رغـم الألم الذي ينقر عشب روحـك، تتحدث عن مرض عضال لا يقتل الشهية فقط، بل ويمزق الحلق وينقل الإنسـان إلى واحـات ضائعة، مرض تغيـب فيه الذاكرة، وتنحسر الأفـكار، والكلمات، والأحباب، والأصحاب، والمعارف، والأسماء، والأقارب، وأدق الأشياء، وأهمها، ويترنح الماضي، ويرتعش الحاضر، وقد تسألونني وما هو سر اهتمامك الدائم بهذا المرض!

وجوابـي هو لأن أغلى الناس عندي من الأحياء مصابة به، فأنا أعلم وهي لا تعلم، والله بكل شيء عليم.

"أحـب أمي لأنها أولًا أمي، ولأنني أعترف بفضلها عليّ، ولأن هذا الحب ثالثًا يكاد أن يكون دينيًا" ، بهذه العبارة يوجز الطاهر بن جلّون حساسيته تجاه محنة أمه، ويضع مخاوفه جانبًا في انتظار عودة الأحلام التي تسكنها أمه الغائبة.

رابح فيلالي . . .هل حدثكم يومًا عن أمي؟

هل حدثكم يومًا عن أمي؟ يأكل باطنها الألم وتحافظ على ابتسامة هادئة في وجهي، تبكي حرقة لغيابي وتصلي لأجل نجاحي فيما سيغيبني عنها أكثر وأكثر، أرحل بعيدًا وتقضي العمر انتظارًا عند شرفة بيت لا يأخذها منها موسم البرد أو عصف الريح أو فيضان المطر أو حتى حر الصيف، عندما ينقضي الخريف تقول سيأتي الغالي في الشتاء الذي سيأتي، وعندما ينقضي الشتاء تقول سيكون الجو أفضل في الربيع إنه يحب العصافير وسيغريه تغريدها بالعودة إلى قريته الأولى، وعندما ينقضي الربيع تقول لجاراتها من النساء الطيبات سيأتي الغالي في هذا الصيف، لأنه يحب دومًا أن ينام في شرفة البيت المفتوحة على اخضرار الجبال، وعندما تنقضي الفصول جميعها تقول للنساء تأخر الغالي كثيرًا في أعماله أسأل الله له التوفيق والرضا.

سأنتظره العام المقبل لقد وعدني ألا يتأخر ولم يتأخر إلا بفعل قاهر، لم تفترض يومًا تفسيرًا سيئًا لغيابي، ولم تقل كلمة جارحة لخاطري، تبتسم وتحضنني في شغف سمائي، وتنقطع لمزيد من الصلاة من أجل نجاحي وتوفيقي.

في مطبخ أمي كثير من البيض ينتظرني ولحم العيد الذي مضى لا يزال محفوظًا في مكان قصي من ثلاجتها، نصيبي محفوظ حتى لو تأخر غيابي لزمن، وآخر ففي قلبها دومًا متسع لي وحدي إلى أن أعود إليها يومًا، فأجد هي ونصيبي من الرزق في غيابي في انتظاري، لا يهم الزمن عند أمي، فكل الزمن أن في غيابي وفي حضوري فلا شيء في دنيا أمي غير محبتي والصلاة لأجل سلامي.

تشعرني في كل عودة إلى قريتي البعيدة والجميلة أن لي نصيبين من الرزق، واحد

تحفظـه لي السمـاء حيثمـا وجدت وآخر تحفظـه لي هي في خزانتهـا إلى أن أعود من أسفاري البعيدة والكثيرة.

مـا أكثر ما أخذتنـي المسافات والطموحـات القاسية في حياتي، ومـا أكثر ما كان غفرانها حاضرًا في كل العمر، ليزيدني إصرارًا على الغياب من بعد الغياب. أتمادى في الغياب وتتمادى هي في الغفران، أدركها الوجع يومًا. وجع الانتظارات الكثيرة والكبيرة، وعندمـا عدت إلى حضنها، قالت كل الوجع الذي كان هو الشوق إليك، وها هو جسدي سليمًـا معافى، لا تخف علي من الألم، الخوف يأتيني من الشوق إليك، يحتمل قلبي كل الأوجاع، وتخور قواه أمام رعشة الشوق إليك، تسكن الآلام جسم أمي في كل زاوية منه، وتغادره الآلام وصوتي يقطع عليها أزمنة الصمت الكبيرة في بيتنا الطوبي.

تورد لحمات خديها ويعـود إلى قلبها الربيع مزهوًا، وتنطلق مفردة بأجمل الدعاء وفي كل عـودة منـي إلى قريتي، في العودة تلـك زهوة لكل نساء القريـة، لأن زهوة أمي تتعدى الروح منها إلى كل روح تجاورها.

تـوزع أمي الحلـوى والهدايا التي أحملهـا معي على كل رفيقـة وشريكة لعمرها في القرية، وتطلب من كل النساء الدعاء لي بالصلاح والنجاح، وعندما أعتب على كرمها الكبير تقول لي: "عمري في عمرك أنت وقوتي في نفسك، وغاية وجودي أنت تكون أنت بخـير وفلاح في رحلتـك في الحياة، أدعو لك في كل صلاة، وأريد لـكل الناس أن تدعو لك بالخير، لأنك كل الخير الذي حلمت به في رحلة العمر، وأنتظر كرم السماء بإجابة دعواتـي لأجل حدوثـه، إنني أخاف ألا يكفـي دعائي وحدي، ليجلب لـك رضا السماء عليـك وعلى خطـوك، لا تحزن فقـارورة عطر واحـدة تكفيني، وخمار واحـد سيؤدي الغرض وحـذاء واحد سيحمي قدمي من الـبرد والريح لبعض الشتـاء أو أكثر، لكنك تحتـاج إلى دعواتي وإلى كل دعوات النساء الطيبات من أهل هذه القرية، لتكون في كل مكان بخير وسلام".

هل حدثكم يومًا عن أمي يا أصدقائي؟

لا أعتقـد أني فعلت فيما سبق من الزمـن، هل قلت لكم يومًا عن حكاية تلك المرأة التي لا تتوقف عن محبة الإنسان والمكان وحكاياه، تسكن معي في كل مدن الدنيا وتقطع معـي مطارات المشرق والمغرب وحديثها وسؤالها خالد عـن أخبار نساء قريتنا، الأولى بأسمائهـم وتفاصيـل الحيـاة فيهم، هل قلت لكـم يومًا عن امرأة تذهـب إلى أعراس القريـة تـأكل من الطبق ما تيسر منـه وتجبئ × في صدرها كل العمـر ما توفر لها من غال، لتحضره إلي وهي تعرف أنني أخذت نصيبي في الجزء الآخر من المكان.

تلـك المرأة التي تنسى في كل تنقل منها في الحياة أن تأخذ شيء يخصها عطرها، وخمارها، وسجاد صلاتها، وصابون حمامها، تنسى كل هذا ولم تنسَ يومًا أن تضع لي في حقيبة يدها قطع الكسرة والجبن المحبب إلى قلبي، وبعضًا من حبات التين المجفف.

عاشـت أمي ولا عطر في حقيبة يدها، عاشت ولا شيء يخصها، كل العالم كنته أنا وكل الحياة، أنا بل أن أمي تخجل من نفسها أن تخص نفسها بشيء لها.

مضى من الزمن عكرًا، كانت فيه أمي تخزن بن القهوة، لحين عودتي من أسفاري البعيـدة، وكثير من المتوفـر في البيت، لم يكن متوفرًا في كل يـوم لكن حرص أمي على راحـة نفسـي يجعلها تخبـئ لي الفرح والزهـو إلى حين قدومي، وعندمـا يحدث ذلك تقـول لي أمي: "أن الحيـاة جميلة وأيامها تحدث بخير وسـلام، وأن المطلوب مني هو مزيـدًا مـن الانصراف إلى طموحـي، وغايتي في الحياة، وإلى كل الـذي يشغلني عنها وعن الراحل الكبير أبي".

انصرفـت كثيرًا عنها وفي انصرافاتي الكثيرة في كل جهـات العالم، أتحدث إليها مـرة في الأسبـوع في الهاتـف المتحرك، وتقـول لي في الكلمة الأولى صوتـك لا يعجبني رأيتـك في منامـي في أكثر من ليلة واحدة، أنك تعاني مـن ألم ما. أخبرني صدقًا ماذا

يوجعك؟ في ذكاء أرد وأصحب ذلك بضحكة عالية، يوجعني بعدك يا "لميمة"، تضحك وتقول لي ماذا أفعل لك تقتلني دائمًا بجميل كلماتك،

اجلس في حضنها طفلًا لا يكبر وتتسلل أصابعها في شعراتي الكثيفة في ذلك الحين، وتحدثني عن الوطن والأمهات والأحلام، وأقول لها إني موجوع في كل مكان في جسدي، لأن المسافة طالت بيننا والشوق فكك ضلوعي في كل زاوية، تضحك في هدوء وتقول لي ستكون لك في الموالي حبيبة ستشغلك عني، وسيكون لك أطفال سيأخذون من حبك لي الكثير، وكثير ستكون لك دنيا كاملة في انتظارك وستنسى أنك في زحمة المدن وشغف الحياة.

ابتسم واتحرك لأنظر في عينيها عميقًا وأقول لها: ما أجمل أطفالي يا أمي وأجمل منهم أمهم يا أمي، لكن الأجمل في كل الدنيا أنت يا أمي ولولا بدؤك العظيم لما كان لنا أي بدء آخر يا سيدة كل البدايات الأولى والأخيرة في رحلة العمر.

أكل الوجع كثيرًا من قوة أمي، وغاب عنها سمعها ومع ذلك لم يغب عنها يومًا أن تسمع طرقي باب البيت في ساعة ليل متأخرة، حينها فقط علمت معنى أن يسمع الإنسان خطو الذين يحب بقلبه وليس بأذنيه.

لا تنام أمي ولا ينام وجعها قبل أن تراني في مكاني من المكان المحبب إلى قلبينا عندما تتوضأ للصلاة وتقف داعية إلى الله لي، ولكل الناس بالهدوء والسكينة.

تعصف بالبيت الكوخ الريح من كل زاوية ومكان، ويتسلل خيط البرق من بين شقوق البيت الطوبي للبيت الطيني، فأجد أمي كالعادة دومًا في الزاوية نفسها من البيت منخرطة في صلاتها، أتقدم بخطوي أسألها لماذا تصلي في ساعة ليل متأخرة، تقول لي حتى يحفظك الله لي منكل سوء ومكروه وحتى تكون بذرة طيبة تزرع الخير في كل مكان.

تخرج أمي من صلاتها لتنخرط في خبز مطلوع الصباح الباكر، ترفض أمي أن آكل كسرة الأمس، فالغالي لا يليق به سوى الطازج الجديد، وحتى قطرات الحليب يجب أن تأتي ساخنة من ضرع العنزة المقيمة في زاوية من حوش البيت.

تنطلق أمي بعد أداء كرمها الصباحي الباكر إلى مزرعتنا ولا تتوقف عن بذر الأرض وحرثها وسقيها سوى للصلاة. وبين الصلاة والصلاة هناك تسبيح لله وأذكار لا يتوقف رطب لسانها عن إلقائها في كل اتجاه، وفي وجه كل إنسان يعبر المكان من حولها.

كبرت وسافرت بعيدًا، وكل الدنيا من جمال روح أمي، أعجب أن لا تحب أمًا كما تحبني أمي، وأعجب ألا يشتاق ابن لأمه كما أشتاق لأمي، ظلت عند محبتها وظللت عند محبتي، وملأت المحبة بيننا سماء عمرينا، لا أسكن إلى ذاتي من غير سكنتها، ولا تهدأ روحها في غير سكينة من روحها إلى روحي.

كانت أمي هنا وكانت كل الحياة أغنية وقصيدة جميلة بل عزف قيثارة،

كان الحب هنا وكانت كل المحبة هناك، الوطن أمي والغفران أمي، والحلم أمي،

هل ستكون الأرض تلك بذلك العطر الذي يقيم فيها، وهل ستكون نساء القرية بتلك السمو الذي يقيم في كلماتهن ودعواتهن الكبيرة والمناضلة في الروح والمعنى؟

هل سأجد في البيت تلك الروح التي لا تغادره، وهل سيكون البيت بيتًا وهو من غير وهج، وهج روحها في زواياه؟

هل سأجد ذلك الكتف الذي ينحني أمامي من غير سؤال للإتكاء عليه، والاستناد إلى بهجة روح صاحبته.

لم أعرف أن الأوطان يمكن أن تكون أمرًا آخر غير وهج الأمهات،

كيف سيكون الوطن من غير أمي؟

في رحلتي الأخيرة كانت في انتظاري وبالشوق عينه، الذي أعرف وأدرك حتى وهي جثة جاهزة للرحيل.

الآن لا موعـد في المـكان ولا نبض في الشـوق، ولا رائحة للعطـر في طوب البيت ولا صوت للصلاة ينطلق من زواياه ولا دعاء يصحب خطوي في كل قدوم وغياب؟

هل تعرفون وطنًا من غير أمهات، أخبروني رجاء.

بعد هذا

هل حدثكم يومًا عن أمي. لا أعتقد أني فعلت ذلك أبدًا

رابح فيلالي

واشنطن يناير ٢٠١٤ م

مضـى عـامـان يـا أمـي

مضى عامان يا أمي
ولا الصبح صبح ولا الشمس شمس
ولا الظهيرة ظهر ظهر ولا النعاس نعاس
ولا المطر مطر ولا الدفء دفء
ولا المدن أوطان ولا الوطن وطن
مضى عامان يا أمي
لا شيء في قريتنا يعرف كيف يكون نفسه
الأرض الطيبة صامتة بلا صيف وبلا خريف
الزيتونات تلك حزينات واقفات
تمامًا كما تفعل شجرة الصفصاف
وحيدة في وقفتها في وجه الريح
تمامًا كامرأة حزينة يأكلها العمر
على رصيف الانتظار
لا العنب أعطى ثمره، ولا حبات التين
أينعت كما تفعله دومًا
ماتت جارات طيبات من حولنا
هناك يا أمي
لا الأرض أرض ولا السماء سماء
مضى عامان يا أمي
لا الحزن يعرف أن يصغر
ولا القلب يعرف أن ينسى

عامان يا أمي
في حقائبي لكل سفر
بعيد أو قريب قارورة عطرك الفارغة
وخمارك الأبيض المعطر
معطر بنكهة روحك
ومكتنز بقطرات ماء وضوئك
مضى عامان يا أمي
وأنا مازلت أبحث عن بقية جبينك
في سجادة صلاتك
أصلي وأدعو الله أن يرحم قلبي بغفرانه
وأن ينور قبرك بريحان رحماته
عامان يا أمي وأنا أسأل عنك
في عين كل امرأة أرها تقبل طفلها
في كل حديقة وفي كل قرية ومدينة
أخال المرأة تلك التي أنت
وأخال الطفل ذلك نفسي
عامان يا أمي.
لا المرأة تلك تعرف كيف تكونك أنت
ولا الطفل ذلك يعرف كيف يكون نفسي
عامان يا أمي
وأنا أصلي لأجل راحتك في جوف الليل
لا الليل انتهى بطوله
ولا صلاتي غيرت من طول صمته

عامان يا أمي
وأنا أنتظرك
عودتك كما وعدت
ألم تقولي لي طفلًا صغيرًا
أنا عندما أغيب أعود سريعًا
فلا تخف ولا تجذع
عامان يا أمي
لا أنت عدت
ولا الطفل مني عرف كيف يصدق
أنك كذبت
عامان يا أمي
لا الزيت يعرف طريقه إلى الوضوء
ولا برنوس أبي يعرف كيف
يدفئ بردي
عامان يا أمي
ضحك كل الناس من حولي
وأنا لا أعرف كيف أدرك عمري
عامان يا أمي
هما كل الحول يا أمي.

رابح فيلالي

واشنطن، ديسمبر ٢٠١٤ م

المصـــادر:

١. نساء في حياة الأدباء – ديب علي حسن – دارة المنارة بيروت ٢٠٠٣،

٢. نساء في التاريخ العربي – سنية قراعة – كتاب مجلة العربي ٢٠٠٩،

٣. مرفأ الذاكرة – مجموعة من الكتاب – مجلة العربي ٢٠٠٣،

٤. وجع الذاكرة – سعدية مفرح – كتاب مجلة العربي ٢٠١٠،

٥. بينظير بوتو ابنة القدر – نوال مصطفى – نهضة مصر للطباعة والتوزيع ٢٠٠٨،

٦. أروع الروائع – ناصر عاصي – دار المؤلف ٢٠٠٤،

٧. المـرأة والجمال والحب في لغة العرب – عرفان محمـد حمور – دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٦،

٨. نزار قباني روائع الأعمال الكاملة – طارق جامع – الروائع للنشر والتوزيع ٢٠٠٦،

٩. جمال العربية – فاروق شوشة – كتاب مجلة العربي ٢٠٠٣،

١٠. محمود درويش رحلة الشعر والحياة – ديب علي حسن – دار المنارة بيروت

١١. منفى اللغة – شاكر نوري – كتاب دبي الثقافية ٤٨

١٢. سلفادور دالي أنا والسوريالية – ترجمة أشرف أبو اليزيد – كتاب دبي الثقافية ٣٨

١٣. رحلة جبلية، رحلة صعبة – فدوى طوقان – دار الشروق عمان ١٩٨٥،

١٤. نحن والرَّدى – صلاح أحمد إبراهيم – الظفرة للطباعة والنشر ٢٠٠٠،

١٥. صحيفة أخبار الأدب – العدد ١٠٠٣ – ١٤ أكتوبر ٢٠١٢،

١٦. كتـاب حمدة – محمـد القيسي – المؤسسة العربية للدراسـات والنشر بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٩،

١٧. ذكريات – فاطمة اليوسف – مؤسسة روز اليوسف للطباعة والنشر ١٩٥٨،

١٨. ذكريات تراني ،توماس ترانستترومر،ترجمة طلال فيصل،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة٢٠١٥

١٩. الغريب،ألبير كامو،مركـز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، القاهرة ٢٠١٨ الطبعة الأولى.

٢٠. حليـب أسود،إليـف شفاق،مسكيلياني للنشـر والتوزيع ،تونـس العاصمة ،الطبعة الأولى ،٢٠١٦.

الفهرس

الإهداء 5
هذا الكتاب 6
قالوا عن الأم 7
الأم في اللغة العربية 9
هؤلاء نسبوا إلى أمهاتهم 11
السيدة مريم العذراء افضل نساء العالمين 12
أم موسى -عليه السلام- - الأم الباسلة 16
السيدة هاجر - أم إسماعيل 22
آمنة بنت وهب - سيدة الأمهات 35
حاتم الطائي - أكرم العرب 37
عمرو بن كلثوم وأمه ليلى بنت المهلهل 39
صخر بن عمرو - بين إمراته وأمه 41
أم انس بن مالك 42
أويس بن عامر - له أم هو بار بها 54
اسماء ذات النطاقين وإبنها عبدالله بن الزبير 60
عائشة الحرة - ام عبدالله والصغير 67
جليلة خانوم - ام ناظم حكمت 71
اثر الأم في حياة عزيز نيسين 74
البير كامو -علاقة شديدة الخصوصية 77
سلفادور دالي - ماذا تعني أمه بالنسبة إليه؟ 78
سيجموند فرويد - المتعلق بوالدته 81
مويان في كلمة نوبل ٢٠١٢م 83
بينظير بوتو - ابنة القدر 88

جميلة بوحيرد ووالدتها باية الصفاقصية	93
حنا مينا – ابن الشحادة	96
عبدالرحمن الأبنودي – أنا ابن فاطمة قنديل	97
ماحي بينبين – مراسيم جنازة الحليب	99
توفيق زياد رسالة عبر بوابة مندلبوم	100
محمود درويش – أحن إلى خبز أمي	105
جبران خليل جبران – مازلت أشعر بقرب أمي	108
نزار قباني – خمس رسائل إلى أمي	110
واسيني الأعرج – أمي أكبر من عيد وأوسع من قبر	116
معروف الرصافي – أوجب الواجبات اكرام أمي	129
د، نقولا زياد – إيقاع على اوتار الزمن	130
أدهم شرقاوي(قس بن ساعدة) صباح أمي	133
فدوى طوقان- شقاء الأم إنعكس عليها	135
محمد الماغوط –أمي أعطتني الحس الساخر	140
نازك الملائكة – رائدة الشعر الحر	141
الإمام الصادق المهدي – يا رحمة الله زادك الله رحمة	145
فاكوندو كابرال – المُغني والشاعر الجوال	150
صلاح أحمد إبراهيم – لك يا أمّ السلام والتحية	153
محمد القيسي الطريق إلى الوالدة	156
إحسان عبدالقدوس – أمّي صنعت منّي هذا الرجل	161
أنيس منصور – أمّي. إبنها	167
مويس كين – قميص خاص للأُم	169
اغاني الأم	171
المصادر	333

منشورات الفنار

ترحب منشورات الفنار دائمًا بآراء، ومُقترحات قرائها الأعزَّاء، وتدعوهم دومًا لإفادتنا بملاحظاتهم لتطوير منتجها الثقافي على الدوام

راسلونا عبر بريدنا الالكتروني

elfnaar@gmail.com